

قصة حب

رواية بحري

ياقوت العرش

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>



Text

Analy

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

يا قوت العرش

محمد جبريل

يا قوت العرش

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

"دعنى أخبرك : إن صياد السمك يقاسى أكثر من غيره من أصحاب الحرف الأخرى . إنه يتعرض لخطر التعاسيح ، وللغرق .. وعندما يلقى بطرائحه فى الماء ، فإن رزقه يصبح معلقاً بيد القدر .. هل ثمة حرفة أخرى أقسى من ذلك ؟ "

" من مخطوط مصرى قديم "

روفا

* قالت قاضي القضاة

للقير ، وقال : يا سيدي لوجه الله ،
وسار يستعطف بخاطر الفقير ،
ويتألم له ، ويلين له الكلام ،
والشيخ شمس الدين يبكي ، ويتعلق
بين يديه . فقال : تنوب إلى الله
تعالى . فقال : نعم ، ولا أعود
لعلها . فقال له الفقير : إن كان
لا بد ، فسافر إلى ناحية الإسكندرية ،
 واجتمع بمدي يبالغت العرش ،
فإنك إن شاء الله تعالى تلقى الفرج
على يديه *

* فاستيقظ الشيخ شمس الدين

ابن اللبان ، فقام مسرعاً لتأليب الخطوة ،
فوجد مدي يبالغت العرش واقفاً
ببابها يهتد ، وبهمهم ، وله زفير
كالأسد ، فقال : يا محمد ، أليس
فقد قضيت حاجتك ، فإني سقت

(٨)

عليه جميع الأولياء ، فلم يقبل ،
فسقت عليه سيد الأولين (عليه السلام)
وقد رأيت ذلك بعينك ، فساغر الآن
من وقتك ومن ساعتك إلى ملئتنا ،
وطف حول صندوق سيدى أحمد
البدوى ، وأقم عنده ثلاثة أيام ، فإن
حاجتك قد قضيت إن شاء الله
تعالى "

كتب محمد فريد وحدى في " دائرة معارف القرن العشرين " :

" مما يجب أن يسجل في باب الروى التى وقعت كفلق الصباح ،
مارأته إحدى السيدات ممن لهن بيتنا صلة ..
رأت تلك السيدة فى إحدى السنين ، كان الأستاذ ياقوت العرش
المدفون يقرب أبى العباس المرسى بالإسكندرية ، قابلهما ، فحاولت الاستئثار
منه .. فقامت خلف باب ، فخطبها بما معناه : إن الله سيعوضها عن
صبرها خيراً ، وسيعلى قدرها بين الناس ..
ثم قال لها :

- عدى الشهور ، فإذا مضى سبعة عشر ، أو سبعة وعشرون يوماً
(شك من رائية العلام) ألحق زوجك بوظيفة فى الحكومة .
وأعاد عليها قوله :

- عدى الشهر ..

ثم انصرف ..

فلما استيقظت ، أخبرت طائفة من الناس بما رأت . وكان من تلك
الطائفة أهل بيتنا . ثم عدوا أيام الشهر ، فما وافى اليوم السابع عشر ، حتى
ألحق زوجها بإحدى الوظائف ..

(٩)

ولا ننسى أن نقول - عقب هذا - أن زوج هذه السيدة لم يكن موجوداً
بوظيفة فى يوم معين ، بل كان أشبه باليتيم من التوظيف . وكان من بيده
توظيفه ، مسافراً فى مشناه بالقاهرة ..
ولا ننسى أيضاً أن نقول بأن تلك السيدة رأت الأستاذ ياقوت العرش
بهينة حبشى نحيف الجسم ، وأعطت كثيراً من أوصافه ، فرويت مطابقة لما
ورد عن سمائه فى كتب السير ..

(المجلد الرابع - ص ٩٩١)

تصحیح خطأ :

ذكرنا فى مادة < رآى > عند الكلام على الرويا ص ٩٩١ أن سيدة
رأت الأستاذ ياقوت العرش فى اليوم يكلمها بكلام ، جاء فيه هذه العبارة
< عدى الشهر ، فإذا مضى سبعة عشر ، أو سبعة وعشرون يوماً ، ألحق
زوجك بوظيفة فى الحكومة > ..
بعد أن كتبنا ماكتبناه ، اتفق أن حضرت السيدة صاحبة المنام ،
فاستعدناها أيام ، فأعادته كما كتبناه ، إلا أنها قالت إن الأستاذ ياقوت العرش
لم يصرح لها بتوظيف زوجها فى الحكومة ، بل قال لها - بعد أن بشرها
بالخير والرزق - عدى من الشهر ١٧ يوماً أو ٢٧ ، ولم يزد !
(المصدر السابق - المجلد الرابع - ص ٩٩٧)

رأت أنسية - فيما يشبه الحلم - سيدى ياقوت العرش ..
لم تفاجئها رؤيته . استقر القلب فى موضعه ، منذ التقى بها سيدى
المرسى . فاجأها المكان . ممسحة بعينها . تأكدت أنه هو البيت المهجور :
الظلمة الشغيفة ، والصالة الواسعة ، والكنبة الوحيدة الملتصقة بالجدار ،
والكراسى القديمة ، والإطارات المستعملة ، وعرق الخشب الضخم يصل
ما بين المنتصف وأعلى النافذة المطلة على الشارع الخلقى ..
طُفِقَ باب الحجرة ، فهبت مذعورة ..

غابت - لثدته - تفصيلات المكان . دخل من الباب المغلق ، رجل
في حوالى الأربعين . أيقنت أنه هو الإمام يلقوت العرش : قامت له التحية ،
وسمرته الحلوة ، وعيناه الواسعتان ، المكحولتان ، والسكينة الغالبة على
حاله ، والسبعة الهائلة الحجم تجرى على حباتها أصابعه ..
لماذا اختار زيارتها حيث تقيم ؟ .. وهل يعرف أنها منعت تردد
الرجال عليها ؟ ..

همس محمود عباس للخواقة فى أذنهما ، وهى تميل من شارع
الحجارى إلى ميدان المساجد :
- سأزورك فى العاشرة .. الليلة ..
نقر على الباب فى الموعد وهو يتلفت . طل ترقبه ، فطلت ضربته .
ظل التسكون سائراً ..
غلبه الارتباك حين علا التوتر فى نافذة بالبيت المواجه . ترقبها فى زحام
شارع الميدان :

- أين كنت ؟

لوت بوزها :

- لم أعد أذهب إلى البيت ..

وهو يلاحقها :

- أين تقيمين إذن ؟

تغضت طرف الملاحة بمحشية :

- ليس شأنك !

- أنسية ! ..

فى صوت يردعه الغضب :

- كلمة زائدة وأخرج عليك الخلق 1

لم تكن أنسية التى عرفها . الخاتم الذى عثر عليه فى محطة دمنهور ،
وسكت عن تنقله بين أصابع الآخرين ، يلتقطه كلما ناولته الرغبة ..

أنزله رفضها ..

كان قد أمضى يومه فى زيارة أخواله بحى أبو الريش . البيت يطل
على وابور النور ، وعلى المحاليج ، وتغشى نهاية الطريق أمامه إلى السكة
الزراعية . يهمل نداءات حوزية الضالعين . يفضل السير ماشياً ، إلى شارع
الصناعة ، حتى ميدان المحطة ..

لاحظ حيرتها وهى تقف على رصيف المحطة ..
خمن أنها قدمت بقطار دسوق . انتحى رصيفاً جانبياً ، واتجه ركبته
إلى الباب الخارجى ..

تأكدت الحيرة فى تنقل خطواتها بين الواقفين على رصيف القطار
القادم من القاهرة ، والواقفين على رصيف القطار القادم من الإسكندرية .
تلقف سؤالاتها عن المدينة التى يسافر إليها للقطار ..

قال باندهاعته العفوية :

- أى قطار تريدان ؟

مالت - بالمفاجأة - إلى الوراء . غابت الارتباك ، ومضت ناحية
الباب الخارجى ..

تحققها صوته :

- إذا خرجت ، فلن يسمعوا لك بالعودة ..

أبطأت خطواتها ، فأيقن من حيرتها . ألقى وجهه لابتسامة ود :

- أى قطار تريدان ؟

عجزت عن مغالبة دموعها ، فبكت . انخرطت فى بكاء حاد ،
متواصل . طرف خيط قاذوا منه إلى بحرى . صحبها إلى اسطبل التميمي ..

أهمل سؤال أمه فى الصباح عن رائحة العليق الملتصقة بجسمه . عاد
إلى أنسية قبل الغروب . ترك له شاهين عبدالفتاح ، العلاف بالموازنى ،
شغفه المظلة على أبو العباس . ثم صحبها إلى أصنفاء عزاب ، عرفت
لتردد عليهم - فيما بعد - وحدها . وعرفت شوارع بحرى وحوليه ولوقته . لم

(١٢)

يسألها عن البيت المهجور : كيف عرفته ، ولأمن صاحبها إليه أول مرة ، فجعلته بيتاً لها . ينتظرها في ناصية سليم البشرى ، أو في الساحة الواسعة قبالة دكان الحاج محمد صبرة ، أو في مدخل السبالة . يحاذيها ، ويهمس بالموعد . يجدها في انتظاره . لاتسأل ، ولاتناقش ، ولاتعترض .. فماذا جرى ؟!

لم يرها منذ تلك الليلة ..

لزم البيت ، لاتفادره إلا لقضاء حاجة . خصص لها سيد مصروفاً تنفق منه . جرت النقود في يده من صدقات المحسنين ، فترك القرن . أقام كشكاً في مطلع النحديرة الخلفية لأبو العباس ، ناحية الموزينى . يبيع أدوات المراكب والصيادين : الحبال والأخشاب والقنين وقطع الحديد وبراميل الزفت والبوص والغزل ..

روى لها عن الأيام التالية لمغادرة السلطان ضريحه ..

أزال عن وجه الحياة في بحرى التصرفات الخاطئة . أشرقت مكاشفته ، وتلاذت ، واستطاعت التصرف في عتمة العوالم المظلمة . اندلعت ، فبهدتها أضواء حضرة الجلال والعزة . طلب الإمام نقله إلى ديوان وزارة الأوقاف . نسي في صلاة الجمعة ، فأعاد قراءة الفاتحة ، وأخطأ في آيات من سورة البقرة ، فعلت أصوات المصلين بالآيات الصحيحة . تفسرت طبيعة الجلسة في درس المغرب . شهد نصف الدائرة - حول الإمام الجديد - مريرين لم يترددوا على الجامع من قبل . اختفى عبد الرحمن الصاوى . أخبر الأكرين أنه اعتزم قضاء بقية أيامه مع أبنائه في القاهرة . هاولها الجاف يساعد على شغائه من الربو . اكتفى الحاج قنديل بجلسته في الحلقة منذ الصباح إلى العصر . يتردد - دقائق - على قهوة الزردونى ، أو مطعم النبلاء . ثم ينصرف إلى بيته في السبالة ، لايفادره إلى اليوم التالى . تصور أبنائه - في البداية - أنه مريض . ألحقوا عليه فى الخروج والتزهة وشم الهواء ، والتزدد على مجلس محمد صبرة ودرس المغرب . اصطدم

(١٣)

الإلحاح برفض صامت ، وإقبال على الصلاة ، ربما فى غير المواعيت الخمسة . تباطأ إلحاحهم وذوى ، فالتقوا بقائه فى البيت ، لا يفادره إلا لضرورة عمل ، أو لصلاة الجمعة . لم يعد يحرص على أدائها فى أبو العباس . يضع التفتحة على كتفيه ، ويعبر الطريق إلى مسجد سيدى نصر الدين ، المقابل . يودى الصلاة ، ويعود . يكتفى بالرد على السلام والتحية . حتى دعوت التيمى بأن يجالسه أمام الإسطبل ، يرد عليها بتعنت مجاملة ، مدغمة . وضع حمادة بك همه فى الاستعداد للانتخابات . زاد من معارفه بعيداً عن السبالة ، ليعينه فى حملته . تزايدت أعداد الوافدين إلى الجامع . ضاقت بهم ساحته ، فافتقدوا المدرجات ، والساحة المقابلة ، ولستندوا إلى الجدران والنخيل وأعمدة النور ، يلتسمون البرء والنصفة والمدد ..

اختلقت الكلمات فى حلقها :

- سيدى .. أنا لم ..

قاطعها فى لهجة مشقة :

- أعرف ..

ولحاطها بعينه :

- متى تذهبن إلى بيتك ؟ ..

انفطرده موضعاً :

- بيتك أنت وسيد ..

خلطت الحيرة صوتها :

- كل منا فى حاله حتى تجد غرفة تكويننا ..

قال الإمام :

- مايدفعه سيد فى قهوة كشك يكفى إيجار شقته ..

أحنت رأسها :

- أصحاب البيوت يرفضون ..

(١٤)

رنا إليها بنظرة متأملة :

- أعرف ..

ثم ومضت عيناه بالتذكر :

- انذهبي في الخلد إلى التاجر كمال مصباح ، سأزوره الليلة ، وأوصيه بك ..

أخذ عليها القسم بالأمر تروى مآدار بينهما إلا لسيد . قال :

- أخاف أن يطالبك الناس بتأكيد ما تقولين . عندي من الضعف والمشغوليات ما يبعدني عن السير في طريق الوهم ..

وقال وهو يذوب في الفراغ المحيط :

- قال سيدنا رسول الله : لست بملك !. والشكوى لغير الله طريق السائرين وراء راية إبليس !..

...

الدكان في شارع الميدان . يبيع المانيفاتورة : أقمشة الكرشيت والبنفتة والدمور والشيلان والكشمير والتوبلين والبراقع والمئس والكريشة التحرير ..

هتف الرجل كأنه ينتظرها :

- هل أنت ؟ ..

في حوالي الخمسين . له حاجبان كثيفان ، يعطيان إحساساً بالقسوة ، وإن ناقضتهما الشفتان والملاحم الرقيقة لبقيّة الوجه . يرتدى " بنش " تكشف فتحة صدره عن جلابب من الصوف ، ويلف حول عنقه كوفية بيضاء بشرائيب ، ويضع على رأسه طربوشاً أماله ناحية اليسار ، وأمسك بيده مسيحة من الكهرمان ..

روى لها عن استقباله سيدى ياقوت للعرش في نومه ، عقب زيارة العرش لها ..

قال :

(١٥)

- هل تعرفين شارع البلقطرية ؟ ..

وهي تضم أطراف ملامتها :

- نعم ..

مد يده في درج المكتب :

- لي بيت هناك .. تخلو شقة بطابقه الأرضي .. هي لك ولزوجك ..

أخرج من الدرج جنبها ، دفعها إليها ..

تراجعت :

- تكفى الشقة ..

قال :

- الشقة خالية ، وتحتاج إلى تأثيث ..

أضاف يستحثها على القبول :

- هذا أمر سيدى ياقوت العرش !

...

قال سيد :

- ألا يوجد غير هذه الشقة ؟

وهي تعبر بأصابعها :

- إنها غرفتان وصالة ..

قال :

- أخاف الشارع ولا أرفض الشقة !

همست متسائلة :

- المخدرات ١٢

وأنشأت بيدها مهولة :

- مادمننا في حالنا ، فلا شأن لنا بما يتاجر فيه أهل الشارع ..

وهو يتلاعب بقطعة جبل في يده :

- هل نسيت أن لؤاد أبو شنب يسكن البلقطرية ١٢ ..

أفق الغريبيوم

قال قاسم الغرياني وهو ينفخ :

- حرررر !

ثم وهو يجفف بالمندبل المحلاوى حبات العرق اللابئة فى جبهته ووجنتيه ورقبته ومعصميه :

- عرفت الآن فقط .. لماذا اختار الله النار وسيلة للتنذيب فى الآخرة !!

أسفلت الطريق ينفث صهداً ، والرياح الساخنة تكس الشوارع ، تدبر دولامات الهواء ، صغيرة ، سريعة ، متلاحقة ، ترتفع إلى أعلى فى عمود متعرج . تكسو البناليات ومدى الرؤية بغلالة رمانية ، تسع الوجوه بكرابيج ملتصبة ، وتقتحم الأقواء بالتراب ، والرطوبة المشبعة بالملح ثقيلة وخائفة . حتى الضلال استكانت ، لا تتحرك ، على الأرض والجدران ..

قال محبى قبطان :

- أين كنت ؟

وهو يحرك المندبل أمام وجهه التماساً للهواء :

- فى قسم الجمر ك ..

بحلقت عيناه :

- لماذا ؟

هل التضح أمره ؟ ..

إخفاء دخوله القسم سيدينه بالكليب . رآه حمودة هلول والعسكري يصحبه إلى داخل القسم ، ويدها مكبلتان . استوقفه مخير ، وهو يضع على كتفه فخذة لحم . زاد شكه حين جرى لرويته ..

قال قاسم الغرياني بصوت متراع :

- خطفت فخذة لحم من عربة جيب انجليزية ..

وهو ينخسه فى بطنه بمودة :

- ماذا فعلوا معك ؟

فى نبرة مستهينة :

- ثالث يوم ، أفرج على ضابط المباحث ..

نقر على الترايزة بأصبعه :

- تستأهل !

عض الغرياني بأسنانه طرف شاربه :

- انهم يسرقون البلد .. فماذا لو سرقنا طعامهم ؟

قال محبى قبطان :

- وماذا تسرق بعد خروج الانجليز ؟

وعاود لخصه فى بطنه .

- أيام ويتركون الاسكندرية تماناً ..

هتف حمودة هلول :

- المعلم ناجى أبو لبن وصل ..

قاسة طويلة ، أقرب إلى الامتلاء ، وإن بدا جسمه غير متناسق .

يعالج شعره المجدد بدهانات يدها له محمد صبرة ، يأتى بها صابر الشيلنجى من سوق الدقاقين ، أنفه الضخم لا يتسق مع نحافة وجهه. عيناه تشبهان عيني سمكة ميتة ، فلا يريق ، واللون باهت . وثمة سواد أسفل العينين ، وانتفاخ فى الحاجبين . وكست الشعيرات البيضاء فوديه . يرتدى

جلابية من الكتان الأبيض المزهر ، وبحرص على عوجة الطربوش ، وأن يكون الرز بالجانب ، ويدس قدميه في مدام معربي ..

قال المعلم التميمي :

— اسمي ناجي التميمي ..

قال حمودة هلول :

— أبو لبن هو لقب كل المربجة ..

قال التميمي :

— للمربي أبو بك !

لمح الحاج أحمد الزردوني حركة يد التميمي من جيبه إلى الترابيزة .
صاح :

— إلاً هذا ..

أردف في صياحه :

— لاتشرب الزفت في قهوئي ..

قال التميمي في بلاتنه للهانة :

— ماذا جرى لك يا زردوني ؟

قال الزردوني :

— مستحيل أن تشرب الخمر تحت أعين الأولياء ..

قال التميمي :

— هذه قهوة وليمت مسجداً ..

أشار الزردوني بامتداد ذراعه إلى الطريق :

— تعضل بامعلم تميمي ..!

قال التميمي في نبرة ملانة :

— أنا تعاطي الحشيش أو الأفيون .. لكنني لاتعاطي المحرمات ..

استعاد الزردوني الكلمة :

— المحرمات ؟!

قال التميمي :

— للقرآن حرم الخمر .. وأنا لاتعاطاها ..

ثم وهو يرمي إلى الزجاجة :

— هذه راوند .. لتشربها تصدري ..

ولجأ إلى يديه معبراً :

— أنا أؤدي فرائض الشرع ، فلا أزيد عليها .. ولا أحرم نفسي من

اللذات المباحة ..

قال الجد السحاري :

— من يفتش في مفك .. لن يجد إلا المسخرة !

تلفت التميمي حوله في تعاطم :

— عانت نساء كوم بكير من هجرة أهل المدينة في أعوام الحرب .. أنا

أحاول تمويضهن ..!

لم يعرف عنه أنه يؤدي الفرائض ، فهو لا يتردد على المساجد ،

ولا يشارك في حلقات الذكر أمام أبو العباس والبوصيري ، ولا يراحم في

المولد ، ولا انتوي أداء الحج . يقينه — طالما أعلنه — أن كل شيء مكتوب

في القدر . ما هو مكتوب في القدر لا بد أن يحدث ، فلا ملامة فيما يصدر

عن الإنسان ، والأمور تستوي في الطاعة والمعصية ، مادام الله يستغنى

عن أعمالنا ، ولا يتأثر بها ..

عرف عنه صداقته لتجار الصنف في البلقطرية . وقال صابر

الشبلنجي أنه يشاهده كل صباح ، يصع على لسانه فصاً أسود ..

كثير تردده على كوم بكير ..

كون صداقات وعلاقات . ألف الوجوه ، والأجساد ، والبساتر ،

والعرز ، والفوليس المتكيلة على الأبواب ، والستائر المفترجة ، والمصدلة ،

والكراسي المرسومة أمام الجدران ، والملابس الشفافة ، والدعوات

الصريحة ، والهامة ، والتطرات المحنفة ، والمتاملة ، والمشفحة ، والتأود ،

والفنج ، والضحككات ، وأى حذمة ، وتفضل ، ومساء النجف ، والبحارة
الأجانب ، والصعيدية ، والبلطجية ، والفتوات ، والقواديس ، وزجاجات
الحمر الفارعة تتعثر بها قدمه ، والألوان العالقة ..

أخذ بأصبعيه من عتبة النحان ، ولف سيجارة بورق الليفة ، ثم
لصقها بلعابه . وضعها بين شفتيه ، وأشمط طرفها بالكبريت ..

غمز بعينه لمحبي قبطان :

.. لم تأت عصر أمس ..

قال محبي قبطان وهو يدعك ذرات التراب داخل عينه :

.. رحت قهوة النجماوى لشرب فنجان قهوة تركى ..

قال التميمي :

.. الغريالى أكد أنه رأى فى كوم بكير ..

برقت عيناه بالعصب :

.. شاهدى وأنا أتمشى مع أمه !

قال الغريالى :

.. لم أزع أنه ذهب إلى كوم بكير .. سيمتعه الثوبليس لصغر سنه !

قال محبي قبطان :

.. أنا أكبر منك بثلاث سنوات ..

قال الغريالى :

.. الرجولة ليست باليمن !..

وأطلق ضحكة من أنفه :

.. ما زلت بكراً يامحبي !..

قال محبي قبطان :

.. تركت لك الصبابة !..

قطب الغريالى جبينه :

.. على الطلاق ..

قاطعه الجد السماوى :

.. من عود لسانه بالطلاق حرمت عليه زوجته ..

وهو يهز كتفيه :

.. أنا أعرب ..

قال الجد السماوى :

.. لا تلحف بالطلاق وأنت أعرب ، حتى لا تطلق منك حوريات الجنة !

اتجه للغريالى إلى محبي قبطان بنظرة متسائلة :

.. مالىذى أتى بك إلى بحرى ؟ .. كل أقاربك يسكنون كهر عشرين ..

قدم محبي قبطان إلى الاسكندرية منذ عشرين عاماً . ملل حريصاً

على لهجته للصعيدية ، لم يبدلها . يحيون عليه تحول الألف إلى جيم .

يعيب عليهم الفنونة المعلقة بزعيق . إذا تكلم ارتعش صوته من الاتفعال .

اشتمل ببيع للبضائع المسروقة من الجمرك : ملابس وألمعة ولعب . يقف

بها على ناصية التقاء ميدان المنشية بشارع الميدان . ثم احتار موضعاً على

الرصيف ، أول الطريق إلى للتخدية الحلبية لجامع أبو العباس . يبيع كتب

الدعاء وقضاء الحاجات وأوراد الصوفية وقصائد الأبهةالات وشرح آيات

القرآن . دخل فى صداقة مع قاسم الغريالى . تحايل على عباس الحوالة ،

فأذن له بركوب البحر . له عود ممثلة فاره ، وعينان مدورتان ، حادثا

النظر . ولم يكن يطول ذقه أو يحلقها ، فتبدو متبثرة الشعر ، يختلط فيها

السواد بالبياض . ومرسوم فى أعلى صدغه رسم عصفور أخضر . عرف

عنه لجادة صيد السمك بيده . يذبح أصابعه — مفتوحة — فى الماء . يعيدها

مضمومة . يذبح السمكة فى العلق . وكان يؤدى — منطوعاً — دور المبلع

فى جامع أبو العباس ..

قال بيومى جلال :

.. كل الذى يرحى من الصعيد مليح ..

ثم وهو يحرك الهواء الساخن بيده :

(٢٢)

— إلا الريح !..

قال محمد كسبة :

— هل تتصور أن مجرد مشاركتك في سحب الجرافة جعل منك
مباداً ؟!

صبح بيومي جلال جبهته بظهر يده :

— ماذا تعرف علي لأتلمه ؟

قال محمد كسبة :

— عد إلي معلونك ، وأبدأ من البداية !

حين دله صابر الشبلجي على صيد الجرافة ، ثم يكن قسى باله البحر
ولا الصيد . معه التقاط رزق تعيب ملامحه . وزع وقته بين البلاس وقهوة
كشك . حتى حمام الأعوشى لم يمد يتردد عليه . يكتفى بالاستحمام في مياه
البحر ، وغسل ثيابه فيها . ينتظرها حتى تجف ، ثم يعاود ارتداها . وربما
قصي الثيل داخل أحد الثروب المتناثرة على الرمال ، داخل ورش المراكب ..

قال الجد السحاوى :

— تحس لاتربى أولادنا .. إنهم تربية نساء ..

أردف لسطرة اللوم في عيني محيي قبطان :

— نقيب في البحر بالأيام والأسابيع .. فباداً عنداً ، ندخل بيوتنا أحر

الليل .. فمتى نرى الأولاد ؟!

قال محيي قبطان :

— حتى لو ربي السماء أولادنا .. فإن نساءنا رجال !

قال حمودة هلول :

— أصاركم أني أحب المرأة الرجل ..

بحلفت عينا العرياني في دهشة :

— كيف تكون امرأة ورجلاً ؟..

(٢٣)

— لأحبد الناعمة الخاصة .. أحب التي تشبه الرجل في تصرفاتها

وكلامها ..

لون العرياني صوته :

— الجد السحاوى يحب الرجل المرأة !..

فوت حمودة هلول الملاحظة :

— فاسم يرقص دائماً في مركب الجد السحاوى ..

كتم عبد الوهاب مرزوق ضحكته :

— عقابك عن الله أن يذهب بلسانك مثل السمك !..

قال الجد السحاوى :

— أنا الذي علمته ركوب البحر .. فماذا تقول في قلة الأصل ؟!

أطلق العرياني ضحكة معانة :

— تعلمتها منك يا جدى !

قال محمد كسبة :

— الجد السحاوى والعرياني يختلفان في كل شيء .. ويتفان في حب

البحر ..

قال حمودة هلول :

— إيهما الزناتي وأبو زيد .. كل منهما عظيم في ذاته ، لكنهما أصبحا

عدوين !..

علا صوت العرياني :

— أنا أرفض تصرفات الجد السحاوى ، لكنه مثل أبي !..

قال محيي قبطان :

— أشعر بأكلان في أفنى ..

قال حمودة هلول :

— معناه أن شخصاً يلعدك .. أو أنك ستتشاجر مع أحد ..

قال محيي وهينفع مجهولاً يديه :

(٢٤)

— كفى الله للشرب .. أنا في حالي ..

قال حمودة هلول :

— الناس ليسوا في حالهم !

ثم علا صوت حمودة وهو يتطلع إلى القادم :

— سأضيف إلى اسمك صفة البطل الصغير ..

التفت الأعين على مصطفى عباس الخوالة ..

كان يخطو إلى الرابعة عشرة وإن بدا — لطول قامته ، وشاربه

المنسدل على شفتيه — أكبر من عمره . دفعه أبوه إلى الحلقة منذ طفولته .

تعلم المهنة . عرف أنواع السمك ، وحالط الصيادين ، وركب البحر ،

وقاقل ، وسام ، وباع ، واشترى ، وجلس على القهاوى ، وشارك في

الأذكار . كان عباس الخوالة يعد ولديه ليرثا مهنته ، فلم يشغل برسوب

مصطفى المنكر في التوسيرى الأولية ..

احتار الكرسي المجاور للباب ، تحيط بوجهه ضمادة من الشاش ،

وثمة تورم يدل ملامحه ..

اشتمل الرجال — في الأيام الأخيرة — بما جرى لمصطفى . ضربه

المساكر في مظاهرة بشارع اسماعيل صبرى . تدفق المتظاهرون من

الشوارع الجانبية ، أفندية وطلحة وعمل وبجلايب . قدموا من ناحية البحر

ومن شارع التنويح ، ومن المواريسى والحجازى . ملأوا الميدان العسيع

بالرغام والقبضات والهتافات . تثار فوق الزعوس شبل يصرخون بهتافات ،

والمتظاهرون يرددون وراءهم : تسقط معاهدة ٣٦ .. الاستقلال التام

لوالىوت الزوام .. الجلاء بالدماء .. لا مفاوضة ولا معاهدة ..

أغلقت الذكاكين أبوابها ، وحمل خادم سيدى على تسيار التقليل

الموضوعة على الجدار إلى الداخل ..

لمح المتظاهرون كومات الرط في " المجبرة " . تدافعوا إليها . ملأوا

حيوبهم وسبالاتهم وأكهم . تظايرت قطع الحجارة في الجو . تراجع

(٢٥)

المساكر إلى وراء . لاأوا يداخل البيوت والذكاكين ، وشارع حسن باشا

عاصم ..

قدم عساكر من ناحية البحر ، بمسكون العصى السوداء ، والدروع

الجلدية ، وتمطت رجوسهم بخوذات من الحديد . وقفوا في نهاية الشارع ،

وفي مفارق الطرق ..

التمتعت خوذات الجنود في أشعة الشمس ، وعلا ديب أحذيتهم

الثقيلة ، والصيحة الواحدة ، المنكررة ، الرتبية ..

امتألت المساحة الفاصلة بين المتظاهرين والمساكر ، بالحجارة

والكراسات والدروع والهرافات والسيور الجلدية وبقع الدم . لم يعد إلا

أصوات الصريات في الأجسام ، والتلوهات ، والصراخ ، ووقع أحذية

للبيادة ..

جرى المتظاهرون في غير اتجاه ..

صرخ مصطفى لرؤية شاب نط من ضربة عصا في ساقه . ظل

يرواصل التثطيط والصياح ، ثم لحقه المسكرى بضربة أخرى في جنبه ،

فأطلق أمة طويلة ، ممتدة ، وسقط ساكناً ..

جذب عسكرى بنتاً من لمة شعرها المعقوص . شى رأسها إلى

الوراء . طوحنه بألية سريعة ، متلاحقة . تقلصت ملامح الفتاة . جرها

للعسكرى على الأرض . تمزقت الجولبة في احتكاكها بالأسفلت الساخن ،

وانفجرت المسالك في تغائل ..

حاولت البنت أن تنهص ، لكن الجندى عاجلها بضربة من حذائه في

صدرها . أطلقت صرخة كالشرجة ، وغابت عن الوعي ..

ألقى ضابط قبلة بأحر ماعنده . جرت وراءها خيطاً من اللحنان

الأبيض . تلقفها شاب يرتدى قميصاً وبنطلوناً ، أول المظاهرة . أعادها

ناحية الصابط وخيط اللحنان وراءها . تحولت — من بعيد — ضامة بيضاء ،

أخفت الجنود القادمين ..

احتللت الصيحات والتهافتات بضربات الهراوات ولسمعات القوايش
وطرطشات الدم والأجساد المتهاوية ..

تراجع المتظاهرون بظهورهم ، وهم يواصلون إلقاء الحجارة ،
وطوابير المسكر تتقدم . تتسع المساحة بينهم وبين الذين امتصتهم الشوارع
الجانبية ، وتصيق بينهم وبين من تهاطلوا في الانسحاب ، يواصلون التهافتات
واللقاء المجارة . حاول أن ينفذ بينهم . اصطدم بأجسام وصراخ وزعيق
وهتافات ، كأنهم التصقوا بالأرض . وقفوا في نقطة الصفر ..

هوجئ بالسحنة المرعدة فوقه تماماً . لا يدري إلى كان قد ظل واقفاً لم
تشر .. لكن الشرر الغريب ، في المينوس الناريين ، لحقه ارتفاع العصا
وهبوطها ..

هل أنت للضربة على رأسه ، أو على كتفه ، أو في وجهه ؟
لا ينكر إلا الإغم ، والنوار ، ول جسمه تحائل ، يريد القعود أو التوم .
تماوجت المردنيات ، ترافقت ، تداخلت بالألم القاسي . انترع من داخله أهة
طويلة ..

صحا على أبيه وأخيه والرجال في مستشفى رأس التين . توسط
حمادة بك ، فأعنى - لصبر منه - من التحقيق ، ونقل إلى البيت ..
حدح الجد للسحاوي حمودة هلول بطرقة متصعبة وهو يستند كرسيه
إلى جدار القهوة :

- البطل الصغير أكل علقه ؟

قال قاسم للفرحاتي :

- هل كان يمارك البوليس ؟

قال الجد السحاوي :

- عباس الخوافقة ضرب السكران ، فقطع رجله عن بحري ..

مال مصطفى على حمودة هلول :

- من السكران ؟

- فترة قديم ..

قال محيي قبطان :

- بكفى أن مصطفى تظاهر ضد الحكومة ؟

همس محمد كمسة في أذن الجد السحاوي :

- للولد مصطفى تغير صوته وسعته ..

قال الجد السحاوي :

- حتى الأسماك يتغير لونها عند البلوغ .. العارق أن الأسماك تعود

إلى لونها بعد أن تصع الأنثى بيضها ، ويتولى الذكر التفريخ والإخصاب ! ..

قدم على الراكشي من ناحية شارع فهمي الماضي ..

هش على ولد بصماه ، حطفا منه الولد ، وجري . جري الراكشي

وراه بأخر ماعنده . اصطدم لى جريه بحرية يد ، اسقط من بولوه .

الخبرج

أغلقت أم محمود باب السطح من الداخل . محمود يناولها ماتحتاجه .
تدّ على أسنلته بصربلت - على الترابيزة - ذات إيقاع . نغمة الرقية إذا
تكلّمت . تبهت في تشعلاتها ، على صفارة بلخرة من الميناء الغربية .
مسحت بنظرة شاردة ، امتدادات الأفق في حدة الحصان من الميناء التي
شكلها البحر ، في الميناء الشرقية والميناء العربية وشاطئ الأنغوشي ..
كانت أشعة الأصيل تملو الجدران . الدقائق التي تسبق الغروب ،
ونعائم خفيفة تهب من ناحية البحر ، وأعية لأم كلثوم تتناهي من نافذة
قريبة :

علبت أصالح في روعي عثمان مازضى عليه
استيقظت مهجة - ذات صباح - على نداء أمها . فركت عينيها ،
وتناوبت ، وفردت نفسها - للمطبات - ثم سقطت من طولها ..
تلا صرخة الأم ، وقوف الأب والأخوين فوق رأسها ..
نصحتها الكونية نطلة - لكي يمود اللحم إلى جسمها ، ونقف على
قدميها - أن تسف خنائس مهرومة ، وتسوع البيت بالبخور . الجور غذاء
الأرواح الساكنة داخل الشقوق وبس الأثاث . نصيح الحاج محمد صبرة
بأعشاب . صحبها عباس الخوالقة إلى الطبيب الأرمني ، فوق قهوة المهدى
للابل . سلها أن كانت تشكو شيئاً . أطرقت ، وهزت رأسها ، فحص الصمط
والبيض وصربلت القلب وحدقت العينين . وحق في ثم المفتوح ..

قال وهو يرفع النظارة الطبية إلى جبهته :

- صحتها جيدة ..!

دعا إمام أبو العباس الجديد ، في جلسة المغرب ، وأثن الرجال .
هتمت الأم على رأسها القرآن أربع مرات ، طافت على لأشروحة أولياء
الحى . توسلت ، وطلبت الممد ، ووعدت بالنور . ظلت البنت في النازل .
فلمعت نفسها لشروق ، ولابادة شفاء بأعشاب أو أدوية ..

لم تكن أعدت نفسها للزواج من هشام كشك . ولم تكن أعدت نفسها
للزواج أصلاً . تذهب إلى المدرسة ، وتعود ، وتساعد أمها في البيت ،
وتذاكر ، وتنام ، وتزور خالتها في رأس التين ، وأصابعها في بيت العائلة
بشارع الجمرق القديم ..

خمن للخوالقة - لما وافقت على الزواج - أنها تعرف الشاب ..

- هل تأندين لئلت بالحرّوح وحدها ؟

قالت أم محمود :

- أبداً .. حتى المدرسة ، يوصلها أخوها ويعود بها ..

وهو يرمقها بنظرة متشككة :

- فكيف تعرفت إلى ابن المعلم كشك ؟

خبطت على صدرها :

- من قال إنها تعرفه ؟!

- لم تناقش قرارى بتزويجها من هشام ..

بحلقت عيناها :

- وهل عودتك البنت على مناقشة لوامرك ؟!

وافقت مهجة على الزواج ، لمعرفتها أن مصيرها إليه . كانت في
الخامسة عشرة ، لكن طولها ، وامتلاء جسمها الموروثين عن أم طويلة ولب
معتلى ، أصابا إلى عمرها . علمتها أمها مسئولية البيت ، فهي تجيد الطبخ
والحياطة والتلطيظ ، وتعرف كيف تشتري لوارم بينها . عندما عرفت اسم

العريس ، تذكرته : الحيرة ، وصداقة الطفولة ، والتسلى بمشاهدة صيد الجرافة ، والطراحة ، في العناية الشرقية ، وحضور موالد الأولياء ، وأسواق العيد . زمان ، ثم فُزمت البيت . تذهب إلى المدرسة . وتعود برفقة شقيقها مصطفى . إذا أرادت التعبير ، فزيارة أقاربها ، تصحبها أمها ، أو مصطفى ..

بعد أن قرأت الأسرتان الفاتحة ، وألبسا هشام الدبلة ، اجلستهما الأم على الكنبة أمامها . تمتمت بأدعية ، ثم علا صوتها :

— باب يا باب .. يا جامع الأحباب .. ان طلع شقة .. وان دخل نفقة .. نجم هشام ومهجة تجمعهم في السما .

أشارت لهما ، فأنصرا .

أصبحت مهجة أنها أصبحت له ، وأنه أصبح لها . تصحو على صورتها ، وتنام عليها . تسرح ، تتأمل ، تبتسم لتذكر كلماته وتصرفاته . حتى التفسيرات الصغيرة ، والتجبرات العفوية . حتى الومضات السريعة لتلقطها ، تستعيد منها من الذاكرة في أوقات الحلو إلى البشر ، تنتبه إذا جاءت سيرته ، تدافع عندما تبدى أنها ملاحظة عنه ، تنتظر قدومه في المواسم ، تحرق في مرآة غرافتها ، تحاول رؤية نفسها بحبيبه . ربما امتد بها الخيال ، فتصور نفسها في شقة — مطقة — معه ، لا تنتقل من بيت أبيها إلى شقة إسماعيل سواه . هو للصورة الوحيدة لسزوج . يوجه كلامه إلى أبيها أو أمها أو أخويها . تعد مآقيله موجهاً إليهما ، تقلبه ، تستكنه معانيه . تجرى حواراً معه . تبتسم — يبنها وبين نفسها — وتحزن ، وتعصب ، وتصحك ، تقرأ حبه في نظراته المتألمة ، لا تثبت أن تتجه إلى بعيد ، ولرتماشة شفتيه وهو يتكلم ، وأرتجافه يده عندما يتناول فنان الشاي ، وغلبة ارتباكها حين تخلو الحجرة — مصداقة — إلا منهما ..

فرد ذراعيه بامتدادهما :

— أمامنا لوكاندة بحالها لا مجرد شقة ..

تطاهرت بالتصديق :

— هل نسكن في لوكاندة أبوك ؟

استدرك في نبرة جادة :

— وعندي بالدور الثاني فوق اللوكاندة .. باباه على الشارع الجانبى ..

عندما قال لها : أحبك ، لم تكن تفهم معنى الكلمة تماماً . ثم بدلت الحمرة للصبر لأنها حين تأتى السيرة لأهلها . حتى الأعباء في الرافيو ، أعادت تأملها في ضوء المعنى الذى لابد أنه يقصده . جاشت عواطفه — لحظة — فحاول تقبيلها . صكته بأصابع مترققة ، وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى ..

هل رضع الولد والبنت من ثدى واحد ، أو أن ماحدث وشاية كاذبة ؟ ..

أسلم عباس الخواقة نعسه للمعصب ، لما همس عبد الوهاب مرزوق في أذنه بأن أحوة مهجة وهشام في الرضاعة ، شائعة سربتها لسرة الشاب . رغضت أن يتزوج ليدها إينة صيد ، حتى لو كان شيخاً للصيادين ..

— لو أن الولد أراد العمل صبيّاً عندي .. ما قبلت !

قالت أم محمود مهوية :

— كلام الناس كثير ..

وهو يهز رأسه بمصيبة :

— لا دخان بلا نار ! ..

قالت في استكافة :

— ربما رضع الولد والبنت من ثدى واحد بالفعل ..

كانت أم محمود تتوقع أن يطلب يد ابنتها لابنه ، شيخ صيادين . ربما الحاج قنديل . سمعت عن أبنائه الذين وطّعوا في مناصب مهمة . توقعت — للعشرة بين زوجها والحاج قنديل — أن يعان الحاج ما يناوش بالها ، لكنه لم يحاول المصارحة أو التلميح ، وإلا أخبرها زوجها ، أو طلب رأيها ، أو تردد في الموافقة على هشام كشك ..

(٣٢)

لم يعد عباس الخوالقة يذهب إلى الحلقة . تقصصى ، وسأل ، ونالش
وأسلم أنه للأفواه الهامسة ..

زار الشيخ طه مسعود فى ديوان وزارة الأوقاف . أسر إليه بم
اعتزمت أم محمود ..

ألقى الإمام وجهه للغضب ..

قال الخوالقة :

– ومن شر حامد إذا حسد ..

قال الإمام :

– ماحدث لا صلة له بالحسد ..

فى لهجة متوسلة :

– البنت مريضة جداً ..

دون أن يترك هدوءه :

– هذا شأى آخر ..

فى لهجة المتوسلة :

– الحمد حق .. جاء ذكره فى القرآن ..

ورنا إليه بنظرة مستغوبة :

– العين تفلق الحجر !..

ذهب لافعال الإمام ، فنزل بحرى ، وصلى الظهر فى جامع سيدى
ياقوت العرش ..

.. حدثتلى عن والعة ..

ثم وهو يمسح نكته بأصابع متوترة :

– ما دليلك على صحتها ؟

قال جابر برغوث :

– يا مولانا .. تلك حكاية من عمر الولد والبنت ..

قال الإمام :

(٣٣)

– لكتهما يتأثران الآن منها..

وهتف فى الرجل بلهجة زاعقة :

– من أين أتيت بحكايتك الملعونة ؟ ..

لم يتصور أنه يرفع صوته فى جابر برغوث . هو غادم ياقوت

العرش . لم يحصل على شهادة ، لكنه قرأ ، وتعلم ، وجلس إلى علماء ،

فصار لأرائه وجهة . يثجا إليه روار العرش ومريدوه ، يطلبون النصيح ،

والمشورة ، والمساعدة على قصاء الحاجات . وقيل إنه أباد الكثيرين من

علوم السحر ..

قال جابر برغوث وهو بعالب ارتشاكه :

– صنفنى يا مولانا .. أرضعت زوجتى الولد والبنت فى سة ولانتهما ..

ورفع يديه كمن يتقى حظراً مجهولاً :

– والمرسى هذا ماحدث !

حدج الإمام عباس الخوالقة بنطرة مستريبة :

– هل تزعم إتمام زواح البنت من أحيها ؟!

قال الخوالقة :

– ذلك موصوع انتهى .. البنت تموت ..

قال الإمام فى نغاد صبر :

– قلت رأىي .. ولن أزيد ..

ذاع أن الإمام جعل ماحدث ، من بين الأسباب التى حددها – فى ذهبه –

لطلب النقل إلى ديوان وزارة الأوقاف ..

حذر الطبيب الأرمنى من أن البنت قد تعادرت صحتها العرين ، فتحاول

أن تؤدى نفسها : تشعل النار فى جسمها ، تقدر من البلكونة أو السطح ،

تشرب مبيداً حشرياً أو سما ، تقطع شريانها ، ترمى نفسها فى المالح ..

تغاملات مهجة على نفسها ..

صعدت إلى السطح ، صامتة لا تتكلم ، ولا تلتفت وراءها . تحمل طبقاً من السكر الأحمر المذاب في الماء .

قلبت ماقى الطبق على أرضية السطح ، لا تبسل ، ولا تهمس بأى كلام . تركبت الطبق ، وبرت ، صامتة لا تتكلم ، ولا تلتفت وراءها . توقعت الأم أن الأسيد يشربون الماء ، فيرضون عن البت ، ويرفعون عنها أدايم ..

أصرت ، فيتل عباس الخوافة بلاط البسطة ، أمام باب النشفة . ربما السبب عمل يرقد تحت بلاطات البسطة . نصحت الكودية نطفة بزار . ما تعانيه مهجة ليس مرضاً تعالجه الأدوية أو الأعشاب . هذه أفعال الأسيد ، فلن يعتمدوا إلا بزار ..

شار عباس الحوافة على العكرة : الكودية والخوف والشياطين والبخور والصرخات المجنونة والأرواح الشريرة ..

تحالفت أم محمود على رفض الإمام . استعادت رقية الكودية حتى حفظتها . أوصت المرأة - بدلا من الزار - بالتحريج ، رقية تدرج العين للحاسنة من جسم اللعنة . صارحت أم محمود أكبر أبنائها بما انتوت . أغلقت عليها ، وعلى مهجة ، باب السطح . حذرت « محمود » ، فلا يعجزهم قدوم الأب ..

بدلت بهراق ما التقطته يدا محمود من اللعاب المتكومة أمام الديتين الملاصقين ، والبيوت المواجهة . انشأ من سوق الدقالب ، قطع الشبة وقصاصات الورق والمنح والكوك والبخور ..

أغمضت عينها تذكر بقية الخطوات ..

رفعت كفتي مهجة من صدرها . دلت جبهتها بالشبة والفسوح سبع مرات . قصت الأوراق على هيئة عروسة . وحزتها بإبرة في العيبس والرأس والجسد ، طردا لأعين الحساد . تلتفت - في حيرة - إلى باب

السطح المعلق ، ومنشر العسيل الحالي ، وصارى البلائس البعيد ، في غيابه داخل الأفق ..

غلبت التردد . ثم نطقت الكلمات ببطة ، فلا تسمى ماحطتها من الكودية . تذكر الأسماء في المواضع التي حددتها . تصنع همها في تسلسل الكلمات والأسماء ، حتى لاتعتمد الرقية ..

الأولة بسم الله

والثانية بسم الله

والثالثة بسم الله

والرابعة بسم الله

والخامسة بسم الله

والسادسة بسم الله

والسابعة لاحول ولا قوة إلا بالله

رقيتك واسترقيتك

من عيني وعين أمك وأبوك

وعين الداس التي حسدوك

رقيتك واسترقيتك

زي مارقي محمد ناقته

حط لها الطبق ما دافته

كانت عسير .. صحبت تسير

تهدت أم محمود . مدت أصابعها في طبق الملح . نشرته فوق رأس مهجة ، ومن حولها . أغمضت عينيها ، تتذكر كلمات الرقية التي توقعت عدها ..

بسم الله الرحمن الرحيم . ألف بسم الله الرحمن الرحيم . بسم الله توكلت على الله ، واعتصمت بالله ، وسلمت أمرى إلى الله ..

بسم الله الرحمن الرحيم .. يا هادي كل هدية .. يا مانع كل رزية ..
يمنع عنك البطوة القوية .. بقدره الله العلية ..

بسم الله الرحمن الرحيم . رب المشارق ، ورب المعارب . ما يطلب
الله غالب . رقيتك من كل عين شهلة ، من كل عين زرقاة . الله عليها ،
وعلى والديها ، يجعل مصاريها بنات رجلها ، التي شافوك وبظروك ولا
صلوش على النبي الحبيب ..

بسم الله الرحمن الرحيم . الأوله بسم الله ، والثانية بسم الله ، والثالثة
بسم الله ، والرابعة بسم الله ، والخامسة بسم الله ، والسادسة بسم الله ،
والسابعة بسم الله تطلع عين خلق الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

عين الصيوف أمد من السيوف . عين الرجل أمد من المناجل . لقاهما
سيدى السيد سليمان فى البرية ، تنبح ببح الكلاب . قال لها رايحه فين ،
يا عيني ياسعيه ، يا خابية يا رنية ؟ . قالت رايحة لى حبا ، واللى دبا ، واللى
لا أعرف له لما ولا أيا . قال لها : أحصى ماحصيتي ، م آثار ما
يجيتي ، لا ونكي بحر لا يدعاص ولا يمداس ، واحذف طليكي بالزريق
والرصاص . قالت . حد عليه عهد الله سيدى السيد سليمان ، لا أحوك فى
عريشة . قال لها : باطلاً بطل . قالت : لا أصر عريس فى رفته ، ولا راجل
فى جلسته . قال لها : باطلاً بطل . قالت . لا أصر بهيم فى رباطه ، ولا
صعير فى قباطه . قال لها : باطلاً بطل ، سيدنا النبي رقى ناقته من عين
جماعته . كانت عصير ، صبحت تسير . كلت عنقها ، وشربت مياهها ،
وانكثت على مولاها ، بقدره الله العلى العظيم ..

يا بوز بلا قعر .. يا كف بلا شعر .. زال عنك الشر ، وانثرق كما
انثرق الندى من على التورق . زال عنك الشر وطار ، كما طار الندى من
على الجبال ..

انثرقى بانفس . انثرقى يا عين . انثرق يا فكر ..

المره بشوشة ، والرجل عس ..

بحق النبي ، وآية الكرسي ، انثرقى بانفس بقدره الله العلى العظيم ..
سحبت العروسة من فوق الترابيرة . أعادت وخزها بالابرة وحزات

اللاحقة :

اللهم رب الناس ، اذهب الباس ، واشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا
شفائك ، شفاء لا يغادر سقماً ، يارب العالمين ..

الفاتحة لسيدى النبي ، والإمام على ، والإمام الشافعى قاضى الشريعة ،
وأولياء الله جميعاً ، والأربعة الأقطاب ، والأربعة الأنجاف ، والأربعة
جمالى الكتاب ، وسيدنا السلطان العرسى أبو العباس ، وسيدى البوصيرى ،
وسيدى ياقوت العرش ، وسيدى بصر الدين ، وكل أولياء الله الصالحين .
يحدونك ، ويراثونك ، ويشيلوا عنك النفس ، والعكس ، بقدره الله العلى
العظيم ..

الفاتحة لهم ، وصلى الله عليه وسلم .

نفى أنه حلم برؤية المرسى ، أو أن النقود سقطت عليه . عثر على
مظروف أسفل الرصيف ، بالقرب من سيدى كظمان . تلقف نصيحة الجد
صفاوى :

– أنت أولى بالنقود من الحكومة !..

دله حمودة حلول على دكان المجلاتى المعلق . دفع مبلغاً للجدك ،
أعاد فتحه . طلى جدرانه باللون الأزرق ، ورسم عليها مراكب وأسماك .
على النصبة جعلها فى هيئة باخرة ضخمة ..

تعاول قاسم العريائى ضاحكاً :

– بلاتس أم تكال ؟..

قال مختار :

– اسمه البحر .. يرحب بالصيادين وعمال الميناء ..

ثم وهو يوسى برأسه ناحية ميدان أبو العباس :

– قارئو القرآن اختاروا قهوة مخيم لقاءاتهم .. وهذه القهوة جعلتها

لصيادين ..

قال الغريائى :

– وقهوة الزردونى ؟..

– عينا أحمد الزردونى على عيى ورأسى .. لكن هذه القهوة

لصيادين وحدهم !

لم تشمله قلة المترددين على قهوته فى البداية . ألفوا التردد على

الزردونى ومخيم . اجتنبهم بالحرص ، من مجلسه وراء " التيك " . وزعوا

جلساتهم بين القهاوى الثلاث . وفتح زعيلة القهوة من القجر إلى مابعد

منتصف الليل ، وأن للمترددين عليه أن يقصوا أوقاتهم اليوم كله على طلب

واحد ، وعرض الحساب على التوبة ، فاختار الكثير من الصيادين قهوته

لجلساتهم ..

النورس يحلم بالمدن البعيدة

أمسك مختار زعيلة بخرطوم الماء ، يطفى السحونة المتصاعدة من

أسفل الشارع ..

احتفت الطلال فى شارع أبو الوجاهة ، دى البيوت الوطنية . أعلقت

الوافى ، وبحث المارة عن الطل لمسق الجدران . وثمة هديل حمام يترامى

من بعيد ، وصوت صفارة باخرة من الميناء العربية ..

تذكر رحلات البحر ، والمدن البعيدة ..

قيل إلى قفصة يسقف الحجرة فاجأته ، تثار بعده عليه نقود ، لمضى

وقتاً يلتمها من أرض الحجرة . وقال عم محبوب حارس حمام الأنوشى ،

إنه لمح المرسى – ليلة غادر مقامه – ينس فى يده مالم يتبيبه أحد . ورآه

أصدقاء درس المغرب وهو ينزل درجات الباب الرئيسى . يمضى بخطوات

مهولة إلى الميناء الشرقية ، لايتلفت . اتعد الكوريتش الحجرى ، وانشغل

بالطلع إلى نهاية الأفق ..

فاجأ الجميع – بعد أيام – بشراء دكان عجائلى فى شارع أبو الوجاهة .

حواله إلى قهوة ، أفق عليها بما يشى بقدرته المالية . علق عليها لافتة :

قهوة البحر . اجتذب إليها الصيادين وعمال الميناء . وغلغ الجلابية ،

وارتدى البطلون والقميص ..

حفظ من ياقوت جرمون قهوة الرردوني ، سيم القهوجية . يستغنى به
عن الأسماء والتداعيات المألوفة ..
هز رأسه لتذكر قول ثروت :
- أنت هنا على البر .. فما يدريك بالحياة في البحر ١٢
البحر ١ ..

حياته ودياره وترددات ألفاسه . الرائحة التي لا يحطنها أنفه . اختلاف
المسح ، والأمواج الهائجة ، والمالية ، والبواخر الضخمة ، والقوارب
الصغيرة ، والحويات ، وأصوات الآلات ، والأوتار ، والشمس ، والأمواج ،
وأرصفة الشحن والتفريغ ، وأحجام الجوزات ، والفئاسيرات ، وبوليس
المواسي ، والمطاعم ، والحانات ، والمواخير ، والعلاقات الهاسية ،
ونكاكين الصرافة ، وتعبير العملات ، واللاقات المصينة ، ولحطات ارتفاع
المسلم عن الرصيف ، وذويان المدن . المسير في أفلاك مترامية من كل
الجوانب : البواعيز ، وصفارات البواخر ، وأصواء العارات ، والجرر
المأهولة ، والفاحلة ، ولق صوء الشمس على المياه في امتداد الأفق . حتى
الوات والمواصف . سقط ما اقتحم النفس من حوف . لم يعد إلا ذكرى
الصامرة ومواجهة المجهول ..

لن يظل طائر النورس في تحليقه على الشاطئ . مجرد طائر يحلق
ويحوم . البحر مياهه وأعماقه ومراكبه :
- أنا مثل النورس .. أحب ماء البحر .. وإذا وضعتني في السجون
أموت ١

بحلقت عينا ثروت يتساءل :

- ماذا تقصد ٢ ..

اهتز جسمه بالانفعال :

- حياتي في الأرض سجن .. سأخرج منه إذا عدت إلى البحر !

البحر لم يهجره ، وهو لم يهجر البحر . الظروف القاسية لجمدت
، لكنه لابد أن يعود إلى البحر . يرى - بين الشوق - ما وراء البحر
موانئ ومدن وبس . وركب في يومه ' بلانس ' من حشيش الصندل ،
الله من الذهب ، وأشرعته من الحرير ، وانطلاقه مطمئن في بحار لا
..

فهم من عيني ثروت وتصعبه ، أن عودته إلى البحر مستحيلة ، لكنه
ن على ثقة من أنه سيعود إليه . يذهب ألم طهره بعلاج مستشفى رأس
.. ، أو وصفات الحاج محمد صيرة ، أو بركات الأولياء ..

كان يرحل مع أمراب الطيور المهاجرة . يرى شواطئ وبحاراً ومنا
يشراً مختلفي المسح واللغات . صغافير الواحر في الميناء المريرة تذكره
بالحلم القديم ، بالحياة في البحر ، والسفر إلى المدن البعيدة . ساح ذهبه إلى
هلال محتلة العلامح يتمي رؤيتها ، وإن ظل مشغولاً بوقائع يومه الأخير
مع يسرية ..

هر كتبه عنما قفل السؤال إلى ذهبه : هل هو الرجل الوحيد الذي
تخلفه المرأة البيت في غيبة ثروت ٢ ..

يبدأ من لغة المرأة ، وعماقها ، أنها كانت على استعداد لأن تسلم نفسها
إلى أول شخص تلتقي به . ليس هو بالتحديد ، ولا أي إنسان آخر ، وإنما
رجل ، رجل . يبعد بها عن حياة الانتظار والزناة والوحشة والمال . ثروت
في أسفاره البعيدة . يأتي أيام ، ويعيب لأشهر .. فلماذا تدلت مشاعرها ٢ ..
لماذا عاملته بتلك القسوة ٢ ..

لم تكن العلاقة في ذاتها تشمله . ما بهمه هو الصور التي تلتقطها من
أعاديث ثروت ، حين يعود من رحلاته . لكن السؤال عاد إلى مناقشته :
هل هناك آخرون في حياة المرأة ٢ ..

كر ذهبه بأسماء لارابط بينها ، وإن تصور أنه يمكن أن تعطى
الإشارة نفسها لواحد أو أكثر . تاذن له - مثله - بالصعود . تغف لاستقباله

أعلى السلم ، وتمنحه جسداً في البسطة المفصية للسطح .. قاسم العرياني ..
محمي قبطان .. محمود عباس الحوالة .. ومن تعجب عنه أسماؤهم
وملاصهم ..

تابع سرباً من الطيور ، قدم من ناحية الأنفوسى ، واتجه إلى نهاية
الأفق في الميناء الشرقية ..
قال لها :

.. فكرت أن أكتب اسمك بالوشم على صدري ..

صريت صدرها بيدها :

.. تريد ضيحتي ؟!

أطرق لحظاتها ، ثم رفع رأسه :

.. خفت من ثروت ..

.. والناس .. ماذا يقولون ؟ ..

أشاح بيده :

.. مجرد فكرة ، وأملتها ..

فاجأه تصور اكتشاف ثروت لعلاقتها ، كنوم لا يتوقعاته ، فضيحة
تواجهه ، وتواجهها ، إذا برل السر من السطح إلى قهوة الرردوني ..

أزمع ألا يصعد إلى السطح ثانية . إذا جاءته في القهوة ، صارحها
بخوفه . القرار مؤلم ، لكن مفاجأة ثروت لهما مما يصعب عليه تصوره
هل يقتله ؟ هل يقتله ؟ هل يقتله ؟ هل يقتله ؟ هل يقتله ؟ هل يقتله ؟
أنهما تخاصما على عشرة كوتشينة في قهوة مخيم ، ثم مالبا أن تصالحا .
التقيا في الدخيرة الحلبية لأبو العباس . نميا مكان ، وتعدنا كأنهما لم
يتخاصما ..

أتاه صوت أمين عزب ، وهو يختار كرسيّاً على جانب الرصيف :

.. جئت للتهنئة !

هتب بفرحة حقيقية :

.. هذا أبعاد أباى ..

كانت حياة أمين عزب قد تحدت بين راوية حطاب ، وشفته في
الفرح إسماعيل صبرى . لا يتردد على الحلقة ، ولا القهاوى ، ولا يشارك
في موالد أولياء الحى ، وتار على الإمام الجديد لأبو العباس ، حين تحدث
عن الزوجات السبعمئة اللاتي يكن للرجل المؤمن في الجنة . يبهه الله من
أفرو بحيث يضاجعن كل يوم ، مرة في الصباح ، ومرة في المساء .
علا صوته بالمصعب :

.. أليس في الجنة من رصيد سوى الجنس ؟!

كان الإمام قد عرف مكنيته بين المصلين ، فأعمل ثورته . أكمل
الخطبة ، وإن اكتفى بثواب المؤمن في الآخرة ، دون أن يتطرق إلى
المصليات ..

كان يدخل الحجرة المطلة على سبى تراز ، أول رمضان ، في
طولة ، يرحل منها في نهاية الشهر . يؤديه صوء النهار ، وتتعثّر خطواته
ثقله المشى ..

لحار الزاوية للجلوس فيها منذ صلاة الجمعة إلى ما بعد صلاة العشاء .
يحرص إلى قراءة القرآن ، وكتب الدين ، ويوم المصلين ، ويقتصد أبناء
الحى ، لسماع نصائحه ، وللتبرك . يعلق الباب للخشى المستطيل ، العالي ، دا
المصليتين الصغيرات ، ويهبط درجات الرخام إلى الطريق . استأجر الشقة
المقابلة ، بعد وفاة العتلى ، ورحيل الأسرة إلى بلنجا في المحمودية .
خصصها لقراءة القرآن . يشتت جزءاً كل ليلة ، عقب صلاة العشاء .
يخصص ساعة لاستقبال أصحاب المشكلات . يبالغهم ، ويشير بالحل .
لشدة اعتقاد الناس في علمه ، كانت أحكامه ترضى الطرفين في كل خلاف .
يخص منازعات الجيران ، والمنازعات الأسرية . يعيد الزوجة الناصر ،
ويجد السبيل لمودة الحياة الزوجية بعد الطلقة البائنة ، الثالثة . يتوسل
بمعارفه لإحلاق الأولاد بالمدراس . يتحمل الإصغاء - بالساعات - لشكوى

(٤٤)

رجل من تناول امرأته ، يشتمها ، فتزد عليه شتمته ، شكوى امرأة من
أثنية زوجها ، يضربها لأقل خطأ ، ربما يضربها لأن مزاجه متعكر . اكتفى
بالقول : أصلح الله الحال ، لما شكّا إليه إبراهيم القسط من أن المرأة
العجورية أزلت كل الأجزاء الطاهرة من أثنية امرأته في طعولتها . المرأة
على فراشه غائبة ، لاستحيب ، وتشككه في نفسه . تردد على التفتيرية
سعيًا لإطالة فترة العناق . مصع الأنفوس ، وغلط سجانزه بالحشيش ، وراز
بارات شارع البومسة والسبع باتت . استعان بوصفات شعبية : بلاييع
ودهانات وتعايز . صرب المرأة ليصخن جسمها . صرخت ، وتألّمت ،
وطلت على همودها ..

قال أمين عزب :

– ميروك يامحتر ..

ثم وهو يحيطه بنظرة إشفاق :

– التؤلولة قد تكون في أصلها حصوة رمل أو طين .. وأنت دو معدن
طيب !..

أمن محيي قبطان :

– نعم ، محتر شقي .. لكنه ابن تلس طبيين ..

قال محتر في لهجة ترحيب :

– ريادة ؟..

قال أمين عزب :

– لا .. مورونة ..

قال محيي قبطان :

– أنا أفصلها سادة ..

رغم بساطة أمين عزب ، فلي الأخرين يشعرون بالمسافة بينهم وبينه . حاجز
غير مرئي ، يحسون به ، وإن لم يروه ، أو عجزوا عن ملاسته . ولم

(٤٥)

يكن إلقاء الأسئلة في طبعه . يكتفى بالرد على ماوجه إليه من أسئلة .
ردود قصيرة تهب المعنى ، فلا تتفرع في تفصيلات ..

بدأ على محيي قبطان معاملة للتردد :

– مررت على عم محبوب في حمام الأنفوشي لأمر ، فلم أجد ..

قال محتر :

– هذه ليلة النصف من شعبان ..

يعرف أن عم محبوب يخلو إلى نفسه هذه الليلة ، في حجرته . ليلة
الدعاء . قدر الإتمال يكتب هذه الليلة . إن كان سعيداً أو شقياً . فيها يحدد
مواليد العام التالي ، ويحدد الراحون في العام نفسه . شجرة في الجنة هي
شجرة المنتهى ، تحمل أوراقا يمدد البشر الأحياء . كل ورقة تحمل اسم
شخص واحد . تهز الشجرة في ليلة النصف من شعبان ، بعد الغروب . من
كان مقدراً له الموت خلال العام ، تسقط ورقته . يلم مسجد المسبوري في
تلك الليلة ، لايحارده ، يؤدي ركعات متوالية كأنها التراويح ، وينلو القرآن ،
ويردد الأدعية التي تتوسل بالآ تسقط ورقته ..

قال محيي قبطان :

– هذه ليلة مفترجة .. يؤكل فيها الرفر ..

رفت على شفتي أمين عزب ابتسامة مشفقة :

– أكل الرفر ١٤ .. هل هذا هو مايمهك ١٤ ..!

مد يده في جيب السبالة :

– معي دعاء ليلة النصف من شعبان .. لشريته من ميدل أبو العباس ..

قال أمين عزب :

– هذه ليلة مباركة .. لله فيها عتقاء من النار .. لا يحصيهم العد ..

أعمل محيي قبطان تردده . القرب من محتر زعيلة :

– معك فلوس ؟

ثم وهو يندى الأسي :

ـ المعلم الحوافة لم يعطنى سلفة الشتاء ..

قال مختار زعيلة :

ـ اطلب منه ..

فى لهجته الأسبالية :

ـ طلبت .. اكفى ببن شاء الله !

ومصت عينا مختار بالتدكر :

ـ مل على المعلم أحمد الزردونى ..

ارتفع حاجباه :

ـ ولماذا الزردونى ؟

قال مختار :

ـ أعرف أنه مقتدر !

ـ يكفى أنه يرضى الآن بالأجل على المشاريب ..

ربت مختار صدره بأصابعه :

ـ وهل تأخرت عنك ؟

وهو يخفض رأسه :

ـ البيت يحتاج إلى الأكل لا المشاريب ..

دس زعيلة يده فى التيك . طوى يد محيى قبطان على مقدمه إليه :

ـ لم تحرف الرجل طريقها إلى القهوة بما يعطى المصاريف !..

هتف أمين عرب ، وهو يفز فى مجلسه :

ـ ولد !..

رأى أولاداً يعكسون على الراكشى ، يجذبون ملاهسه ، ويقذفونه

بقطع الحجارة . كان يرتدى سيالة حال لونه ، وصديرياً معرقاً ، تساقطت

أزراره .

جرى الأولاد بالخوف من المكاة التى يحتلها أمين عرب فى نفوس

آباتهم .

ظلال حزننة

المصباح ..

التصوم الشاحب من البافذة الحديدية ، العلوية ، وشى بالطلال جدران
الصبيانة المتأكلية ، وبياض الحائط وراء المواضع المعرقة فى السورق
المزدان برسوم وزخارف ملونة . علق آيات من القرآن ، وبصص الأمثال ،
والحكم ، وأبيات من الشعر ، وصورة لسعد رغلول يصافح المعلم كشك
الكبير ، وسط عشرات بطل عنهم تمثال محمد على . وثمة نجعة هائلة ،
مدلاة من السقف بسلسلة حديدية ، تهتر بنسائم ربيعية هادئة . على الأرض
ـ أوسط الكراسى والطاولات ـ سجادة صلاة مطوية إلى نصفين ، ظهر فيها
رسم الكعبة . للتصية ـ على اليمين ـ تتوسطها الرمالة والقضابين والكوبيات ،
وصفت فى نهايتها ثلاث دارجيلات ، وصحن نحاسى ، فوقه قلعة من الفخار
مغطاة بقطعة شاش . والردفة ـ ناحية اليسار ـ تكسى ـ فى طرفة شفيفة ـ
إلى المطبخ ودورة المياه . وصوت أم كلثوم ينبعث ـ خفصسا ـ من الرانيو ،
خلف قعدة المعلم كشك :

سلوا للى غداة سلا وتابا .. لعل على الجمال له عتابا ..

تأكد ربانى الكناس من إغلاق الباب جيداً . طهر عساكر الجيش فى

شارع فرنسا ، ليدلوا تطبيق قرار منع التجول ..

قال حسين الدمهورى :

ـ من كان يصنق أن الأمور تتطور إلى هذا الحد ؟..

قال زياتي الكناس :

- حتى عمال الميناء أصربوا .. تكسدت البصائع ، وتوقفت البواخر
عن إزلال ما بها ..

قال المعلم كشك :

- ذكرت " البلاغ " أن القرشي وصل الإسكندرية ..

روى زياتي عن المظاهرات فسي ميدان المنشية ، مظلة وعساكر
وبوليس وصولات وكونستبلات ، رفعوا أرغفة خبز فوق بناذقهم ..

فرضت نفسها على الجميع أحداث الإضرابات والمظاهرات . حتى
صباط البوليس لم يعد من المثبر خروجه في مظاهرة ، والتهافتات ضد
الإنجليز والحكومة والملك . صدقة فرسها ملازمة المكان . تبادل الشكوى
والبوح والقصص . التجول في الشوارع الخلفية ، وفيما وراء الأسوار .
التعرف إلى ملايح غائبة ..

ثم تحد القهوة تعلق أبوابها في العاشرة ..

عرفوا السهر والعودة وجه الصباح . المظاهرات والإضرابات ،
دفعتهم إلى العرجة والمتابعة . قيود الحرب غابت كأنها لم تكن . أزيلت
الرقعة من النوافذ وواجهات الدكاكين ، ولحقت الكشافات الضوئية من
السلسلة ، وأبوح دخول مكان موعوا . حتى القعدات داخل حديقة سراي
رأس التين عادت إلى مألوفها ، وعادت أصوات الكازينوهات في امتداد
الشاطئ ، وعاد السهر على الكورنيش ، ولتمشى في صافية رطلول وسعد
زغلول ومطحلة الرمل ..

قال مؤمن الدشاوي :

- بالمناسبة .. أقرأ على الجدران : تريد للخبز بذل السلاح .. ماذا
تقصده هذه العبارة ؟ ..

قال مصطفى حجازي :

- أعرف أن الخير موجود ..

تلون صوت عم محمد الطوشي بالتأثر :

- أحمط الجيش عندما أطلق الرصاص عليهم ..

أردف في تأثره :

- النتيجة هي ما حدث من حرائق بقسم الجمرك وقسم التبان وإحراق

المراتب الترام والدكاكين ودور السينما ..

قال المعلم كشك :

- لولا لزول الجيش لضاعت المدينة ..

قال مؤمن الدشاوي :

- عرفت في المستوفد أن القتلى سبعة وعشرين .. منهم سبعة من

عساكر البوليس ..

قال زياتي :

- هتفوا : يسقط النقرشي عدو الأمة ..

أصاف حمزين الدمهورى :

- سمعتهم يهتفون : قود الثورة ياتحلس ..

قال المعلم كشك :

- لهم حق .. كل شيء يدعو إلى العيظ .. التخاذل في المفاوضات ..

التهيار أسعار القطن .. كابر الموظفين .. البطالة ..

ثم في لهجة متشككة :

- حتى لو نجح المحاس في الانتخابات .. فلن يوافق الملك على تكليفه

بها ..

كان المعلم كشك لا يفتح عينيه إلا إذا تكلم . فإذا أنهى كلامه أغمص

هنيه ، وأحنى رأسه على صدره كأنهم . يتكلم ثانية ، فيعاجي من حوله

بأنه كان يتابع كل ما قيل ..

قال مؤمن الدشاوي :

- الحمد لله أنهم أدنوا لنا بالبقاء في القهوة ..

(٥٠)

لاحظ فلان بطل من جحر داخل فجوة في الجدار ، بالقرب من الردهة
تطلع الفأر - بمعين منألمتتين - إلى المكمل حوله . ثم عاد - ثانية - إلى الجحر ..
أرشف الدشاوى متصمجا :

- أغلقوا القهوة في النهار يوم ذكرى توقيع اتفاقية وادى النيل .. أما
الآن فحطرت التجول بالليل ..

قال حسين للدمهوى :

- سمعت أن عمال كرمور خرجوا لى مطاهرة كبيرة ، شارك فيها
أكثر من مائة ألف .. ورفعوا لافتات تطالب قيام الجمهورية ..

قال زلتى الكناس :

- ميزة المظاهرات أن المفتش لا يترك مكتبه .. وقد لا يترك بيته ..

مشواره اليومى يبدأ فى الصباح . يأخذ المقشة المهددة من الناية
الصغراء الصميرة فى ميدان سبانت كاترين ، ويعطى التمام . منطقتة من
قسم العنشية إلى نهاية شارع فرنسا ، عند تقاطعه مع اسماعيل صبرى ..
قال مؤمن الدشناوى :

- حجتك معك .. هل تنطف الشوارع من المتظاهرين ؟؟

استطرد مصطفى حجازى :

- ربما أصابتك طوبة ..

فاجأ عم محمد الطوشى الرجال بالقول :

- كما ترون .. لم أعد أقوى على حمل الصينية ..

مثل الترسة هو . صدفته الصمت ، والغموض . لهجته شامية ، وإن
لم يتحدث عن أهله ولا موطنه ، ولا متى جاء إلى الإسكندرية . لا يكاد يتكلم ،
ولا يبرى عن ظروفه الشخصية . حتى صينية الهريسة بحرص ، فلا يرى
طريقة صمها أحد . الصينية الهائلة الاستدارة ، تكتف حولها - بإحكام -
صينية من الماء . فى أسفل بريموس يسحن الماء ، فيوصل البغار لارتظامه
بصينية الهريسة ، حتى تصبج . يميز نفسه ، لا يصم طاولتين فيتحولان إلى

(٥١)

هريز ، يزيح الأكواب من " النصبه " ، بفرش البطانية فوقها ، يعطى جسمه
جبطانية ثانية ..

وغالب التأثر فى صوته :

- استأجرت دكلاً بالقرب من قهوة هاروق ..

قال حسنين الدمهوى :

- عين العقل ..

قال الطوشى :

- ما يحزنلى أننى سأترك القهوة ..

علا حاجبا زلتى بالدخشة :

- لماذا ؟؟

- إيجار هنا ، سأضعه هناك ..

قال له المعلم كشك :

- هل تغارقنا يارجل ؟؟

وهو يدارى تأثره :

- ما باليد حيلة !..

قال عم سلامة :

- العداء كل يوم خميس على حساب جمادة بك ..

قال مؤمن الدشناري :

- فريحي أم باللحم ؟

قال عم سلامة :

- لي كل طبق غصار ، قطعتان كبيرتان من اللحم الشميري ..

عم سلامة يقف وسط الحلل الهائلة الحجم ، حلف بك من الرخام ، يلاصقه جزر من الأسمنت ، إلى جانبه ثلاثة صفوف من الأطناق ، وجردل مياه ، في داخله الملاقي والشوك ، والبحار يتصاعد بالحرارة . وفي الزاوية حوض صغير ..

الموائد توارت لصق الحائط ، غطيت بالمشع ، فوقها ملاحات وطلايات سجاير من البلاستيك الملون . على جانبيها الكراسي مشعولة وخالية ، والمروحة المتدنية من السقف تدور في رتابة ، وثمة أصوات نساء يخنن على عربة كارو في شارع السبالة :

الفتحة للمكزي سبيع السباع المعنري

قال صابر الشيلنجي :

- نكلة القول تضمن لك الآن أكلة معتبرة ..

أطلق الدشناري من أكمة ضحكة مبتورة ، وواصل الأكل ..

حصص له المستوفد عربة يد . يقف عليها قدر القول من المستوفد بشارع المحافظة القديمة إلى الطنطلوي بشارع التوزيع ، وإلى مطعم النبلاء ، وجمعية مائدة الفقير بشارع اسماعيل صبري ..

كان يشارك عم سلامة في الخدمة . يرتدي القميص الأبيض ، يدق عجينة الطعمية في الجرن ، يفتر الحصار ، يعد حلطة الذقة من الفول السوداني والسمسم والحصى والزعر والكمون والكسبرة والنساع ، يورع

مواصلة الهدد

من حرب الشدلي :

سألك الفقر معا صوك ،

والعبي بك ، حتى لا تشهد إلا بك

.. فهؤلاء الأغياء بقله ، المعتبرون فيه

عما سواه . عفايتهم بالقلة والله ومن

الله ، قياما بشكر النعمة ، وإتماما

لوظائف الحكمة ..

اللهم إني قد عجزنا عن دفع

الضرر عن أنفسنا ، من حيث نعلم ،

فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا

نعلم بما لا نعلم ؟ ..

اللهم ان القوم قد حكمت عليهم

بأنك حتى عزوا ، وحكمت عليهم

بأنك حتى وجنوا ..

(٥٤)

على الموائد أرغفة الحبز والملاعق والشوك وأكواب الماء ، يطمئن إلى عدم خلو الملاحظات ..

فر مختار زعيبة من جانب صابر :

— هذه رائحة اسطبل ..

صحك صابر باستهانة ..

ألف التصاق جسمه برائحة العليق وروث النعام ، لا تذهب باعتساله في مسافة الحبل . امتلأت عرقته بأجولة الذرة والقول والشعير والتبن ، وتساندت على الجدران كومات البرسيم الصباح ..

وصبح ثيابه في مأكبة التشحير بحمام الأفعوشى . أطال وقفته تحت الدش .. لكن الرائحة ظلت ملتصقة بجسمه ..

قال له عم محبوب :

— هل يصلح عزل العياس لصيد البسار يا ؟ ..

ورماه بنظرة مؤنية .

— حمامنا لا ينفك .. جلاخة جسمك تحتاج إلى مكث في حمام شحى ..

قال صابر :

— هل هذا حمام الملك ؟ !

قال عم محبوب :

— خيل الملك لأخلف منك ..

طلب مختار زعيبة الملاحة من الدشلاوى . لم يضعها — يعتمد — في يده . دفعها إليه ، وهمس بالشكر .

قال مؤمن وهو يهر كتفيه :

— لا تشكر على الملح !

قال صابر لمجرد أن يدور كلام :

— الولد أبو بكر .. ابن على الراكشى ..

للتقط تنبه الجالسين ..

(٥٥)

صحا على حركة في الاسطبل . خمن أن أحداً تسلل ليقطع ذبول الخيل بالموسى ، فينتفع بشعرها . شوق للمشهد المفاجأة : الولد أبو بكر يحدل وقفته وراء بغلة صغيرة ، أودعها صاحبها . دفع البطة إلى زاوية الاسطبل ..

— من قلة الحريم يابن الكلب ؟ !

قال عم سلامة :

— لا تشتم أباه .. فهو مبروك !

قال مختار زعيبة متذكراً :

— رأيت الراكشى في النقطرية أمس .. يبدو أن جذبه اتجهت إلى الكيف !

قال عم سلامة :

— أعرف أن الراكشى صاحبك ..

قال زعيبة بلهجة معتدرة :

— تسلى أنفسا ! ..

هتف عم محبوب :

— تسلى نفسك بأنيّة خلق الله ! ..

قال عم سلامة :

— الراكشى في بحرى الآن بركة ..

قال صابر :

— كان لدينا حمام واحد .. صار لدينا اثنان ..

قال عم سلامة :

— الحبل من شروط التولية ..

علا صوت صابر بالاستكثار :

— جملته ولما ؟ ..

مط عم سلامة شفته السطلى :

(٥٦)

— من يدري ؟! ..

اصطدمت يد صابر — عفوا — بالعلاجة ، سقطت ، وتناثر الملح
مختلطاً بشارة الخشب التي غطت الأرض ..

قال عم سلامة لمؤمن :

— انظروا هذا الملح ..

وهز أصبعه أمام عينيه :

— حانر ثانية من وقوع الملح ..

وعلا صوته بنبرة وعظية :

— إن وقع غصبا عك النقطة جيداً ، حتى لاتعاقب يوم القيامة بالتقاطه
برموشك من صحور جهنم ..

واتجه إلى مؤمن الدشلاوي :

— ضاع أمام عك الحاج سلطة خضراء بدلاً من التبصل ..

كان الحاج محمد صيرة يتردد على المطعم من باب المؤانسة . عرف
عنه أنه لايقرب اللحم ، وييدي صيقه لروية حيوان أو طير ينبج . وكان
يرفض تناول مايعبر نكهة الطعام كالبيض والثوم والفجل ، فلا يؤذي الزمان
برائحة فمه عند الحلاقة . وظل على عاتقه بعد أن اكتفى بالتطبيب ، وترك
الحلاقة لصبياته ..

لما طالت وقفته ، لعمل ، ومضى ..

لزمع أن يصمر بطنه بالصيام ، للسباق في حلبة النجاة . يروض نفسه
بالتجوع ، حتى تظهر له مقامات الكشف ، يصطفيه الله بدور الأثوار .
أفضل لو وقف أمام أبواب الجنة . يتطلع إلى المائدة التي تحدث عنها النبي .
توضع بين يدي ولي الله . أطباق من الذهب الأحمر ، مكللة بالدر والجوهر
والياقوت والزبرجد ، عليها فواكه لا يوجد ما هو أجمل منها ، ولا ما هو ألد
من طعمها ، ويشرب بكأس المحبة من بحر الوداد . يقبل طائر ، فيقول : يا
ولي الله . أما إنني قد شربت من عين السلسيل ، ورعيت من رصاص الجنة

(٥٧)

لغت العرش . وأكلت من ثمار كذا طعام أحد الجانبين مطبوخ ، وطعم
الجانب الآخر مشوي ، فيأكل منه ماشاء ، وعليه سبعون حلة ، ليس فيها
حلة إلا على لون آخر . في أصابعهم عشرة حواتم ، مكتوب على الأول :
سلام عليكم بما صبرتم ، وعلى الثاني : إنخلوها بسلام آمين ، وعلى الثالث :
وتلك الجنة التي أورتكموها بما كنتم تعملون وفي الرابع : رفعت عكم
الأحزان والأهموم ، وفي الخامس : ليساكم الحلى والحلل ، وفي السادس :
زوجناكم الحور العيس ، وفي السابع : ولكم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ
الأعين وأنتم فيها خالدون ، وفي الثامن : رافقتم النبيين والصديقين ، وفي
التاسع : صرتم شباباً لا تهرمون ، وفي العاشر : مكنتم في جوار من
لا يؤذي الحيران ..

جأورت خطواته مطعم البلاء ..

نسيه ، فعاد إليه ..

كان الهزال قد امتصه ، وملامحه لم يعبرها منذ فترة طويلة . يرتدى
صديرياً مرقاً على اللحم . ظهر ما يشبه قاعدة الشجر الأسود المتكاثف
على الصدر ، تنتهي بصين متقابلين ، متشابكين ، ينتهيان إلى المصرة . لم
يعن بتطافئها ، فطوى موضعها طين وأرساخ ..
مبنى التصوف ودعامته ، التمسك بالفقر والافتقار ..

لم يعد يضيق بالجوع . الجوع يكسر الشهوة . احتار الجوع والعزلة
والمجاهدة والسهو . الطير يذبح الله رزاقها يوماً بيوم . يشتاق إلى جنة
الأفلاك . الجنة الصبورة من جنس الطعام الأنسي ، والأشربة العذبة ،
والمناكح التي تهبه لذة تنوق تصبوره . القصور من لؤلؤ . في كل قصر
سبعون داراً من الياقوت الأحمر . في كل دار سبعون بيتاً من الزمرد
الأخضر . في كل بيت سرير . على كل سرير سبعون مائدة . على كل
مائدة سبعون لوباً من الطعام . في كل بيت سبعون وصيفة .
الحجرات بلا معاليق من فوق ، ولا عماد من أسفل . يطير إليها أهلها أشباه

الطير ، مع منخامة أجسامهم . بناؤها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة .
 ترلها المسك والكافور . حشيشها الرغفران . أبولها من الجواهر .
 حصانها اللؤلؤ . ماؤها أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل المصفى .
 وفيها من الحور العين ما لا يحصر عدده إلا الله ، ومن المعجم ما لا يتقطع
 أبداً . جوار أبكار قد علمن القرآن ، يقرأنه بأصوات تشجى القلوب ،
 وتشتهى الأسماح منها ، ونهر يقال له الرحمة . يجرى في جميع الجنان ،
 ونهر يبيت الجوارى والأبكار ، وقبة من كافور أبيض ، معلقة بلا عمد
 تثرمها ، ولا علاقة تمسكها ، وشجرة يسمي الراكب في ظلها مائة عام ، فلا
 يقطعها . وزها برود أحضر ، وزهرا رياض صفر ، وأغصانها سندس ،
 وثمرها حلل ، وصحفها عسل وزنجبيل ، وبطحاؤها ياقوت وزمرد ، وثمار
 أشجارها أصفر من الزماني ، وأصحم من التفاح ، وحلاوتها كحلوة العسل .
 من يدخلها ينعم ولا يبأس ، ويخذ ولا يموت ، ولا تبلى ثيابه ، أوصحته .
 له كل ما يشتهي من أكل وشرب ولباس وبكاح وركوب . يشتهي الطير ،
 فيجر بين يديه ملقى بضيقاً ، لم تمنعه بلر . يأكل منه حتى يشبع ، ثم يطير .
 وإذا اشتهى الشراب ، جرى بإبريق ، فيقع في يده . يشرب ، ثم يعود الإبريق
 إلى مكانه . على نهر الينبذ ، جوار نباتات . إذا أعجبت حارية رجلاً ،
 من معصمها ، فقتلته ، وتبنت مكثها . وإذا اشتهى الولد ، كان حملها ،
 ووضعها ، وسنه ، في ساعة واحدة كما يشتهي . وإذا اشتهى زيارة أحد
 إخوانه ، طار من سريره ، حتى يكون بحداه سرير أخيه . يباح الحمر
 والحرير والذهب . تمر السحابة تقول : أتريدون أن أمطر لكم ؟.. فلا يتمنى
 شيئاً إلا مطره . يرى الثمرة هي الشجرة ، يشتهيها ، فيقول للعصن : حدثني
 يا ولي الله . يسأل : من أعلمك بما في نفسي ؟.. يقول للعصن : الذي
 ارتضاك لحواره . يتناول الطعام في أطباق من الياقوت الأحمر والأصفر
 والأبيض ، وأكواب من الذهب الأحمر ، مملوءة بالماء واللبن والحمر

ومعسل والتنظيم والزنجبيل والعنسيبيل . والرحيق المحتوم . حاجته عرق ،
 يصل من جلده ، مثل ريح المسك ..
 دعاه الحاج محمد صبرة ، فرقص ..
 قال له يوسف بدوي :
 - في قول لرسول الله : من صبر على القوت الشديد ، صبراً جميلاً ،
 سكنه الله الفردوس حيث شاء ..
 أكرمه الله بالحياء والحوف والانتباه واليقين . أذهب عه الشك والوهم .
 كسر حظوظ نفسه ، وقطع الطمع في الدنيا ، وتجرد للأخرة . احتذى
 المشايخ الكبار فيما حرصوا عليه : لزوم الصبر على قلة الكلام والنظر
 والحركة والعمام والطعام والشراب والثياب واعتزال الناس ، حتى يختاره
 الله للحياة في الجنة . يدخل الرحاب الواسعة الطاهرة . ينادى العنادي : إن
 لكم عند الله موعداً . يسأل الأولياء والصالحون : ألم تبيض وجوهنا ،
 وتقيا من النار ، وتكفنا الجنة ؟.. يقول العنادي : بلى . ويكشف الحجاب ،
 لما يئالون شيئاً أحب من النظر إليه . يدخل مع رجال نيسوا بأنبياء
 ولأشهداء . يخطبهم الأنبياء والشهداء بمنزلهم عند الله . يكونون على منابر
 من نور . يسمى إسرائيل للملك القدوس ، لا تبقى شجرة في الجنة إلا مانت ،
 ولا ستر ولا باب إلا ارتج ، ولا حلقة باب إلا ططعت بألوان طينها ، ولا
 أجمة من أجام الذهب والفضة إلا زمرت بفنون الزمر ، ولا حوراء إلا غنت
 بأغانيها ، ولا طائر إلا غرد بلحجه . تردد الملائكة الأغنيات ، وتتضاعف
 اللذة ، وتعنى الحور العين بأجمل الأصوات : نحن الخيرات الحسنات ،
 أزواج قوم كرام ، ينظرون بقوة إيمان . ونحن الحائلات فلا نموت ، ونحن
 المعلمات فلا نطعن . طوبى لمن كان لنا ، وكفاه . لا ليل ولا نهار ، ولا
 شمس ولا قمر ، ولا حر ولا برد . الوقت دائم كما قبل طلوع الشمس .
 جنات الجلال ، ودار السلام ، والمأوى ، والجلد ، والنعيم ، والفردوس ،
 والقرار ، وعنن . جميعها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وترابها المسك

(٦٠)

الأخضر والكافور ، وحشيشها الزعفران ، وقصورها اللؤلؤ والياقوت ،
وأبولها من الجوهر . علو صلتى كل باب منها خمسمائة عام ،
وحصنها اللؤلؤ ، وماؤها أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ،
وأفصل أنهارها ستة : الفضة ، والكوش ، والكافور ، والتسيم ، والسلسيل ،
والرحيق المختوم ، وأنهار أخرى كثيرة ، لا يحلم عندها إلا الله . نحلها له
جدوع من الذهب ، وجريد من الذهب ، والماع من الذهب ، وثمارها لير
من الزبد ، وأحلى من العسل ، وثمة شجرة ، يخرج من أصلها خيل نوات
أجنحة مسرجة ، منجمة ، يركبها أولياء الله فتطير بهم حيث شاءوا .
الحجرات من أنواع الجواهر ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من
ظاهرها . فيها من العميم والثواب والكرامات ما لا أدن سمعت ، ولا عير
رأت . وفي يوم الجمعة يؤتون بحيل مسرجة ، ملجمة ، لا تروث ولا تبول .
يركبوها حتى ينتهوا حيث شاء الله ..

أعاد عم سلامة دعوته :

— ادخل يا نوح على ..

تعييف السلطان له على معاملة سيد العران ، بذلت معاملته لمن
يترددون على المطعم . حتى من يطلبون التعامل بأجل ..
مد الراكشي يده إلى أعلى . تولى التظلمة مالم يروه ، وقذف به في

نمه ، وراح يمصغ في استمتع ..

اتسمعت عينا صابر بالدهشة :

— ماذا تفعل يا رجل ؟ ..

وهو يواصل المصغ :

— طعام السماء أفضل من طعامكم ..

أدار صابر أصابعه بجانب أدله :

— لصابه الخرف ..

صرخ الراكشي :

(٦١)

— المخرف أبوك !.. هذا طعام من الجنة لاتراه الأعين الكافرة !..

وداهل صوته تهذج :

— أنتم تأخذون من الجيب .. وأنا آخذ من العيب ..

هم الراكشي بالانصراف .. لكن فرصة الجوع دفعته إلى المساعدة

الرببة ..

سكب قطرات من الماء على الأرض ، ثم شرب الكوب دفعة

واحدة ..

علا حاجبا مؤمن الدشلاوى :

— لماذا ؟ ..

قال وهو يواجه الطعام :

— حتى يشرب بحوتنا .

قالت المرأة مهونة :

— أبدأ .. لين صدري لا يكتفيه ..

فرمى صوت أم عباس الحواقة من الحجرة المطلة على السبالة :

— لشربي حلبة ومعات ياولية ..

قالت أم محمود :

— أنت هكذا تغلقين الباب ثواني أنتجت بنتاً وطلب الولد زواجها ..

قالت المرأة :

— لا أحد يعرف نصيبه !

خمنت أنها ربما أسامت التعبير ، فأردفت :

— مهجة تستحق ابن الملك ..

تتأهى صوت أم عباس الحواقة :

— وهل للملك ابن يا ولية .. إن كل حلقته بنت !

قالت المرأة :

— الحقيقة أنى لم أعد أذكر من أرصعنه .. أصبح أحاً للكثير من أولاد

السبالة ..

مع أن عباس الحواقة ولد فى بحرى . من لبوين وجنيس ولدا فى

لا يعرف له أهلاً خارج الاسكندرية ، سوى من غادروا المدينة

وف العمل ، أو المصاهرة .. فإنه لم يعرف عن كرامات جابر برغوت

بعد أن كلمه عم محبوب ، حارس حمام الأفوشى :

— جابر برغوت مزروك .. ولفه الله فى علاج ما هو أفسى من مرض

..

سبقه عم محبوب فى شارع سيدى كطمان ..

عبراً حلقة ذكر يتمايل فيها الذاكرون مثشابكو الأيدى على إيقاع

الرقص . فرأى عباس الحواقة الفتاة لولى الله بصوت هامس ، ومسح وجهه

انساع الدائرة

غادرا الجامع بعد صلاة المغرب ..

كانا قد استأذنا إمام أبو العباس فى مشوار ، فلا يستطيعان حضور

درس المغرب . نزلا درجات الباب الملكي إلى ميدان الأئمة . الأيدى — فى

الأصواء الحافطة ، المبيسة من داخل المكان — تلمس المقاصير النحاسية ،

كالوائد الصميرة ، وتعيد ما لمستته إلى الأكواء ، وتقلعه ، وتسمح بها على

الصدر . بقايا الشمس تسلك من أعلى الجدران ، وحلت العتمة . بدت

المرئيات كأطراف ، أو كأشباح ..

قال عباس الحواقة :

— ماذا يحينك من جابر برغوت ؟ .. لقد رفض أن يتقاضى مليماً قبل

حنوث الشعاء ..

قالت أم محمود :

— أى شفاء ؟ .. صحة البيت تدهورت .. أحشى أنها سموت ..

كانت قد أهملت الأمر ، وصيته تماماً . ثم نبشت الذاكرة — فى الأيام

الذاتية — لنقوم الإمام . علمت الجزنيات الصميرة ، فاستعادت الملامح

العائبة ..

قالت أم هشام :

— لوتك ترضعين الولد

قالت متصعبة :

— كفى الله للشرا

بيده . احترقا شوارع صيقة وحواري وأرقة ، احتلط التراب بمياه العسيل ، بالأوساخ المتحلفة من تطويف العمك ..

توفاه عم محبوب عند بيت من الطوب الأحمر ، ذي طليقين ، نوافده عالية ، مغلقة ، وإن علا للصدأ قصباته الحديدية . وثمة — في المدخل — مياه راكدة ، ورائحة عطن . وتناثر على الجانبين مجاذيف مكسورة وحبال وشباك وفلين وأسفج وعطب فارعة ..

تعلم جابر برغوت حتى للثلاثة الأولية . فك اللحظ ، وحفظ آيات من القرآن الكريم ، وقواعد الجمع والطرح والصرب والقسمة . لم تكن ظروف أسرته تقوى على تكاليف الدراسة . ألتحقه أبوه صديقاً عند المعلم مهني ، الحائوثي للمواجة لجامع ياقوت العرش . أتاح له مواصلة تعلم القراءة والكتابة ، وتعلم الأحجية والأعمال فيما بعد ، اقترابه من الشيوخ عوض مفتاح . كان يصنع الأحجية ، ويكتب الأعمال لمن يقصده من زائري ياقوت العرش . أضاف إليهما من ذهنه ، ومن دعوات المترددين على المقام ، وما يتركونه من رسائل وشكايات وأحجية ..

قضى برغوت أعماراً يقرأ الروايت في الليوت . وعندما اشترى كتاباً في السحر من مكتبة البحارين ، مرع له أياماً حتى حفظه . قرأ أمهات في كتب السحر ولطب الروحاني وأقن العمل بما فيها . تذكره دلوود . وتعطير الأثام في تفسير الأنام ، وشمس المعارف ومنبع أصول الحكمة للبوئي ، وتفسير الرؤيا لابن سيرين ، والفرحة في الطب والحكمة للسيوطي . ومجربات النيربي للكبير ، ومؤلفات ابن الحاج ، وغيرها . العلم بكمالات القلوب ، وأفاتها ، وعلاها ، وأدواتها ، وبوسائل حفظ صحتها واعتدالها ، ورد الأمراض عنها . وصار عازفاً ، قادراً على الإرشاد والتكميل ..

استكمل علمه بالتردد على مشايخ لهم صيتهم في اللبان وغربال وكرمول وصحره العتاس ..

لما زادت علومه ، أجاد فتح الكتاب ، وقراءة الكتب ، والجهية ، والاستشارة بالقرآن ، وبحبات المسحة ، واستحضار الأرواح ، ومخاطبة أولياء الله في أمرحتهم بالبركة والمكاشفة . وصنع أحجية لرد الغائب ، وفك الحس ، وشفاء العقم ، والأمراض المستعصية ، وطرد الشياطين ، وإبطال العمل . ونجح الكثير من التلاميذ بفصل أحجيتة ، ونائل مرضى للشفاء ، وولدت نساء ذكوراً ..

كان يأخذ اسم المشكو في حقه . يبعد رسمه على قحف قرموط ، ويطلب إلقاءه في البحر . يصعب على الرجل من ليلتها أن يصاحبه أمرته . يظل مربوطاً حتى يموت القرموط ، أو تأكله سمكة كبيرة ، أو يقع في شباك الصيادين . وكان يكتب الوصفات . إذا وضعها الرجل في كوب ماء ، وسقاه لزوجته ، فإنها لا تفعل . بعد ذلك — ما يكرهه ..

لم يعد مسئولاً عن حياته ، ولا عما يقضى به في الحالات التي يعالجها . كتب السحر تشير بكل تصرف . تقرر ما ينبغي أن يفعله ، وما ينبغي إهماله . تعلمه على حقيقة الداء ، وتضع العلاج المناسب ..

وحين شكا عم سعد صاحب المجيرة في شارع اسماعيل صبرى من فئاق ضخم يملأ مابين فخذيه ، فهو يتحرك ويمشي بصعوبة . لجأ إلى جابر برغوت . وضع يده على موضع الفئاق ، وبسمل ، وحوقل ، وتلا أدعية ، ثم رفع يده ، فإذا الفئاق ذهب ، كأنه لم يكن . قد يكون العلاج وصفة ، أو دواء من الصيدلية . ربما اكتفى بالسمع بقراءة الأذال في أذن المريض ، أو تلاوة آيات القرآن . وربما — إذا بدت الحالة صعبة — أمر بحرص المريض على طبيب دينوي ، فهو طبيب روحاني ، له علومه ومعارفه التي لا تختلط بعلوم الطب للدنيوي ، ومعارفه ،

رفض — بعد وفاة أكثر أبنائه مسعوماً — كتابة الأعمال السحرية للضرر والإيذاء . لم يعد يكتب إلا أعمال الحير والشفاء والمصلحة

(٦٦)

والهداية . كلمات السحر تتضمن آيات من القرآن ، والقرآن حير ، حروقه
وكلماته وجملته وآياته وسوره .

طلبت منه زوجة صياد الطراحة زغول عمران أن يربط زوجها ،
لزوجته من أخرى ، فرقص . قال إنه يحلف عذاب الله لو لقم على الأذى ..
قال :

— هل تزوج الرجل بالمرأة ، أو زنى بها ؟

قالت المرأة :

— تزوجها ..

صرب الفراع بيده :

— وصفة الربط لا تصح إلا في حالة الزنا وحدها ..

جلس على خشية من قطن . أمامه طاوله مستديرة من الخشب
المعقوش ، عليها أوراق وكتب ودواة حبر ومجمره بحور . وعلى الجدران
آيات قرآنية وصورتان للحرم المكي والحرم النبوي . وعظمت الباقية بمتارة
من العماش السميك . تحتها صندوق خشبي ، معلق يقفل ..
التعد عباس الحوالة وعم محبوب الكليم الأسبوطي ، المعروش
باتساع الحجره ..

— أهلاً يا معلم عباس ..

يعرفه ، وإن لم يهبه انتباهه ، ولا جلس إليه من قبل . راه مرات كثيرة
أمام ياقوت العرش ، وفي داخله . ليس الشيخ عوض مفتاح إمام الجامع ،
ولا حتى الشيخ سيابة قارئ الجامع ومؤذنه ، يعطيه حقه من التوقير .
الغدة بدلت صورته ، وتأثيره في نفسه . داخلته رهبة . تمتد أن تكون
كلماته هامة :

— أهلاً ياشيخ جابر ..

لو أن الموقف قبل الآن ، لنتلق الأئمة غير مصدوق بصفة ..

(٦٧)

بشر جابر برغوت المزيد من البحور في المجمرة أمامه ، ونكش
جمرات النار بقطعة من الخشب :

— حدثني عم محبوب عن مشكلة ابنك ..

قاطمه بصوته الهامس :

— وأكد أن الحل سيكون على يدك ..

سرحت عيناه في المدى :

— الحل في يد الله !

مسح يده على الأثر . همس باسم الله ، والعتاقة ، وبعض أسماء الله
الحسنى ، وأدعية . ثم علا صوته :

بسم الله الرحمن الرحيم . بسم الله الكافي . بسم الله الشافي . بسم
الله الذي لا يضر مع اسمه شيء ..

قرأ :

" فلما اتقوا ، قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبيطله . إن
الله لا يصلح عمل المفسدين " ..

طلب من الحوالة أن يكرر ماقرأ . هو أو أحد من آل بيته — اثنين
أربعين مرة . وطلب أن تقرأ " قل هو الله أحد " ثلاث مرات ، والمعوذتين
ثلاث مرات ، وأن تقرأ خمس آيات من سورة البقرة ، ويقرأ من نفس
السورة " الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في
السموات وما في الأرض . من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين
أيديهم ، وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه
السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلي العظيم .. الآيات إلى
" والله لا يهدي القوم الكافرين " . وتقرأ سورة " الإخلاص " اثنتي عشرة
مرة . ويقرأ من سورة الحشر : " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته
خائضاً متصدعاً من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم
يتفكرون . هو الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة . هو الرحمن

(٦٨)

الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ،
المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله
الحائق ، البارئ ، المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له مساقى السموات
والأرض ، وهو العزيز الحكيم . ومن سورة طه " وألق ما فى يمينك ،
تلقف ما صنعوا ، إنا صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى " ..

قال جابر يرضوت :

- البيت تعالى أنية منح .. إذا قرئ ذلك كله ، ونفذ ، فإنه يحرق كل
مكتب من أسماء الجان ، ويبطل أعمال السحر ، ويحطم للتعلويد والطلاسم ..
صنع حجاباً ، ثبته فى حجر صغير وطلب من الخواقة أن يلقيه فى
البحر :

' بسم الله الرحمن الرحيم ، لله الذى لا إله إلا هو ، مرسل الرسل ،
عالم البعص والكل ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، الوالى
المتعال ، رب الأحرة والأولى ، والبدية والمنتهى ، وله الأسماء الحسنى ،
مجرى العلك ، مالك الملك . إني لا أقرب ممن علق عليه هذا الحجاب ، لا
فى أكل ، ولا فى شرب ، ولا فى مشى ، ولا فى جلوس ، ولا فى خلاء ،
ما دامت العلك دائرة . والله على ما نقول وكيل " ..

وضع محمود عباس الخواقة أرغفة الخبز على للتجريدة بده ، واتجه
خارج العرن ..

لحقه نداء فؤاد أبو شنب ..

مال به يمين الباب من الخارج ، ينقى طرطشات المازوت على
الجدار ..

- أريد أن أزور والدك فى البيت لأمر مهم ..

ماكاد أبو شنب يخامر الشقة ، حتى خبطت أم محمود على صدرها :

(٦٩)

- إن أزواج ابنتى لرجل فى سن أبيها ..

قال محمود :

- هذه مشكلة بسيطة .. الأهم أنها ستكون زوجته الثالثة !

قال عباس الخواقة فى هدوء باتر :

- أزواج ابنتى وأضمن حياتها ، أفصل فى كل الأحوال من أن أراها

ت !

• • •

" لا تقل قمك إلا حيث رجو
ثواب لله ، ولا تجلس إلا حيث لمن
غلباً من مصيبة لله ، ولا تصطف
لنفسك إلا من تزد به يقياً ، وقابل ما
هم " ..

الحليق برا أجنحة

ترك المعهد الديني وراءه ، ومضى في شارع المسافر خانة المرصوف
الطبع البازلت الصغيرة ، ببيوته القديمة ، والأبواب والنوافذ العالية ،
والحجارة البيضاء . أسلم نفسه لظلام الحورى الصيقة ، المتشابكة ، المتداخلة ،
وإن تآثرت أضواء شاحبة من أحصنة النوافذ المعلقة . ثمة بيوت معلقة
الأبواب ، وبيوت فتحت عن آخرها ، وإن احتوت اللطمة مدخلها ، فلا تبين
من شيء ، وهذات الأصوات ، وخفتت . تحولت إلى مهمات خامسة ،
بعيدة ..

لم يشعر بالخوف . الجن والعاريت سجنها رمضان . يستطيع المرور
في أي وقت ، دون أن يخشى أذاها :

يا رمضان يا عود كبيرت يا مقيد كل العاريت
أغلقت أبواب الجحيم ، وفتحت أبواب الجنة ، وصعدت العفاريت
والجان والمردة والعيال في مقام من للنحاس . لا يظهرون طول الشهر ،
ليستطيع الناس الحياة في أمن وسلام ..

كانت الجان والعاريت تترصد له في داصية حارة الشاروني ، في
الجانب المظلم المفضي إلى السقالة ، يعرفها بمجرد اقترابه . لها تكوين
البشر ، لكن حركاتها القافزة . تكشفها . يقترب ، ولا يتوقف . تؤذي من
يبدى خوفاً . ينلو مايسعه به لسانه من آيات القرآن ، لتفزع وتحتفى ..

كانت الأقدام قد خفت من الميدان والشوارع المحيطة ، وأغلقت
لذلكاين . انداح الظلام ، ماعدا ذبالات العوائيس المرتعشة في الأركان ..

قل أبو الحسن للشاعلي : " إذا
أكرم الله عبداً في حركته وسكنته ،
نصب له العودية لله ، وسر عنه
حطوط نفسه ، وجعله يتقلب في
عوديته ، والحطوط عنه مستورة ،
مع جرى ما قدر له ، ولا يلتفت إليها
كله في محل عنها . وإذا أكرام الله
عبداً في حركته وسكنته ، نصب له
حطوط نفسه ، وسر عنه عوديته ،
فهر يتقلب في شهواته ، وعوديته لله
عنه بمنزل ، وإن كالي يجرى عليه
شيء منها في الظاهر " .
...

" لا تكثر من أسرك شيئاً ،
ولتشر أن لا تكثر ، ولدر من ذلك
المغتر ، ومن لغرك ، ومن كل
شيء ، إلى الله تعالى " ..
...

(٧٢)

لئن تنس بالظلال التي صنعها نهد لمبات للشارع ، والأضواء المتسلسلة
من السواض المملقة . تلازم الظلال خطواته . تسبقه ، وتجاوزه ، وتتبعه .
يعتبر نفسه سائراً في جماعة تؤسسه وتسليه ..
توقف لرؤية لولاد أمام اسطبل التيمى بالسيلة . يهزون العوائيس ،
ويعنون :

الدكان ده كله عمار وصاحبه ربنا يحميه
شوح التيمى بيده - ناحيتهم - فى غضب ، فعلت أصواتهم :
الدكان ده كله خراب وصاحبه ربنا يحميه

رمضان ..

ملقة مدفع الإقطار تتراعى من قلعة قايتباى ، يمتص صداها البحر ،
فلا تسمعها الأحياء البعيدة ..

مولد ميدي يلقوت العرش موعده فى أيام للشهر . تسبقه المظاهر التي
تهب الشهر ملاحه . حلو الشوارع إلى العصر ، وإغلاق الدكاكين ،
والزحام الحاقق قبل تطلاق مدفع الإقطار ، وموائد حمادة بك أمام درن
التمرازية : الفول للنايت والأرز والفتة وقطع اللحم المسلووق ، وتكلى
المساح من الأيدي ، وحلقات الذكر والتسايح ، وقراءة كتب الدين ، وصلاة
التراويح ، وتلاوة القرآن فى حديقة سراى رأس التين ، يتردد فى الحديقة
الواسعة فى هيئة حدوة الحصان ، طيلة ليالى الشهر ، آيات القرآن ، وخدم
السراى يطوفون على الناس بصواني الحلوى والقهوة والشاي ، وثمة الكنافة
والقطايف والنقل وقمر الدين وقالب الماء البارد والعوائيس والريشات والأعلام
الملونة والأضواء والمسرور والحركة والتمشى على الكورنيش والفرجة
ورائحة البخور .. حتى مائى الجوامع تضاء إلى مابعد صلاة العجر ..
قال عبد الوهاب مرزوق :

- رمضان ليس مجرد شهر ميلاد . إنه ملك عظيم ، بل هو أقرب
الملائكة إلى الله سبحانه ..

(٧٣)

واتجه بنظرته إلى محوى قبطان :

- كل الناس تنقد من وزنها فى رمضان .. ماعدا محوى ..

قال محوى قبطان :

- أنا لا أقطر يوماً واحداً ..

قال قاسم الغريانى :

- ومن أنكر ؟! لكذلك تأكل بمقام أربعة فى إقطار سراى الملك ..

تجعدت جبهته :

- كذب !.. لم أتردد على إقطار الملك فى رأس التين إلا مرة واحدة

لمسوع ..

قال حمودة هلول :

- أنا لأذهب كل يوم .. ولتكن بك كل يوم !..

كان يحرص على الجلوس فى المقاعد الأمامية . يحجزها الخدم

لوجهاء والأعيان والمعلمين وموظفى الحكومة . يدخل السراى - عندما
يلكن الحرس الملكى - عقب صلاة التراويح ..

قال قاسم الغريانى :

- لو أن المعلمة أنصاف أقامت فرعاً لنشاطها فى المولد ..

قال محمود عباس الخوافة :

- منه لله سيد القرآن .. استأثر بالنسبة وحده !..

قال الغريانى :

- تزوجها على سنة الله ورسوله ..

قال محمود :

- كانت تقضى ..

قال الغريانى فى لهجة معاتبية :

- يارجل !.. سيد صاحبك !..

قال محمود :

— ألم يجد إلا أنسية ليتزوجها ؟!!
 قطب عم إبراهيم القبط جبهته متذكراً :

— زكى تعلب ؟

ثم وهو يهز رأسه :

— نعم .. طرد من المعهد ، وسافر إلى بلدته ..

اتسعت عيابه بالتلق :

— لماذا ؟!!

— سألت عنه المباحث لصلته بالإخوان المسلمين .. فصلته إدارة المعهد ..

— هل ألقى القبض عليه ؟

مط القبط شفقه السفلى :

— لأعرف أ.. ودعته حتى نهاية المسافر حانة .. شحيحاً يرفص
 اشتغال الطلبة بالميامسة ..

أردف الرجل بصوت هاس :

— قيل إنه فصل لانتماه إلى جماعة مرية ..

قال طالب التقي بالراكشي في حجرة زكى تعلب ، إلى الحكومة ليست
 راصية عن نشاط الطلبة . تصالحوا مع الوفد ، أو مع الإخوان المسلمين

أوقفت الحكومة دعم المعهد ، فعانى الطلبة . تحولوا إلى مهرومين . وغابت
 العناية عن المبني . انتشر التلى والوسخ ، وتشققت الجدران ، وتساقط
 الطلاء ..

لما أيدى زكى تعلب صيقه مما جرى ، أمر شيخ المعهد بفصله ..
 اعتاد — في الأيام الماضية — أن يتردد على المعهد . يدخل الباب

الحديدى الصحم . يسقه سموت ، حمله للمرة الأولى ليطرد الأولاد حين
 يعاكسونه . يصعد الدرجات الرحامية . يطأه في الردهة الواسعة زحام

الطلبة وصحبهم . عرف الطريق إلى حجرة زكى تعلب . لثانية على

المبين ، في الطابق الثاني . تطل على مور حلقى ، وعلى حجرات الطلبة
 المظلمة . ينصم إلى زكى تعلب ، وإلى الطلبة المقيمين معه ، والمترددين
 عليه . يخصوصون في أحاديث تبدأ ولا تنتهى . يتأهى من حجرة قريبة ،
 نواشيع للتبج على محمود . يهتف أحدهم : جعنا . توسع الطلبة ، فوقها
 أربعة الخبز ، وأطباق العدس واللؤلؤ السانت والقول المنمى .. ثم تشعب
 الحجرة بالحكايات والمناقشات والنداءات والهمس والمذاكرة والنداق أنوار
 الشئ في الأكواب . وثمة — من المطابع — أصوات الحفريات المفتوحة
 والملاعق والشوك والسكاكين والأكواب ورنين المعرفة في داخل لحن ..

كان يواصل السير ، يقطع منازل السائرين ، ومرأجل السالكين . يلتد
 بالصبر في تحمل المشقة ، ويكتفى بأكل القرقيش والليمون الملح . حمل
 سلسلة تتطوح بمحجرة بحور ، ينادى بحر ماعده على المند من أولياء الله
 للصالحين ، فلما لحق النار ذيل جلبيه ، ألقى بالمجرة بعيداً ، فلم يحملها
 ثانية ..

أرمع أن يستبدل المتاع الأخرى الباقي ، بالحطام الذنوبى العاني .
 عد نفسه من الموتى ، ولولا خوفه من غضب الله ، لتمنى مفارقة هذا
 العالم . صار حاله في زمن الحال . لا يشعله الماضي ، ولا المستقبل . نور
 في قلبه ، يشعله دائماً بأمر الأخرة . سطعت الشمس في داخله بشدة ،
 اجتذبت ، لفته ، استرقت في أضوائها المبيرة ، فدابت نفسه . انفتحت أمام
 عيبه سحب الاعيار والأشكال والإشكال . وامتلاً القلب بعظمة الله ومحبتة
 وجلاته . حل فيه النور ، وزلت السكبة . تجاوز الحدود الخفية . لم يعد
 على صلة بالخلق ورسومهم . أراهم من نفسه ، وانفرد إلى الحق ..

كانت البروى تأتيه عجب أذان الفجر . للحفبات التي تشتت فيها
 الظلمة . لا يدرى إلى كان ما يشاهده في نوم أم في يقظة . يدع نفسه إلى

التأكد مما حوله ..

تداخلت الروى فلم يعد يدرى ما الحلم ، وما رآه رؤية للحس . كالصور الباهتة ، كالأصداء البعيدة ، مساومات الحلقة ، وجلسات قهوة الرردوسى ، وطرقعات الكونشينة والترد ، ونداءات الجرسون بالقوت ، ودرس المغرب فى أبو العباس ، وتهنجات الذكر ، ومهرات حمام الأنفوشى ، ومطالب المرأة والأولاد . استمعى بالله عن الكل ، لا يحفل بهم ، ولا يلتفت إليهم ، ولا ينصت إلى كلامهم ، ولا يحتر لهم على أى نحو ، وأثر مايقضى على مايقضى ..

انسلخ من نفسه ، وانقطع عن الوجود إلى الله . انصلت حياته به ، وأصبح كله له . استعنى به عما سواه ، وأثره على ما دونه . توكل عليه ، وعكف ببلابه ، ورصى بقضائه ، وهجر له الأهل والأصدقاء . هرب من الخلائق مستأنفاً به ، مستوحشاً مما سواه . صان قلبه عن الاتساع لغير المحبوب . جعله بيتاً مقدساً طاهراً من التعلق بالخير . مصى فى قلب التجليات الجاذبة إلى الفناء ، خلف وراءه البرق ، وتشوق إلى الهمس فى الدات ، والسياحة ، والانقطاع فى الجبال والشعاب وبطون الأودية ، لا يحتلظ ، ولا يراه أحد ، ولا يرى أحداً ، وأثر رأى نفسه فى جلوة الجائفة . هو الخليفة نفسه ، وهو شيخ السجادة . يمتلئ للحاصل ، يحيط به الأتباع والمريدون ، والبليارق والرايات والتهليل والإشاد والزغاريد ..

رأى - أول السيلة - طائفاً الخبار بفرق التمازية ، يقود دراجة بيد ، ويحمل طاولة خبز باليد الأخرى ..

- إلى أين ؟

- مطعم النبلاء ..

قال الراكشى :

- هل تبيعون له العيش الرجوع ؟

- طلب حمادة بك إرساله إلى المطعم ..

ثم وهو يواصل السير :

- يستخدمونه فى عجيبة للفلال ! ..

بدا ميدان المساجد كالسوق . تخلقى عنه الهدوء ، وتعالى فى جنباته التكبيرات وعبارات التوحيد والصلاة على النبى والزعيق والصداءات والابتهاالات ونقات الدفوف والزغاريد ، وتتأثرت أصواء الكلوبات ، تبين عن السرادقات وحيام الحجمة وسوائر الأقمشة والإكشاك وعربات اليد وشوادر الحمص وحب العزيز وحيام الكفاة والقطايف وفرق الصوفية والإشاد والمريدين وحلقات الذكر وطوفان الزوار المتجهين إلى قباب الرئيس لجمع بالقوت العرش ولعب الشان والقوة والرايات والبليارق ، وتصوع المكان بروقح البخور والطور والشواء ، وردت مواكب الأطفال :

إقرأوا الفاتحة لمسىد بالقوت واللى مايرضى يطلق بموت

تنه لصيحة مفاجئة :

هل هلاكك شهر مبارك .. على أمة الإسلام

وعلا - متحياً - صوت الرجل الواقف أمام الباب الجنى لأبو العباس :

يارمضان يا صعبن نحاس يادابر فى بلاد الناس

مقت عليك أبو العباس تبات عندنا الليلة

الشيخ جمعة . المولد موطنه . ينتقل من مولد إلى آخر . يحفظ

مواعيد البدء والانتها : القناتى .. الحجاجى .. النسوقى .. الهدوى ..

البوصيرى .. أبو العباس .. السيوطى .. يحرس على حضور مولد أبو

الحسن الشاذلى . ولقة عرفات . يخوض زحام البشر والسيارات وحلقات

الذكر والخيام ودماء الأضاحى . يصبح قطرة فى بحر الأكلوب المحيطين

بصريح قطب الاقطاب فى وادى حميرة . يشارك فى الطواف بكسوة مقام

الشاذلى ، يمسك - أو يلمس - أطرافها . يردد عبارات التكبير والتوحيد

والصلاة على النبى ..

قال الشاذلى عند موته :

- والله ، لقد جئت فى هذا الطريق بما لم يأت به أحد ..

(٧٨)

دفن بعميرة ، وغسل من ملتها ، فكثر الماء بعد ذلك ، وعذب ،
فصار يركب إذا نزل عليه ، ولم يكن قبل ذلك كذلك ..

قال الشيخ جابر : استصحب سيدي أبو العباس المرسي ، شيخه
أبا الحسن الشاذلي ، في رحلتهم الأخرى إلى الأراضي الحجازية . ولما
وصلوا ، اشتري الشاذلي مكتلاً وأساساً وقماشاً أبيض ، وعمله لتلميذه
أبي العباس ، فسلكه :

- ولم هذه الأشياء ، ونحن غير قادرين على السير بمفردنا ؟

قال أبو الحسن :

- عند " حميرة " سوف ترى ..

وساروا حتى وصلوا عيذاب ، بالقرب من إنفو ، وعند وادي حميرة ،
طلب الشاذلي من أبو العباس أن يملأ الإناء ماء ، فملأه . وهنا قال أبو
الحسن :

- يا أبا العباس .. الآن وقد أعددت لك كل شيء ، وحفرت هذه
الحفرة ، وسوف ألقى الله بعد قليل .. فطيك أن تغسلني ، ونكفني . وسوف
يحصر إليك رجل يساعدك في دفني ، فلا تسأله من أنت ..

وقام الشاذلي ، فتوضأ ، وصلى . بعد أن فرغ من صلاته ، نطق
بأشهادتين ، ولقى ربه ..

نفا أبو العباس كلام شيخه ..

يعصى الشيخ جمعة ليلة عرفات وصباح العيد في أقرب مكان إلى
الضريح . يحرص أن يشارك في حمل كسوة المقام الحزيرية الخضراء ،
تطوف على إيقاع الذكر والتكبير ، حتى المسجد . يتكرر الطواف سبعاً
حول المقام ، ثم يتسلم الكسوة ختم الضريح . يميل - عقب أيام المولد - إلى
ضريح سيدي سالم . يطوف حوله ثلاث مرات ، التماساً للمدد ، وتجيئاً
لإشعاره بالخبرة ..

صعد على الراكشي درجات الملب الرخامية ..

(٧٩)

لم يعد تردده على الجامع مثلاً كان في القديم . انتصر السلطان له
على الإمام وجلساته ، لكن الأحوال ظلت كما هي . الحاج قنديل وحده أحذته
هبة الموقف ، فعابت - من يومها - شتمه ، وراعى خاطر الله في
معاملاته . قصر تردده للصلاة على ياقوت العرش ، يؤدي ركعات الفرض
والعمرة . يجلس إلى جابر برغوث . يسأله ، أو يرد على أسئلته ، ثم
يأخذ طريقه إلى باب الجامع لاختار شاية محددة . قد يجول في ميدان أبو
العباس ، أو يطيل التوقف على شاطئ الكورنيش . يقرب قدوم البلاستات
والفلايك ، وابتعادها في الحفاة المياه الشرقية . وربما مضى إلى رحام
شارع الميدان ..

قال له سيد القفران وهو يحاذيه في خطوات الصعود إلى الجامع :

- الرجل أبو شنب .. لم أكن أراه في القرن ، كما أراه الآن في أيام

المولد !..

قال الراكشي :

- كن مثكلاً ولا تضعه في مخك ..

ثم وهو يشيح يده :

- لك الآن تجارتك !

أظهر سيد التصعب :

- يدعشني تنقله بين الأكشاك والعيام والعرر .. كأنه مسنول عن

إعاشة الناس !

تأثر في أرجاء الجامع أراكد ومجموعات ، يصنّون ، ويتلون القرآن ،
ويستندون إلى الجدران ، ويتبادلون الأحاديث . وثمة أعداد لا تتقطع من
النسوة ، ينحلن الباب المواجه للمقام . يطفن حوله ، يهمسن بتلاوات
وأدعية ..

لجتنبه صوت :

— أما كنت تمجد الله لو لم يكن هناك خوف من النار وحب في

الجنة ؟

نظر إلى الرجل بجانب عينه . جلس في طرف البسطة الأولى من الدرجات الرخامية . الشيخ حماد . قامته الطويلة ، وشعره الموهوش المنسدل على كتفيه ، وعيناه المحدثتان فيما يصعب تمييزه ، وقممه المنفرج عن شفتين متدليتين ، وأنفه الدائم الزكام ، وملابسه التي تدخلت بالسواد في جسده .. هم بالميل ناحية الرجل ، لكن قوة غامضة ، غريبة ، رقت به الدرجات إلى داخل الجامع ..

في حضرة باقوت العرش

أحير أبو العباس العرسي
بحضرت باقوت العرش ، يوم ولد
ببلاد الحشة ، وصنع له عصيدة ،
أيام الصيف بالإسكندرية ..
فقال له :

— إن العصيدة لا تكون إلا في
أيام الشتاء ..
فقال :

— هذه عصيدة الحكيم باقوت ،
ولد ببلاد الحشة ، وسوف يأتيكم ..
فكان الأمر كما قال .
* * *

قال الديهاني : " سمي العرش
لأن فيه كان ينظر دائماً إلى
العرش ، وليس بالأرض إلا بدنه .
ومن كراماته أنه إذا كان قدم إليه
طعام ليأكله وفيه شجرة ، وجد عليه

طلعة مصوسة كالمسكة ، فيركه .
وكان يشع في الميوان والظور ..
...

دخل شريف على ياقوت العرش
بشباب رثة ، فوجده بشباب شابة ..
قال له الشريب :
— أنت بسا مقصب الشفانير ،
بامشوق اتحوالمر ، بهذا الحال ..
وأنا بهذا الحال ..
قال يا قوت العرش :
— لمشي نهجت نهج لبيتك
لمسيوي مبهم ، فسألونهم
مزلتهم ..
بكي للشريب ، واعتكر له .

حين ظهر لى سيدى ياقوت العرش ، اجتنبتلى للرعية ..
لم يكن خوفاً ، ولا يشبهه ، أعرف الكثير الكثير من كرامات سيدى
ومكاشفاته . حكايات أناح لى تنبتها ، وروايتها . جلوسى - ساعات طويلة -
خلال مايقرب من السنوات العشرين ، فى صحن جامع سيدى ياقوت
العرش . أرقب - وأجالس - الداخلين والخارجين والمصلين والذاكرين
والطائفين حول مقام صاحب الصريح ، رضى الله عنه ..
كنت أتلو آيات القرآن ، وأودن للصلاة . أفتح أبواب الجامع قبل
صلاة العجر ، وأغلقها بعد صلاة العشاء . سمعت وشاهدت ما لم يعاد
حاطرى ولا ذاكرتى . جلست إلى العابرين فى ترددهم على الجامع . كنمو
لأداء نذر ، أو لحلول موعد للصلاة وهم بالقرب منه . وجلست إلى دائمى

ردد على الجامع من مريدى أبو العباس المرسى ، عارفى فضل سيدى
أوت العرش فى حياته ، خادمه ، وروح ابنته ، وصليبه ، وتلميذه ، يلبدون
أركان الجامع ، وعلى سلام الأبواب ، ولصق الجدران ..
فولت ما استمعت إليه ، وشاهدته ، فى أوراق كثيرة . تمهيتها
صوية والترتيب ، والتتقيح ، والتأكد من المعلومة الصحيحة . أخذت
لصحاته من أهل الثقة ، وماشاهدته بنفسى . لم أترك لقلمى رواية ما لم
أكد من حدوته . ساعدنى على ذلك أن الروايات مأخوذة من أشخاص
يهود لهم بالعلم والأمانة . لا أترك التفاصيل ، مهما بدت صغيرة . ما
يقو نالها قد يبين توالى الأحداث عن أهميته ، والشخصية التى لا شأن لها ،
ربما - فى لحظة ما - تسفر عن ملامحها . تمنيت على الله أن يكرمنى
بالعلم والحفظ حتى لألقى كلمة مما قرأت أو شاهدت أو سمعت . حقق الله
لمنى ، فلم يسقط ذهنى أى شيء ..
...

الله - سبحانه - هو الذى يصطفى الأنبياء والرسل والأولياء والعلماء
والمصلحين . محمد هو آخر الأنبياء . الرسالة المحمدية هى معك الختام ،
والعلماء - كما تعلم - هم ورثة الأنبياء . ما قاله الرسول العظيم ، وقال به
علماء أمتى كالأبياء بنى إسرائيل . حين يجيد العالم السباحة فى بحر العلم ،
لله يصبح ولياً . يضعه علمه على مشارف الحقيقة . ثم يصبح فى قلبها .
توضح كراماته ومكاشفاته ومعجزاته وغوارله ..
التصريف بالمقدرة الإلهية لا يكون إلا نولسى . أولياء الله كالشمس
للدنيا ، والمافية للناس . الأولياء هم الذين آمنوا ، وكانوا يتقون . هم الذين
قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا ..

قال الرسول :
— إن من عباد الله عباداً يفيضهم الأنبياء والشهداء
يقول :

— من هم يارسول الله ؟

قال :

— هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال وأساب . وجوههم نور ، وهم على منابر من نور ، لا يهلكون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن للناس . ثم تلا قول الله تعالى : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ..

وقال سيدنا المرسي أبو العباس :

— معرفة الولي أصعب من معرفة الله عز وجل ، فإن الله تعالى معروف بكماله وجماله . وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك ، يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب ؟

وقال المرسي :

— الأدنى يشرف على الأعلى ، ولا يحيط به ، والأعلى يحيط بالأنسى .. فالأولياء لهم إشراف على مقامات الأنبياء ، وما لهم الإحاطة بمقاماتهم ، والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء ..

كان اليوم شديد الحرارة . وكان جماعة من أصحاب أبي العباس في ضيقه ، فقدّم لهم عصيدة ..

قال لهم :

— يا أبا العباس .. لا تأكلوا العصيدة إلا في أيام الشتاء ..

قال أبو العباس :

— هذه عصيدة ياقوت .. ولد اليوم ببلاد الحبشة ..

وظل ياقوت يباع ويشترى ، إلى أن جاء إلى أبي العباس . حسنوا عمره ، فأتكفوا من نبوة المظلم ..

هو محمد بن سعيد بن حماد بن محمد بن أبي سرور بن حبان عبد الله للعرش الشاذلي . يكنى بشرف الدين . من بنى حبنون ، أحد فروع قبيلة " صنهاجة " بالمغرب العربي . نسبته إلى قطب الأقطاب : سيدي أبو الحسن الشاذلي ..

اشترى التاجر رصسى الدرس إبراهيم الإسكندراني ، من أسواق الحبشة ، وحمله في مركبه — ضمن ما اشترى — ليبيعه في موطنه ببلاد المغرب .. لكن الماصفة فاجأتهم في قلب البحر ، وعلت الأمواج ، وهددت للمركب بالفرق . فدعا التاجر ربه قائلاً :

— يارب .. لنن نجيتي ، ونجيت تجارتي ، لأهن عيدي ياقوتاً لعبدك للصالح أبي العباس المرسي ..

وسكنت العاصفة — حالاً — وهذلت الريح ، واستوت المراكب في انطلاقها ، وأمن التاجر على تجارته . فلما وصل إلى الإسكندرية ، وأراد أن ينفذ ما اعتزمه ، فوجئ بأن البعد ياقوت أصيب بقروح في رأسه ، فاستحى أن يهب السلطان عبداً أقرع ، بعد أن نجاه الله — بفضل السلطان — من العرق . وذهب إلى سوق النحاسية ، واشترى غلاماً جميل الصورة ، وذهب به إلى أبو العباس ..

فاجأه المرسي بالقول :

— أهذا الذي نذرت يارصسى الدين ؟

ثم بلهجة يخالطها غصب :

— مالك وماله ؟ .. أتعرف منزلة هذا البعد من ربه ، ولقربه منه ؟

وذهب التاجر ، وعاد بياقوت . فاستقبله السلطان بالبشر ، وألبسه طاقية ، فشفاه الله ..

اتصل ياقوت للعرش بأستاذه أبي العباس ، وأخذ عنه ، وتأدب ، وقام على خدمته ، وصار من أخلص المقربين إليه ..

(٨٦)

أعلن حاكم الاسكندرية صتيقه ، فهو يمر على أبي العباس بين أصحابه . يقف الأصحاب احتراماً ، ويطلب المرسي في جلسته . زاد من ضيق الحاكم أن أبا العباس كان يقف إذا مر عليه أحد خدمه ..
قال الحاكم :

- كيف تقف لخدمك ولا تقف لي ؟

لم يرد أبو العباس ، وطلب الخادم ..

قال الأصحاب ، إنه يجمع فتات الخبز الذي خلفه الأكلون ! ..

قال أبو العباس :

- ليأت ، ومعه فتات الخبز في يده ..

وطلب أبو العباس من الخادم أن يفتح يده التي تقبض على فتات الخبز . فتحتها الخادم ، فهتف الحاكم في عجب :

- يا قوت !

وسمى الخادم يا قوت . ولزم مجلس السلطان لا يضارعه ، حتى مات ، فدفن في المسجد ..

سمى العرش ، لأن قلبه كال ثم يرل تحت العرش الإلهي ، وماقي هذه الدنيا إلا جسمه الفاني . أخذ عن شيخه المرسي في المعارف والعلوم . لازم فلم يفرقه . تعلم على يديه ، وتابع حركاته وسكناته ، ولاحظ كيف يأخذ أموره : متى ينصت ، ومتى يتكلم ، وقراءاته ، وأحاديثه ، وأفعاله . لجأ إليه فيما غمض عليه من أمور دينه ودنياه . ناقشه ، سألته ، أنزل له المرسي بالحوض في بحر الشك ، لا يضايقه إن جاوز حدود العقل ..

قال يا قوت العرش :

كنت بمدينة الاسكندرية . وكنت أتعب في مسجد بخارج العينة ، فبغت فيه مواسلاً ثلاثة أيام ، فأصابني الجوع ، فدخلت الاسكندرية قاصداً

(٨٧)

الشيخ أبو العباس ، فوجدت في طريقي درهما ، فأردت أن أشتري به خبزاً وإداماً ، فأريت في السوق زيبياً طيباً . وكنت أعلم أن أبا العباس يحبه ، لأنه من بلاد الأندلس . وهو كثير ببلاؤه . فاشتريت الزبيب ، وأثرتة على نفسي ، وقصدت إليه ، فوجدته جالساً في القلعة ، لأنه كان يسكنها بعد الشيخ أبو الحسن ، فوضعت الزبيب بين يديه ، وجلست ساعة . ولما هممت بالانصراف ، أمهلني الشيخ ، وقال لي :

- اجلس ! ..

فجلست . فإذا برجل يدخل علينا بمائدة ، عليها رقائق طيب وبعض

الطيور ..

فقال لي الشيخ :

- كل .. فهذا فتوحك لما أثرتني على نفسك وأنت جائع ..

قال :

فاكلت حتى امتلأ . ثم أمرني أن أوزع الباقي على الفقراء . وعدد

أيامى ، قال لي الشيخ :

- احمل الزبيب معك ، فنحن قوم لا تحل لنا القطة ..

حين أراد الناصر بن محمد بن قلاوون ، ابن ولى مصر آنذاك ، أن يحطب مهجة بنت سيدى المرسي أبو العباس لنفسه - وكانت بالغة الجمال - رفض أبو العباس ، واختار لها زوجاً ، عبده يا قوت ، بعد أن اعتقه ..

قضى سيدى يا قوت العرش معظم عمره في خدمة سيدى أبو العباس المرسي . تروح ابنته ، وإن لم يصبح حليفته . لا لعب فيه ، وإنما لأن خلفاء أبو العباس هم منات التلاميذ والمريدين الذين أخذوا على يديه .. تعلم الكثير الكثير من أحوال المرسي . اعتقاداته وحواطره وأسراره ومطالع ألواره ومكاشفاته ومشاهداته ومساوماته وأفعاله ..

(٨٨)

روى أنه كان في سوق للسك حارج الاسكندرية ، عندما أتى إليه فقير من عند أبو العباس ، ليشتري سمكة . تنقل معه ياقوت العرش بين الباعة ، فلم يجد سمكة واحدة ..
قال :

فاجتمعت جماعة من الصيادين ، وطلبت من رئيسهم أن يصيد لنا شيئاً ..
فقال لي :

— إن هذه الريح يتحذر فيها الصيد (وكان نصرانياً)
فقلت له :

— ادخل على بركة الله ، فإن للشيخ كرامة ..
فقال :

— ما يخالف الله العادة ..

فعرضت عليه أجره ، وأجر رجاله . فقبل ، ودخل البحر ، ومد شبكته ، وجرها إلى الساحل ، فإذا بها سمك كثير ، ما رأوا مثله من قبل ، فتعجب للحاضرون لذلك ، فرد رئيس الصيادين ، فقال :
— هذه بركة .. لأنحلن على بركة فلان الراهب ..
فدخل بالشبكة ، فلم يخرج فيها غير الوطايط . وهو نوع لا يؤكل ، ولا ينتفع به ..

قال : فرجعت بالسمك . وكان به سمكة كبيرة الحجم . وفي الطريق ، رآها يهودى ، وطلب شراءها ، فامتعت ، وأرسلت بالسمك كله إلى سيدى أبى العباس ، لما أن رأى السمكة حتى قال :

— ارفعوا هذه السمكة ، وردوها إلى ياقوت يعطيها لليهودى ، فإن له زوجة حاملاً ، انتهت السمك ، وليس اليوم من سمك ..

قال : فردت السمكة إلى اليهودى ، وأخبرته بقول الشيخ ، فأسلم هو وجماعة من اليهود ، وبعض صيادى السمك ، منهم صاحب الشبكة ..

(٨٩)

روى سيدى ياقوت العرش ، أن رجلاً قدم له طعاماً ، فرأى عليه ظلمة كالملك ..

قال ياقوت العرش في نفسه :

هذا حرام ! ..

وامتنع عن الأكل ..

ثم دخل على المرسى . وماكاد يطمئن إلى جلسته ، حتى ابتدره السلطان :

— ومن جهلة المريدين من يقدم له طعام ، فيرى عليه ظلمة ، فيقول :

هذا حرام ..

وأردف السلطان متصعباً :

— مسكين أنت .. ما ملأى وركك سوء ظنك في أخيك المسلم . هلاً

قلت لي : هذا طعام لم يرده الله به

عرف عنه ميله إلى صوم النهار وقيام الليل ، حتى في الأيام التي يرهقه الضعف لمرض ، أو ليند مجهود في العمل . وعرف عنه الاشتغال بالذكر والعبادة ، والعنى عن الناس ، والقناعة ، والرضا بالقليل من المأكول والملبس ، وهجر الشهوات ، والمجاهدة ، والورع ، وقلة النوم والكلام ، وعدم مبارحة المسجد إلا لضرورة ..

لم يعتمد إظهار الكرامات ، ولا حوارق الأحوال ، ولا إنشاء البراهين . وكان يخطب على حاله السكينة والوقار ، فهو بحسب الإنصات ، ويتحدث بقدر المعنى ، فلا يستطرد . يخشع في صفات الله : الكبرياء والعزة والقوة والتفرد والجلال والعلو والكرم والعلم المحيط بكل شيء . والتف حول مريدون وتلاميذ ، وللتنس الناس — حيث يقيم ، أو يزور ، أو يمشى — بركاته ودعواته . عرفوا عنه أنه من أهل المحبة الإلهية ، ومن أصحاب

(٩٠)

المكاشفات القلبية . وتخرج عليه العديد من المريدين ، في المجاهدة والخلوة . وظل له احترامه وتوقيره بين الطائفة الشاذلية ..

حقق خوارق ومعجزات وآيات لاحصر لها ، ولاستحيل أمامها . أصاب نور علمه جنبات الاسكندرية . اشتهر بمواجهته وأحواله . أنشأ بكراماته ومكاشفاته أبناء الطائفة الشاذلية ، في كل البلاد التي أقاموا بها ..

روى الناس عن قدرته . وقيلت عنه خوارق : كان يصيد السمك دون سارية ، أو شباك . يمد يده في الماء . تصعد بالماء والسمك . ينساب الماء من بين أصابعه ، ويبقى السمك . وكان يمد يده في الهواء ، يلتقط الطعام فيكفي المريدين من الفقراء ويزيد ، تنزل عليه الطيور الكاسرة بأجنحتها ، لا تفر منه ولا تهجمه ، يعرف كلامها وتعرف كلامه . وضايقته الشمس في زيارة له إلى صديق بصعراء المتراس ، فكوّن الطير صحابة ، ظللته في سوره ، حتى وصل إلى البيت الذي يقصده ..

كان يغمض عينيه . ينظر بخياله إلى قلبه . وقيل إن الله - سبحانه - صرّفه في جميع مملكته ، وأطلعه على الكثير من علوم العرب . لم يخلع إنتاجاً مكتوباً ، لكنه خلف شهرة واسعة بخلقه وصفاته ..

قول إنه كان يمتلك مسحة هائلة الحجم ، يتنظم في عقدها ألف حبة في حجم البوصة ، صمغت من حشب الصندل ، ذي الرائحة الزكية الفاخرة . وقيل إنه كان يقول على الرصاص ، فيستحيل ذهباً ، ويقول على الصفيح ، فيتمول ماساً ولحجاراً كريمة بإذن الله ..

كان جالساً في حلقة الفقراء ، فجاءته يمامة ، وجلست على كتفه ، وأسرت إليه شيئاً في أذنه ، فقال :

- باسم الله ، وارسلك معك أحداً من الفقراء ..

قالت اليمامة :

- مايكفني إلا أنت 1 ..

(٩١)

ركب سيدي ياقوت بغلة من الاسكندرية ، وسافر إلى جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ، وقال :

- اجعلوني على فلان المؤذن ..

وجاء المؤذن ، فقال له ياقوت العرش :

- هذه اليمامة أخبرتني في الاسكندرية أنك تدبح فراحها كلما تفرخ في العنارة ..

قال المؤذن :

- صلت .. قد ذبحتهم مراراً ..

قال ياقوت :

- لاتد !

قال المؤذن :

- تبت إلى الله تعالى ..

أنكر الشيخ شمس الدين بن اللبان على سيدي أحمد البدوي ، سلب البدوي علمه وحاله ..

توسل الشيخ شمس الدين بجميع الأولياء ، فلم يقبل البدوي شفاعتهم فيه ..

سار ياقوت العرش من الاسكندرية إلى طنطا . رجا البدوي أن يطيب خاطرهُ على شمس الدين ، وأن يرد عليه حاله . فأجابهُ البدوي ، حباً له ، واضطاماً لمكانته . زاد ياقوت ، فزوج ابنه اللبان ابنته . فلما أحس شمس الدين بدنو الأجل ، أوصى أن ينفي تحت رجلَي زوجته ، تقديرًا لمكانة أبيها ..

لما وصع مؤلف ' التنوير ' في إسقاط التنوير ' كتابه ، وضمنه علوماً ومعارف كثيرة ، اطلع عليه ياقوت العرش ، فقال له :

- جميع ملقت ، مجموع في بيتين ، هما :

ما تم إلا ما أراد فأتارك همومك وأطرح
وأترك شواغلك التي شغلت بها تسترح

.....
.....

للتأكد ، تلوث آية الكرسي ، وأسماء الله الصني ..

ظل الجسم النحيل في موضعه ، والشعاع الفاذ ، الهادئ ، ينبعث من
العينين الواسعتين ، المكحولتين . وكان يرتدى عباءة من الجوخ الأخضر ،
تحتها قطبان مزهر ، به خطوط خضراء ، ويحيط وسطه بحزام أحضر ،
وعلى رأسه عمامة هائلة ، ودس قدميه في بلغة مغربية ..

حنقني الحوف ، فتلحمت . رهبة الموقف أنصاعت للكلمات ، قرأت
- في لهوجة - العاتحة ، وقل أعوذ برب الناس ، وقل هو الله أحد . وقرأت
آية الكرسي ، وعدية يس ، لكنه ظل في وقفته ..

أخلى - سدى - وجهه لابتسامته رائقة ، طيبة ، وقال :

- من تظلمني يا جابر ؟

وأنا أغالب الرهبة :

- سيدى يا قوت العرش ..

وهو يخرقني في قبض ضيقه :

- تلاوة القرآن ، للتخوف أم للحب ؟ ..

جاهدت حتى لا يشي صوتي بما أعانيه :

- هو الحب يا مولاي ..

قال في ابتسامته الرائقة ، الطيبة :

- غفر الله لك ما أملاه عليك خوفك ! ..

ثم وهو يجرى بأصابعه على حبات المسبحة :

- ساكتك بما لا تقوى نفسى الضعيفة على احتماله ..

همست بالتهيب :

- وكيف أحتمل مالا تقوى عليه سيدى ؟ ..

روى لي عن اليوم الذي غادر فيه السلطان مرقدته . خاطب المترددين

على مقامه . عاب الأعمال الخاطئة ، ولتصف للآئذين بحضورته . ثم

أوتخت شدة العربال ..

قال وهو يضم أطراف عباءته :

- أنا خادم السلطان وتلميذه .. ومن واجبي أن أنفذ أوامره ..

قلت في لهفة خائفة :

- وأنا خانك يا سيدى .. ومن واجبي أن أنفذ لأوامرك ..

سبحت نظرائه في أفاق غير مرئية :

- لقد أدى كل منا ماعليه .. والدور قادم على الأنفوشي ..

انترعت السؤال :

- ماذا ؟ ..

أحنى رأسه ، ورفعها بالضياء :

- بل من .. ولى الله الأنفوشي ..

أحليت السبيل لجرائي :

- هل هناك ولى بهذا الاسم ؟ ..

في ابتسامته الطيبة :

- لأن أمور ديننا استعرتنا ، فقد أوكل إليه السلطان أمور ديننا الناس ،

لهو أدري بها ..

استطرد موصحاً :

- سيدى السلطان مشغولياته لاتمد في أمور الدين ، بما يصرفه عن

أمور الدنيا ..

ثم وهو يهز رأسه في تأثر :

- هذا حالى ، وأحوال أولياء الهى ..

ودس المسبحة في جيب العباءة :
 - اسم ولي الله الأنفوشي - كما تلمح- على معظم الحى ..
 وصيغ على الكلمات :
 - الجأ إلى ولي الله الأنفوشي !
 قلت في لهجة متذلة :
 - أنا لأصلح لهذه المهمة .. ورائى ثعبات بينى وأولادى ..
 قال سيدى ياقوت العرش :
 - هذا أمر سيدنا العرسى .. ولابد لك منه !
 رنوت إليه بنظرة مستفينة :
 - وأين أجد سيدى الأنفوشي ؟..
 كان قد احتفى ..

عاد المكان إلى مأثور هدونه ، وذوى الضوء الباهر الذى غشيبى ،
 وابن ظل يملأ قلبى . واستقر المقام فى وصمه ، كأنه لم يعادله أحد . ثمة
 للصحن ، والأعمدة ، والمنبر ، والحصير ، والسجاد ، والعقود المحملة
 بالجوهر والخصائص واليهيات والزخارف الجصية ، والمبحرة يتصوع
 منها بغور اللبان والجلاوى والمستكة ، والأضواء الخافتة ..
 عرفت أن سيدى أبلغنى الرسالة ، ومضى . مشغولاته - وأولياء الله
 الصالحين - لا تحد فى أمور الدين ، بما يصرفهم - غصباً - عن أمور
 الدنيا ..

ولمحت السؤال ، فى اللحظة التالية : أين سيدى الأنفوشي ؟..
 أقول هذا ، وأختمه ، بالحمد لله رب العالمين ، وأستعير الله العظيم .
 وسبحان من يبدء الأمور ، ومصائر البشر . يحى ويميت ، ويمز ويذل ،
 وهو على كل شيء قدير .

الزفاف

دخل حمام الأنفوشي ، للمرة الأولى منذ زواجه . توقع الأيماءات
 بت والمعايرة . حشد نفسه ، وقرر الإجابة بما يودى . فاجأه ترحيب
 وكلماتهم للمعجبة . لم يتحدثوا عنها باسمها . هى الست والبيت
 الجماعة . حتى محمود الحوالة ، لم يحاول فضح سيرتها ، ولا مجرد بكر
 . الباب المفتوح أغلقه رواجها من سيد ، لم يسألها عن أهلها ،
 لأحاول أن يتعرب إلى ماضيها . هى التى روت له عن أمها وأبيها
 هونها وأقرية سحالي القرية من دمنهور . أهداهما صابر الشبلنجى هدية ،
 سلطانها نه أمه من رشيد . فسيخ وسردين وليمون وبلح زعلول . ضوع صم
 ب داخل الحمام - للتبرك - بخور المستكة ، ورفض تقاضى المقابل
 صابونة لم يسبق استعمالها . وحلق سيد شعر رأسه ، وإن ظلت
 الفصلة على تهنئتها ، وأتم أطافره ، ونف تحت الإبطين ، وأزال العانة ..

هتف فواد أبو شنب للنيا :
 - هل خلت الدنيا من النساء ١٢
 قال سيد فى هدوء :
 - أنسية لأحببها شيء ..
 تحسن أبو شنب طرف شاربه ، وغمز بعينه :
 - لكنها مومس !!
 داحل صوته تهدج :

— لاداعي للغلط باريس .. ألننت مستصبح زوجتى ..

أطلق ضحكة من أنفه :

— بنت ١٩ ..

وعلا صوته :

— ماذا تقول يا مغفل ١٩ .. إنها عشيقة كل رجال بحرى ١

أفذه سيد بمقص ، وتبها للعراك ..

قال له قاسم الحريانى :

— كان اسمك سيد العران .. فماذا أسميك الآن ؟

قال سيد :

— قل لى ياسيد كما كنت تدعونى ..

قال حمودة هلول :

— ألتسمعه سيد الكشك . هذه هى التسمية الأنسب ١

قال خميس شعبان :

— هو سيد العران .. الحجازون أصل الاسكندرية ١

فاجأ حمادة بك بحصور عقد العران . تبعه فؤاد أبو شندب هشام

حمادة بك ، وأعطاه نقوداً ، ووقع شاهداً على العقد . وقع أبو شندب —

بالحرج — شاهداً ثانياً ..

لما مد سيدى ياقوت العرش يده من داخل المغام ، وأخذ العهد عليها ،

ونصحبها بالذهاب إلى كمال مصباح تاجر الميفاتورة بشوارع الميدان ،

هممت بالقول :

— حمادة بك أهمل طلب سيدى السلطان .. لماذا لم يعاقبه ٢ ..

قال سيد :

— ألم يتركك الرجل فى البيت المهجور .. فهل يطالبه السلطان ببنت

جديد تتزوجين فيه ١٩ ..

ثم وهو يختصب ابتسامة :

— فكشف على كل مامسى ماجوراً ، ونفساه ..

حين أعد نفسه لترك قهوة كشك إلى بيت البلقطرية ، أشفق رواد ليل

القهوة من أن تتم الدحلة بلا فرح . أذن للمعلم كشك ، فسهروا ، ورقصوا ،

وغنوا . يومى جلال يقذف بالطبلة إلى أعلى ، ويتلقفها . صابر الشبلنجى

يساعد بالقر على الطائفة . مصطفى حجازى يعنى ، وهم يرددون :

ياللى على الترة حود ع المالح

مالح يالمالح يابو الموالح

شعرى بيوجى ..

من إيه ؟ ..

من مسك امبارح ..

ياللى ع الترة حود ع المالح

مالح يالمالح يابو الموالح

رجلى بتوجى ..

من إيه ؟ ..

من مشى امبارح ..

ياللى على الترة حود ع المالح

بقى بيوجى ..

من إيه ؟ ..

من بوس امبارح ..

ياللى على الترة حود ع المالح

شارك المعلم كشك بدعابات ، وأوصى سيد نانسى ، فإطهرت ثأرها

وامتنانها . وفاجأ هشام كشك الجميع بحصوره . فى يده هدية مقلعة

للعرويين . زجر صابر الشبلنجى لما حاول فتحها . قال :

— كنت أسبق الكل إلى معرفة زواج سيد وأنسوية ..

أضلاف لنظرات الادهشة المتسائلة :

(٩٨)

- رأيتهما يتترهان على الكورنيش ..
دارت أنسية وجهها براحتها ..

تحدد سيرهما على الكورنيش ، وفي حدائق الشلالات . ألفت الأتشار
والتحول وسخن دائسي التريد وهدير الأمواج المتراشي من ناحية البحر
وانحدار المياه من مرتفع عال إلى مجرى منخفض . وألفت وايور المياه
ومدرسة محمد علي الصناعية والمستشفى الأميرى والاستاد والنادي
الأولمبي ..

رفت ابتسامة على شفتي هشام :

- عرفت يومها أن سيد الملح فى الصيد ..

فلجأ حمادة بك « هشام » بالسؤال :

- هل أنت مقيد فى جداول الانتخاب ؟؟

ارتعشت رموش هشام بالارتباك :

- لا أعرف !..

قال حمادة بك :

- كيف ؟؟ ألم تقيد اسمك ؟؟

قال المعلم كشك :

- هشام لم يبلغ العشرين ..

قال حمادة بك :

- من حقه التقيد فى جداول الانتخاب ..

أردف بلهجة أمرة :

- يهمنى هشام والشبان من أصدقائه وزملائه ..

تظاهر سيد بالإهتمامات للتصائح قاسم الغريالى ، وكتم السؤال : هل

غابت عنه علاقته القديمة بالسية ؟ ..

فاجأ نفسه حين فاجأها بالسؤال :

- هل أحببت أحداً من قبل ؟؟

(٩٩)

إذا كان ما تشعر به نحو سيد هو الحب ، فإنها أحببت سيد . كان يشغل
بالها ، وصورته دائماً أمام عينيها . يضايقها غيابه ، وتفرح لقدمه . تشفق
للخجل الذى يملكه وهو يجنى رأسه إلى أسفل ، وهو يزبح حصلة الشعر
من جبهته ، وهو يضبط على شفته السفلى بسننثيه الأسننيتين . تسترجع -
لى جلوسها مع نفسها - تصرفاته ، وقفاته ومسكياته وكلماته . حتى
الملاحظات التى يؤكد بها قنولته ، لم تعد تضايقها ..

وهى تخفض رأسها :

- أنا أحبك ..

- قبلى .. وغير ..

لجأ إلى يديه ، يحاول للتوضيح . ثم سكت ..

لحمرت لذنابها :

- أنا لم أعرف هذا الأمر ..

ودع استنفاذه قرب العجر إلى حائطور ، قاده صابر الشيلنجى إلى

بيت سيدى داوود ..

كانت أنسية تنتظر ..

صعدت وراء الكبود ، وانتقل سيد جوارها ، ومضى الحائطور إلى

البقراطية ..

قال صابر :

- لو أن الظروف مساعدتى .. كنت ربيت الحائطور بالشيلان

الكشميرى والورود ..

سارت وراء جهازها من المطارين إلى البقراطية ..

نقل صابر الجهاز على عربة كازو من الإسطنبول . سرير وبوربه

وصندوق وترايزة وسنة كراسى ومرتبى ولحاف ومخدتان ومراة فى إبلار

ووابور بريموس ومطبخية وأربع حلال وأبريق وملشت وسنة لطباق وطبيلة

(١٠٠)

وسنة أكواب للشاي . لم تهمل حتى كرسي الحمام وصفيحة الماء والكور والقفاب . وأدهاها التاجر كمال مصباح ثلاث قوط ..

حلمت بحفل كالأدى أقامه الحاج قنديل لابنته ، أو الذى أقامه المعلم عباس الخوالقة لمهجة : لولة العنة وثوب الزفاف والصهبة واللزغاريذ وبذرة الملح والعوالم والتقوط والأصدة الحشبية والرايات العمراء دات الهلال واللمبات الكهربائية الملونة ..

البيت من ثلاثة طوابق . أسقفه خشبية ، وجدرانه مأكلة ، وإن بدا سكانه فى حالهم : فلا زعيق ولا نداءات ، والتوافذ موزية ، أو مفلقة . الشقة فى الطابق الأرضى ، إلى يسار السلم ، تطل على الشارع من ناحية عالية ، ذات صلتين ..

أصر أن يحملها بين ذراعيه ، ويتخطى بها عتبة الشقة ..

— ماذا يقول صاحبك .. والجيران ؟ ..

اهتز جسمه بالانفعال :

— طلف فى الكل .. أنت الآن زوجتى بالورقة والقلم ! ..

لم تطل تأمل معنى المجازة . قالت :

— هذا تصرف العرمان للتغلب على سحر بوضع فى عتبة الباب ..

وتنهدت :

— من يفكر فى السحر لنا ؟ ..

احتواها بعينه :

— أنت سحرتنى .. وسأحملك لأقصى على سحرى ! ..

شغله السؤال ، وإن كلمه ، حتى طردت نسبة القلق من نفسه :

— أصحابك طبيون ..

ثم وهى تضغط على الكلمات :

— هذه أول مرة أراهم ..

قال فى صوته المتهازل :

(١٠١)

— إنهم زملاء القهوة ..

استطرد متذكراً :

— صابر الشيلنجى وحده يعمل فى استيبل السيالة ..

قالت :

— لم آخذ بأى منه ..

وهزت رأسها :

— أرى أنهم جميعا طبيون .

قال الجد السخاوى :

- أنت تمانى نزلة برد .. أو أن أسنانك تتطلب حشواً ..

قال شحاتة سليط :

- اللؤلؤة التى أثبتت عليها .. ذهب لمعانها ..

صرخ الجد السخاوى :

- عبي ! .. دائماً نؤكد نارك فى الشاحية البحرية ..

ثم وهو يعيد إليه اللؤلؤة :

- اللؤلؤة يسمل بالماء فقط ، ثم يلمع بقطعة جلد ناعمة ..

بحلقت عيناها :

- تقصد أنى أتلفت اللؤلؤة ..

- طبعاً ..

قال شحاتة سليط :

- وهذه ؟ ..

وأخرج من جيب السبلة لؤلؤة فى حجم الببضة الصغيرة ..

أربها الجد السخاوى من عينيه :

- ينقصها الاستدارة ، وعينية بالبقع اللونية والحفر ..

- لكنها عالية الشعافية ..

أعادها الجد السخاوى إلى الطاولة :

- اللؤلؤة الجيدة شفافيته قليلة ..

قال شحاتة سليط فى أسف :

- هل أعيدها إلى البحر ؟ ..

قال الجد السخاوى :

- بل اطلب فيها سعراً مناسباً ..

ارتفع حاجبا عم محجوب بالدهشة :

- تطالب سبعة فى عز الصيف ١٩

النبوة

سحب الجد السخاوى كرسيه ، وجلس فى مواجهة الشمس . كان يتحرك بكرسيه مع أشعة الشمس ، لا يتركه إلا بعد أن تمتد الظلال ..

أخرج من جيب الصدرى علبة سجائر . سحب منها سيجارتين ، قدم واحدة إلى شحاتة سليط ، ووضع الأخرى بين شفتيه . حك عود الكبريت فى القداحة ، ودأب عليه حتى أشعل سيجارة شحاتة سليط ، ثم أشعل سيجارته ، ونفص المتبقي من عود الكبريت حتى انطفأ ، ثم طوح به ..

قال محيى قبطان :

- للشمس حامية ..

قال فى تهوين وثقة :

- إنها تشعل الدورة الدموية ، وتغذى الأعصاب ، وتحبب الأنسجة ..

استطرد وهو يهز أصبعه :

- شريطة أن تتجنب حرارتها الزائدة ..

ثم وهو يعتدل فى مواجهة محيى قبطان :

- الشمس تؤكد فى أمراض الكبد والضغط المرتفع والقلب وتصلب

الشرايين .. ولعشى حافياً على الرمال المساحنة ، علاج للأعصاب والصداق ..

شكا شحاتة سليط إلى الجد السخاوى من آلام فى الرأس ، بعد أن

غاص إلى عمق أربعة أمتار ..

(١٠٤)

قال محبى قبطان :

— أصر الحوالة وقنديل وكل المعلمين على لى تدفع ما لقرصناه فى الشتاء
هر عم محبوب رأسه :
— هذا حقهم .. ادفعوا مبلغاً من السلفة فى كل طلعة ..
قال محبى قبطان :

— إيهم يأخذون الإيراد بعد كل رحلة .. يريدون الكراسة بيضاء ، دون
أن يشعلهم تأثير ذلك على بيوتنا ..
اتجه الجد السخاوى إلى حميس شعبان بنظرة مشفقة :
— لاتحزن ياحميس .. قلو أنك فتشت وراء هؤلاء الحجر ، فستجد فى
بيت كل منهم فضيحة !

روى ماحدث لقاسم العريانى ، وطالبه بألا يفشيهِ .. لكن العريانى
فلجأه — وفاجأ الجالسين — بإعادة الحكى ، أصاب ألواناً وظلالاً وتفاصيلات
اشتكى للحاج محمد صبرة من سرعة القذف . هل هى الشيوخوة ؟ . طمأنه
الحاج محمد . أعد له دهاناً يستعمله قبل النوم . تتابعتم المرأة ، فأسرع إلى
التحمام طال تعود المرأة . دعاها إلى النوم . اعتذرت بانشغالها فى رفو
ملابس الأولاد . لزم مكانه ، يعانى فلا يستطيع التكميم . يتكلم ، ويتنقل ،
ويحاول المدراة . طلب من المرأة شيئاً . دخلت المطبخ ، فارتفع صوته ،
يطلب الشاى فى حجرة النوم ..

قال حمودة هلول :

— ماأبدع العادة السرية لشيوخ فى الستين !

قال محبى قبطان :

— هل أذاك علاج الحاج محمد ؟

قال حميس شعبان :

— لست مريضاً لأعالج ..

قال محبى قبطان :

(١٠٥)

— لماذا الدهان إيس ؟

قال العريانى :

— هددته المرأة ، فحشى الفضيحة !

وشى صوت إسماعيل سعان بالصيق :

— وطوا أصواتكم !

تخمرت طباعه منذ موت وحيدة البهاء . دخل الغميق فى الأفوشى ،
فغرق ، اجتنبته الأمواج . غابت جسمه وصرحاته . ظهرت الجثة تحت
قلعة قابضى . دفعتها الأمواج أسفل الكتلة الحرسانية ، منتفخة ، مشوهة ،
بهش فيها السمك . يعانى — من يومها — مطاردة الصوصاء . صوصاء
هائلة ، عيفة . زعيق وصراخ وشنائم . أسوأها الميكروفونات التى لايسدى
مصدرها . تحاصره فى كل مكان : فى الطريق ، فى بئر السلم ، فى حجرة
النوم ، فى دورة المياه . ينتفض لها ، يتألم ، يتكور على نفسه . يصمر على
أسائه ، فلا يتعالى الآنون ..

هؤلاء الذين لايعرفهم ، يتأمررون عليه ، يحاصرونه ، يحقونوه
بصرلهم وزعيقهم وصخبهم الذى لايتبى ..
نذر للمرسى أبو العباس إن رزق بولد ، بعد عقم خمسة عشر عاماً .
للف التردد على مقام السلطان بعد أن حقق له الممد . يقرأ القاتحة ، ويوزع
العول الدابت ، وشطائر اللحم ..

لما ابتلع الهدم زوجته بسقوط البيت ، ترك الفدائين الستة فى عهدة
شقيقه الأصغر . وسافر إلى الإسكندرية ، لوجيا بالقرب من أولياء الله ..

احتطف البحر وحيدة البهاء ، فزاد الناس بمصاب المؤمنين ..

أكد محمد على الراكشى أنه رأى عروس البحر تحنط للصعبور
لتجعله بياً لها فى مدائن الأعماق . كان محمد يسبح بالقرب منه . وكانوا
يعبثان ، ويصحكان ، ويصرخان فى بشوة ، عندما أتت العوجة ، فأبعدت
بيدهما . غطس البهاء ، وقب ، وغطس ، وقب ، وصرخ ، واستناعت بيديه .

احتضنته من داخل الموجة يد امرأة ، تيقن محمد أنها عروس البحر . أطلق
للنساء ثلاث صرخات ، وصغيب الموج من حوله . ثم اتسعت الدوائر
الصغيرة ، حتى احتكت . وهذا الموح ، وحل الصمت . كأن الموج علا لينتلع
الولد ، لتتخذ يد عروس البحر من داخله فتأخذه إلى نيبا الأعماق .
هل هي عروس البحر كما قال محمد الراكشي ؟ احتطفت الولد كما
احتطفت سواه من قبل . أو أن ساعديه حلاه ؟ أو دفعه ولد من أصدقائه ؟
أو أن الأقدار بينته بما لم يقو على رده ؟.

قيل إن لرجل عدل عما اعترمه من أمر خطير حين طهر له السلطان
في المقام ، وأخبره أن الله أهد الولد ليمتص صدره ، ونشر الصابرين ..
حل على الرجل - من يومها - هدوء وسكينة . يقضي يومه في التقل
بين أصرحة الأولياء ، والجلوس على فهوة الرردوني - يحضن الحرسون
ياقوت صوت الراديو صد اقترابه من القهوة . يتوقع صيقه من ارتفاع
للصوت - وللحو إلى المصصف ودلائل الحيرات ، في شقته الصغيرة
- حجرة واحدة وصالة - المظلة على شارع سيدى كطمان . وكل يحب
الشمس لمسافات طويلة ، وتناول الشاي بكثرة ، وسماح تلاوة الشيخ محمد
رفعت ، والجلوس على سور الكوريش ، يتأمل ما لا يراه أحد . حتى
طروفت غرق الشفاء لم يعد يشير إليها ، ولا إلى حربه على الولد ، وإلى تيقظ
في دحلته قلق لأصوات المرتكعة تصاعدت ، وتلاحقت ، حتى حصرته
تماماً . وكل يشغله السؤال : لماذا تلعو أصوات العصابير في الصباح
الساكر ، وعند الغروب ؟ لماذا تصحب في هذه الأوقات بصورة لائقة ؟ ..
وصنمه مؤلف أبو العباس - في اقتراحه من ميدان المصادم - بتضخم
الأصوات ، فعاد إلى السئلة ..

كان يجلس على سور الكوريش ، أو على هيكل فلوكة قديمة . يتطلع
إلى الأفق ، كمن يتوقع شيئاً ، لا يتكلم عن ترقب عودة الولد ، ولا ما إذ كان
مات ميتة ربه ، لم أن عروس البحر احتطفته بالقفل . إذا سمع تحية ، رد

دهزة من رأسه ، وعيابه تتجهان إلى الأفق . يسلم نفسه لشروود حزين .
وينصرف تماماً عن كل ماحوله ..

همس محيي قبطان :

- الرجل معذور فالولد وحيد ..

قال عباس الحوالة :

- من كان يتصور أن يترك عبد الرحمن الصاوى الإسكندرية ليقوم في

القاهرة مع أبنائه ؟ ..

تعددت زيارات سلامة في الأشهر الأخيرة . ينس من إقباعه بالذهاب
إلى القاهرة ، فانقطعت زيارته . ترند بالنيحوحة والقرف وتوالى الأيام ،
وعدم رغبته في فتح جراح جديدة ، في الذهاب إلى القاهرة . تركه الكريم
فرصة إنهاء كل شيء ، ثم فلجأ الجميع باعتزاه تصفية عمله ، والمسر إلى
القاهرة ..

ملأ السلطان حجرة يومه . لاحظ خوفه ، فقال في صوته الهادئ :

- بما أتيت للصيحة ..

ثم وهو يهز أصبعه :

- لا ينبغي أن يرضى المرء نصه .. عليه أن يرضى الآخرين ..

ثم وهو يدوب في الجدار :

- جريمتك قديمة ، وتصبر على الفرار منها !

تبادعت أوقات جلسة العصر . توالى العيابه والاعتذرات . ووجد

الحاج محمد صبراً نفسه - ذات أصيل - بلا جلس يحادثه ..

قال ياقوت وهو ينثر نشارة الحشب في أرضية القهوة :

- أهلاً بالطفل الصغير !

كان قد نسي للصفة . لم يعد أحد يناديه بها . عاش أياماً من الاهتمام
والإكثار . في القهوة ، وفي الحلقة ، وفي المدرسة . حتى نظرت أبيه ،
كان يفجوها وهي تتسلل ناحيته بالإعجاب الصامت . أم محمود - وحدها -

اعتبرت ماحدث مصيبة ، ودعت على الملك والحكومة ، وعلى مصطفى
لأنه كاد يحرق قلبها ..
نسبت إليه أفعال كثيرة ..

قيل إنه أشعل النار في سيارة بوليس ، فاضطر من بداخلها إلى
الفرار . وقيل إنه تصدى لصابط أراد أن يضرب بنتاً ، لم يتركه حتى أعلس
أنه امرأة . وقيل إنه أعاد القنابل المسيلة للدموع ، فأذت العساكر ،
واضطرتهم للفرار ..

ثم نسوا ماحدث ، وانشغلوا بشئونهم ..

شارك - بالإنصات - في أحداث عن الإضرابات والمظاهرات التي
لم تشهدها الإسكندرية من قبل . انصم إليها صباط بوليس وكونستبلات
وصولات وجنود . كانوا يواجهون مظاهرات الطلبة والعصا .. من
يواجههم ؟ .. حتى الصباط تبيل قرة مأمور نقطة الأنفوشي ، تعيب مند
يؤمن عن مكتبه ، وإن أكد عبد الوهاب مرروق إن الجيش سيبرل إلى
للتوارع غداً لفرض النظام ..

قال الغرياني :

- إذا جاء للخير .. لميجنى ثماره الجميع !

قال الجد السخاوي :

- ماذا جرى لبلاد ؟ .. الإضرابات والمظاهرات تتوالى .. حتى صباط
البوليس شاركوا في الاضرابات ..

قال الغرياني :

- ما يعنيننا إلا أن يضرب السمك عن الدخول في الشباك !

المجاهدة

لعل أبو الحسن للشاذلي :

* من أذاب مجالمة الصديقين ، أن
تفارق مستطعم ، تنطفئ بالسر
المكون ..

* إنما هما كرامتان جامعتان

محيطتان كرامة الإيمان بمزيد
الإيمان وشهود الحيان . وكرامة
المعل على الاندناء والمناصرة ،
ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن
أعطيا ؟ * ..

* وكل كرامة لا يصحبها

الرضا عن الله ، ومن الله ،
فصاحبها مستترج مفسور ، أو
نقص أو هلك أو مشور ..

سبقه جابر برغوث إلى المحزن الصغير الملاصق لحجرة الإمام .
اطمأن إلى جلستهما بين السجابد والحصبير والمقشبات وأسلاك الكهرباء
وزيوت الإضاءة والشموع والبخور والصدائيق والكتب القديمة .

مال الراكشي إلى جابر برغوث . استهوته صحبته . أنصت إلى آرائه
، وتأمّلها . استولى على قلبه بالمحبة . شعر أنه يحلم من علوم الدين
والنصوف أكثر مما يعلمه الشيخ يوسف بدوى . هو الآن أرقى حالاً من
الشيخ الذى كان يتعلم منه . وشعر بالروحانية فى نفسه ، والربانية فى
روحه ..

قال على الراكشي :

.. الشيخ أمين عزب زعلان منى ..

.. لعاداً ؟ ..

.. يتصور أنى أمشى فى طريق الشيخ حماد ..

عليه التأثير حين طارده الأولاد فى شارع اسماعيل صبرى ، فلابد
بمجيئة عم سعد . احتياً وراء الكشك الصفيح المغطى على سبدي على
تمرلز ، حتى طرد عم سعد الأولاد ..

قال جابر برغوث :

.. وهل تفعل ذلك ؟ ..

التمعت عيناه بحيرة :

.. أنا لا أعرف للشيخ حماد ؟ ..

واعتل فى جلسته :

.. يقولون إنه رجل صالح ..

أمن جابر برغوث بهرة من رأسه :

.. هذا صحيح .. وأنت رجل صالح .. سر فى طريقك ولا تلق بالآ

لأحد ..

تشاغل على الراكشي بتأمل القبة الضخمة .. من أفراجة الباب ..
توسط صحن الجامع ، تحيط بها بوائق زجاجية يتداح منها الضوء إلى
الداخل ، ويشكل تكوينات وظلالاً على الأرض والجدران ..

هذا هو المكان الوحيد الذى يجلس فيه إلى من تلقى حبه فى قلبه ،
يحاوره ، يأخذ ويعطى ، يسأل ويجيب . يدرك فى مجلس جابر برغوث
معنى القول لى الصوفى لايتص إلا بين إخوان . هذا الرجل أخوه . هو
الأقرب إليه لأنه يفهمه ، لايضيقه ولايرججه ولايشور عليه . ديباه القرآن
وللدعوات والابتهالات والأذان والمحور والخدمة فى الجامع . يتقن من أثار
ربه فى قلبه ، فاعتزل الناس ، وارم الجامع لإفراقه إلا لضرورة ..

فاض المكان بالصمت ، صمت سادر ، جيش بالصفاء والسكينة ..

.. ما أحار الشيخ يوسف بدوى ؟ ..

أحنى رأسه -

.. لم أعد مريداً ..

ثم بصوت ممتلى :

.. كل مايلمه .. أعلمه ..

كثرت طاعاته ، وكثر إخلاصه . أخذ بالحقائق ، واليأس مما فى يدي
الناس . رآهم من حوله يعين النقص . انقطع إلى الله من البشر . ولى
وجهه نحوه فلم يتحول عنه . صار معه بلا علاقة . صفى نفسه من كل
ماهو فاس ، متناه ، محدود . فنى عن أفات الدنيا ، فلم يرجع إليها . ثم بعد
يشغل بميز الذات الإلهية ، فتحققت - فى داخله - الولاية . سلك فى مدارج
العارفين إلى حيث بلغ مرتبة العرفان ، وانكشف له الحجب ، وشهد من علم
الله ما لا يشهده غيره . عرف السر وأحصى . بحرر يعوص إلى حيث
لا أعماق ، وتمتد أفاله إلى حيث لا نهاية ، وثمة أصوات حفية تنبعث من
داخله ، تدعوه إلى السمو والارتقاء فوق الحجة والرغبات ، والتعطيل فى
أفاق التطوير بلا أمتعة ..

عظمت الأحوال ، وعلت المقامات : تفتح أبواب السماء ، وتسقط الأنوار ، وتبين الملائكة عن صورها ، وتتألق مشاهد الجنة بدورها وقصورها وجورها ولهاؤها وأشجارها وثمارها ومبارك الأنبياء والأولياء والشهداء والصديقين . يسير في الملكوت ، ويمضي في الطريق إلى العلية القريبة : ينكشف له الأمر ، ويتعرف إلى الأحوال الربيعية ، ونجنيات الدنات والصعفات . يتحفظ من الأحمال السيئة ، ويرقى في مقامات النور . يضي في كون اللاهوت ، ويبهل من التوحيد والحقائق ، ويعبض على صدره النور ، ويتصرف في الأطوار القلبية ، وتتوالى فيوض التجلي ، لا يتخلها ستر ولا انقطاع ..

— قَوِّ لَهِ إِيْمَانُكَ ..

بدا عليه التردد ..

قال الراكشي :

— هل هناك ما تريد أن نكلمني فيه ؟ ..

وهو يعمض عيونه :

— لا تشغل بالك ..

اتجه إليه بنظرة اهتمام :

— نحن أصدقاء ..

ربت ركبته بأصابعه :

— نعم الصديق أنت .. وأنت كذلك شيخ مبارك ..

ثم بصوت هامس :

— الحكاية يأخى على أن سيدي ياقوت العرش ..

داخل التهذع صوته ، واحتطبت للصور ، وتشابكت ، وشجبت ، وتشكلت تكوينات ، وغاب الزمان والمكان ، وتواصلت لحظات السكينة والصفاء ، واندلجت حزم النصوص من السائدة العلوية : وحلفت في صحن الجامع عصافير وحمائم ، ونصوع المكان بحور لم يشم أريجها من قبل ،

وسرت تلاوات من القرآن وقصائد صوفية وموسيقا جميلة ، وأصوات تمنح بلعات كثيرة ، متداخلة ، وتناغمت التكبيرات والأدكار والابتهاالات ، وارتفع الأذان في غير موعد ، واهتزت البيارق ، ورفرفت البسود والأعلام الحصر ، وتطوح الذاكرين في طاقات النور ، وانفتح باب الحوارق عن فيوض لا نهاية لها ، وتلاحق مد البحر وجرره ، في إيقاع معجم ، وتعالى هسيس الخيل على شاطئ الكوريش ، واستطال المحيط الأحصر ، فلا يحده أفق ..

قال الراكشي :

— ولكن من هو سيدنا الأنفوشي ؟ ..

التمعت عيانه بحيرة :

— احشني سيدي ياقوت العرش دون أن أعرف من هو ولا مكانه ..

قال الراكشي :

— وكيف ستتصرف ؟ ..

وعلا صوته فجأة :

— أقم مولدا للإمام الأنفوشي ..

— من ؟ ..

أعاد قوله :

— أقم مولدا للإمام الأنفوشي

وهو يعاتب حيرته .

— لنا لا أعرف من هو .. مصي سيدي ياقوت العرش .. غاب عن

المكان فلم أعرف إلا أن سيدي الأنفوشي أحد تلاميذه ..

اطمأن إلى أن سيدي الأنفوشي ليس في مرتبة الأقطاب . لا يرقى إلى مرتبة الشادلي وأبو العباس وياقوت العرش والبوصيري والأقطاب الصالحين ، لم يعد لديهم الوقت الذي يتفوقه في أمور الحياة الدنيا . الحياة الأحرسة شاعلهم . فوصوا أمر الناس ومشكلاتهم الدنيوية إلى سيدي

الأفوشي . ولى له كراماته ، ولى لم يحقق من المكاشفات ما يجعل له مكانة الأقطاب . هو المريد والتابع والتلميذ الذى ينفذ الأوامر ..

لم يكن قد التقى بسيدى الأفوشي ، ولا ظهر له فى صحو أو منام ، لكن طيف سيدى بالقوت العرش ظل ماثلاً أمامه ، ولى غابت عنه رؤيته منذ ظهر له فى صحن الجامع . يشعر أنه يصتره ويدفعه إلى المواصلة . لولا هذا الشعور الذى تملكه ، ما استطاع أن يظل على أمله فى أن يلتقى بسيدى الأفوشي ، يراه ، ويصحب إلى مصانحه وتعاليمه ..

عرف أن عليه أن يجاهد نفسه وأهواءه وميوله ، حتى يرصى عنه أولياء الله الصالحون . مشوار الركاشى طويل ، لا يقاس به قراءاته القليلة ، وإبصاته المتعجل لحطب الجمعة ودروس المعرب ، والأحاديث التى تدور فى الجامع . لكن الركاشى من الطاعات والإخلاص ، صلح مرتبة من الورع لا يبلغها سوى العارفين الواصلين ، المتبتلين كلبية عن مشاغل الدنيا وهمومها ، فهم قد تنهوا واشتغلوا بالله وحده . اقترب الركاشى من الحصرة الإلهية . حصلت الولاية ، وبلغ مرتبة العرفان . انكشفت له الحجب ، وشهد من علم الله ما لا يشهد سواه . ظل هو مريداً يرعب فى القربى ..

تبدلت — من زمن — صورة علاقتهما . بصحت ، فتفيض الأحوال والروى . اعتبر من تشریف الركاشى له ، عندما افتتح بالذهاب معه إلى حمام الأفوشي ، وترك له جسمه . يال بركة تصميمه يديده . لو أنه أعلن الولاية ، ما تردد فى أخذ الطريق عليه . عاش بالأمل ، وتمنى وصول النفس إلى القرب والحب والإخلاص ، والانتساب بوز الرحمة الإلهية . اجتهد فى قطع الأمل . مال إلى العزلة ، واستعد للرحلة . أولياء الحق نجوم الهدى ، يصيرون له طريقه . أزال صدا القلب دواحم الحلو والصوم والظهارة وبقى الحافظ والربط . شقت النسيصة ، وضطت مداركها إلى مصادر استقلال هيوصلت للنور الإلهي ، وما تزلزله الملائكة من العيب بالهداية والنور ..

قال جابر برغوث فى تنبه :

— أسأل نفسي الآن : هل يجب أن أتوقف عن عمل الأحبة وفك السحر ؟ ..

قال الركاشى :

— لماذا ؟ أنت لاتؤذى أحداً ..

صيفه ماتقلبه الناس من أنه قد حاوى حنية ، تتيج له معرفة العيب ، وقراءة الطالع وشفاء الأمراض ، وإجراح الجرح من العين والأنف وأصبع القدم ..

اكتفى — فى الفترة الأخيرة — بترديد ما يحفظه من كتب السحر : آيات القرآن والأحاديث النبوية والرقى والتعاويذ ، لا يجاورها إلى استخدام أحشاء الطيور ، أو أقدامها ، ولا الكتابة المؤدية ..

عندما طلبت منه هبة روجة حميس شعرا أن يصنع لها عملاً تصعبه تحت وصادة صرتها ، أو عند عتية بنتها ، بعص رأسه فى غضب . قال إنه يصنع الأحبة للحير ، ويرقص المكر السرى ..

وهو بعالم قلناً واصحاً :

— ربما لا يرصى ما فعله سيدى بالقوت ..

أعاد الركاشى القول :

— أنت لا تؤذى أحداً ..

بدا هائناً ، ساكناً ، على غير الصورة التى اعتاد الناس رؤيته فيها . يحسن الإنصت ، ويتقصّد كلماته المعنى ، وتعييب الجندة فى حركاته وتصرفاته . كان يفعل ما يفعله عبو الخاطر ، ودون قصد . تتنابه حالة الوجد . تدفعه إلى حالة اللغاء ، يحذوه الحنين والشوق والمحبة والطيور ، ويصمم فى بحر التمدد . يبدو غريباً بين من لا يفهمون معاني كلماته ، وما يحياها . ثماعات تعصى عليه بأحوال السكر والعدو والغناء ، يشطح بما لا يتنبه هو نفسه ، ويستتركه الناس . ما يفعله لا يفهمه من تعجب عنه المشاركة فى الأدوات والمواجد . ثم يعود إلى حالة الصحو ، يصحح سويماً

بعد الجذب ، يعى ويدرك ، ويتنبه . يصير الناس على رؤية الجذب حالة دائمة . لم تكن تأثيره حتى مضايقات الأولاد له ..
ماذا يعرف أهل الظاهر والرسوم من أحوال أرباب الحقائق وأهل الباطن ؟ ..

أثر الصمت ، وانصرف إلى أحواله ومواجيده ، فنى عن نفسه ، وعن دعوة الخلق له ، سكن إلى الله ، وفر من الناس ، يخضع للعلم الذى لا يتبدل ولا يتغير ولا يخطئ ، يحيا فى قلب الحب والتسامح والصبر . يعيه أن يخرج من الدنيا مثملا دخل فيها : طاهرا من الذنوب ، نقياً من الشبهات ، فيطهر بقرب الحبيب . لا يأن لأى قول أو تصرف ، لى يصرفه عن الحياة التى أرادها . صفى نفسه من كل ما هو فان متناه محدود ، فهى لا تشغل بغير الذات الإلهية . مصى إلى الأنس وروح القواد والرجاء والمؤمن . ارتقت النفس إلى المعارح القديمة ، فى رحاب مسيرة الأيام ، وتقلب آتى الليل والنهار . انس بالأنوار . تراعت له كشمس مبهرة بالضياء . واطمأن إلى نهاية الارتقاء والوصول : المنس والعطس ، العلم والحكمة ، النعم والفصل . تتجذب القلوب له ، بالمحبة والقول . لا يشق عليه — بالقبوصات الإلهية — أن يحيط بالسماء والأرض ، النهار والليل ، الجبال والأودية ، المياه والأنهار . يعلم ما لا يعلم الناس ، ويقول ما يخفى عن الناس . يفهم أسرار الجعد ، ويعرف ما فى باطن الأرض وقاع البحر من خيرات . يخفى أمام الناس فلا يراه أحد ..

زئقة السئات

لسنا نذكر متى تنبها إلى البيت ، ولا إلى الحكايات التى تروى عنه . كنا نتهامس بحكايات المغاريت والأرواح الشريرة ، والأولاد الذين فتح الباب ، واجتذبتهم يد إلى الداخل ، ثم أغلقت الباب ..
قال محمد على الراكشى :

— عرفت أن هذا البيت يسكنه عفاريت ..

قال عادل عبد الوهاب مرزوق :

— من قال لك ؟

قال محمد :

— سمعت أمى تكلم جارة الطابق الأرصى ..

شطحنا فى تصور المغاريت : ما شكلها ؟ .. كيف تحيا ؟ .. ماذا تفعل
إن وجدت أحداً فى طريقها ؟ ..

قال محمد :

— تأكله !

قال عادل :

— كذب ! .. إنها تسخط الانسان فيصبح مثلها ! ..

تأمل مصطفى عباس الخوالقة نفسه ، وهمس :

— هل أصبح عافيتا ؟

كانت أجساما تتقارب ، وبهمل ارتعاشاتها ، ونحن نصمت إلى حكايات عم محبوب عن أفعال الجن في البشر ..

أصبحنا نحاف الوقوف - منعرجين - أمام باب البيت . نتحيل ماضيه من عفاريت وجان ومخوفات تنتمي إلى عالم غير عالمنا . كل منا يعيد مأسمة على الآخرين ، ويرداد حوافها مما بدخل البيت ، وإن لم يتردد في شتم أنسية ، حين أطلت من الباب الموارب ، وامتدت ليديا إلى قطع الحجارة ، فدفناها بها ، حتى أعلقت الباب ..

كما نقصى أوقات المسح حول المقام الذي يتوسط واجهة مدرسة النوصيرى . لم يعد نثير الأسئلة حول الشبح صاحب المقام . هل هو سيدى النوصيرى ، أو المدرس - كما قال عادل - سبت على قبره .. أو هو - كما قال عم جابر برغوث - سيدى الأهوشى ، أصل الاسكندرية ، ونسب أولياء الله في تعطير بحرى بركاته .. أو هو ولى مقطوع سدره ، فلا أحد يدرى اسمه ، ولا طريقته ، ولا بركاته ومكاشفاته ، فلا يقام له مولد ، ولا يطلب شفاعة مريدون وراثيون . كررنا الأسئلة والأجوبة ، فلم تعد نثيرها أو نشعلنا . ننكى بمرأعنا على المقام ، دى القماش الأحصر الباهت . نحدد مواعيد لقاءنا بعد العودة إلى البيوت ..

نلعب - حتى العصر - أبونا ضريبوا ، البحر المالح ، القبط والفار ، عسكر وحرامية ، كيكاع العالى ، ياعم يا جمال ، بز لا بز لا ، المسكة ، ونلعب البلى والدم والطيارات اللورية وأولها اسكندرانى ، ونلعب الكرة فى الساحة المجاورة لحفلة السمك ، ويتردد على حمام البلدية ، ونشلى بمراقبة الصيادين فى الميلاء الشرقية . ونصبب الفحاح ، وشكل نلبيس ، وكى مصطفى الحوالة يحيد تقنيد أصوات الحيوال والطير ، وحركات وطريقة كلام آبائنا ، والمعروفين فى السبالة ..

بهمل التحذيرات ، والأوامر ، وعبارات التهديد والشمم . نحترق الشوارع الصيقة إلى شاطئ الأهوشى ، نجعم القواقع والأصداف . نعوص

أقدامنا الحافية فى الرمال . نبني البيوت ، وبهمل حين يجرئها المد . نحمر حتى تظهر رغوى الماء المالح . نلعب لعبة الإنجليز . نسرع ملايسنا ، ونجرى نحو البحر ، لانتوقف إلا عندما تلامس الأمواج رؤوسنا . تطول قعدتنا فى ظل هيكال المراكب . نطارد طيور السورس ، أو السمسان . مبعافات قصيرة ، ثم يحل بنا التعب . انتوقف ..

إذا مالت الشمس فى الأفق ، أسرعنا بترك الشاطئ ، فلا نتاجنا - أو أجدنا - عروس البحر . نطلع من داخل الماء . تمارس عادتينا فى اصطحاب الرجال إلى الأعماق لثى لعودة منها . رويت حكايات عن الذين اجتذبتهم العروس إلى قاع البحر ، فلم يسودوا : النباء اسماعيل سمعان ، ومساعى سويلم ، وحادثة التيتسى ، والمليجى عطية ، وجمعة العلوى . اجتذبتهم عروس البحر ، فلم يعودوا أبدا . وقال مصطفى الحوالة إنه رأى عروس البحر تمشى على سور الكورنش ، تفترق فوق السور ، رأسها لامرأة ، وذيلها لسكة ..

نتجه - قبل أذان المغرب - فى أيام كثيرة ، إلى سوق الحيط ..

يمسح مصطفى بوز حداته بأصابعه ، ويسقا :

- تعالوا نحب ..

نبتعه ..

فى أعماقنا مشاعر يصعب تحديدها . نشعنا الرغبة فى ملاسمة البسات . نهمل تصور مايلى الاحتكاك بالذراع أو الساعد . حين امتدت أصابع مصطفى إلى ثدى دى ، لم يصدقه فى البداية ، ثم نالبت الأسئلة ، ترافقها ، وتلاحقها ، صور غير واضحة الملامح ، وإن تيقنا من جمالها المؤكد ..

محاذر السير أمام زاوية حطاب . نهاب الشيخ أمين عزب . لا يتردى الجبة والكاكولا والعمامة ، لكنه يزم المصليين فى الرواية ، ويلقى الدروس ، ويلجأ إليه الناس لحل مشكلاتهم . إذا مر بنا فى طريقه بين البيت

والرابية ، وكنا جلوساً ، وقفنا . وإذا كنا نلعب ، توقفنا عن اللعب . وإذا كنا نتحدث ، حفت أصواتنا . له مهابة تفوق ما عند إسماعيل بن العباس ، أو عند أبلتنا . لم يحظر إلينا مصعب ، ولا ألعاب علينا تصرفاً ، ولا شطط ، أو نظير . بمصبي في طريقه ، لا يلتفت ، لكن الحكايات التي استمعنا إليها ، رسمت له في أذهاننا صورة نهناها ..

اخترق الحواري والأرقعة إلى الحجارى ، ومنه إلى شارع رأس النتنس ، فشارع فرنسا . بعد مسجد ترانديل نميل إلى سوق الترك . تأخذنا رولح العطار : الفلفل الأسود والشطة والجبهان والشيح والفلفل الأحمر . تتلف الروائح ، فتصنع مريجاً نابئاً لا يتمرير . تتعالى صرسات الدقاقين ..

تخترق أسواقاً ثالية ، صعبيرة : العفادين والخراطمين والصيارفة والمعارفة ، حتى يصل إلى سوق الحيط . الككاكين الصغيرة ، المتلاصقة ، والممر الصيق ، والأسقف الحشيشية ، اقتربت فكانت تنماس . تحمى المارة وأهل السوق من حرارة الشمس والأمطار ، وإن كنت بدحول الصوء .. البسات يمشين ، أو يتوقفن ، فلا تأن قمصاة إلا بأن يحتك الكل في الكل .

بمصبي في السوق إلى أوله وآخره ، ونعود ، لا يشعلنا النظر إلى مايدلحل الذكاكين ، ولا إلى ما في الممر نفسه ، ولا إن كانت البنت لتي تحك بها سميدة أو خفيفة ، صغيرة أو كبيرة . مجرد أن تحك أجسامنا بالأجسام الواقعة والمماشية . يتأهى كل منا في طريق العودة إلى السبالة — بما حفته الأجسام التي احكك بها — في نفسه — من بشوة . ربما لمس كوع أحداً بهداً منتصباً لفظة ، تشتم أو تصرح أو تتأوه ، أو يدعها الجباه للإسراع في خطواتها . إذا لامة ناجر ، أو عبر سبيل ، فإن للزحام وصيق المكان عذر من السهل تأكيد .. وحلف لنا مصطفى للحوافقة — مرة — أن ساعده العازى احكك بالندى العازى لفظة . لا يدرى كيف قرئ الندى ، ولا

كيف حدث ما حدث ، لكنه أحس بملعن الندى العازى ، فسي ساعده العازى ..

كأن مصطفى الخوافقة أكبرنا ، وأكثرنا معرفة بالبنات . يترددن على حلقة السمك ، بلاغيين ، يأخذ ويعطى ، ويفهم ما لا نفهم . ونخل — بمفرده — عوالم من السحر ، نكتفى بما يرويه عن غولمصها ومانحفيه . وكان يروى لنا حكاياته مع بنات المدارس في شارع حسن باشا عاصم . له طريقة في تحوير الحكاية . يثير فينا مشاعر العصول والمتابعة . يحذف ، ويضيف ، ويختصر ، ويتوقف — ربما — إلى حكايات أخرى . يرفق سكانه بالقول واحد لي بذلك ؟ وعرفنا منه مالم يكن يعرفه . يصنع مما يرويه قصصاً لنا ، نحتل أننا نحياها . وكما نصمت إلى أحاديثه عن بنت يحبها ، ويؤكد أنها تحبه . ينوى التقدم لحظبتها ..

سأله عادل حد الوهاب :

— ما اسمها ؟

لحمرت لأنا مصطفى ، وشاب لهجه ارتباك :

— سر بيني وبينها ..

قال عادل .

— تلميذة ؟

رماد بنظرة مؤبدة

— طبعاً .. هل أحب لمامة سبارس ؟!

قال محمد :

— حلوة ؟

قبل أصابعه المعصومة :

— فلقة قمر ! ..

قال عادل :

— هل تصرف عليها من جيب أبيك ؟ ..

(١٢٢)

قال مصطفى :

— بل من جيبى .. فأنا أساعد أبى فى عمله ..

قال محمد :

— تلميذ فى البوصيرى الأولى يتزوج ١٢

قال مصطفى :

— وماله ؟ .. لما تزوج أبى كان أصغر منى ..

قال محمد :

— زمامهم غير زماننا .. ولم يكن تلميذاً ..

قال مصطفى :

— إذا كنت تعجز عن الإتفاق على نفسك ، فهذه مشكلتك ؟ ..

نجلس — قبل العودة إلى بيوتنا — فى قهوة للجماعى . السلطات الثلاث

تصعد إلى المصطبة الواسعة ، المفروشة بالسجاد . تتأثر فيها مقاعد

مستديرة من الجلد المنقوش . النصبية فى نهاية المكان . فوقها الرمالية

وأكواب الشاي وفناجين القهوة والنرجيل الملونة ، وعلى الجدران رسوم

ورخارف ونقوش حزنية ومعلقات سجاد وآيات من القرآن . وثمة مجرة —

أوسط المكان — يتصاعد منها بحور اللبان والمستكة والجوى والفسوخ ..

تأمل مصطفى وهو يأخذ النرجيلة من الجرسون . يصعها أمامه .

يجتذب إلى ناحيته . يسمح العبسم بباطن يده . يصعه فى فيه . يسحب

أغاسيا متلاحقة . يلفظ الدخان من أنفه . يثق أن مايعطه لا يستطيع فعله .

حاول عائل تقليده . أصابته نوبة سعال ، تكفنت جسمه ، وكسورت وجهه ،

ودفعت الحسرة إلى عنيه . حنفا على أنفسا ، فاكثينا بالمرلبة ..

يمصى بنا مصطفى بعيداً عن بحرى . نخرج على إعلانات الأفلام

والذكاكين والقهواى والكازينوهات فى منطقة الرمل . مركب الطابق الثانى

فى الترام . يقلنا إلى نهاية الخط ، ويعود ..

استوقفنا — ذات مساء — بائع فى ناحية السوق ، ولال :

(١٢٣)

— أنتم لا تشترون ! ..

كيف لاحظ فى الرحام الخائف ؟ ..

قال مصطفى للحوالقة :

— نحن نشترى من الداخل ويعود ..

قال البائع :

— فماذا اشترىتم ؟ ..

قال مصطفى فى تحد :

— هذا شأننا ..

قال الرجل :

— معاكسة بذات الداس ليست من شأنكم !

وخاطب لهجته وعيد :

— إذا جئتم إلى هنا ، اتهمتمكم بالسرقة ..

قال مصطفى :

— نحن لا نسرق ..

— تحتكون بالنسوان وتقاوحن ١٢

قال مصطفى فى مكابرة :

— نحن لنعرف مايتحدث عنه ..

قال البائع :

— إذا حدث ثانية ، لن أتركك إلا فى القسم ؟ ..

وقاجأ مصطفى أباه — ذات صباح — فى مجلسه بحلقة السمك . من

حواله الطبلى والمشتريين والمساومات والتداعيات وللصباح وتقاقر القطط ..

أطال الوقوف حتى تنبه ..

حنجه هم عبال الخوالقة بنظرة متسائلة ..

انتزع مصطفى الكلمات :

— أريد أن أتزوج ..

أسند عم عباس الخوالقة مبسم الشيشة على المقعد أمامه :
.. ماذا ؟!

قال مصطفى :

.. أريد أن أتزوج ..

وشت نظرتيه بحرية :

.. لأنتك يادوب بلغت .. تحسب نفسك رجلاً ؟!

قال مصطفى :

.. أريد أن أتزوج ..

.. هل ستأخذها معك إلى المدرسة ؟!

.. أنا أصعل معك في الحلقة .. فلماذا لأذهب إلى المدرسة ؟!

ارتفع صوت الخوالقة بالأصمى :

.. أولاد الحاج قنديل تخرجوا في الكليات .. وأنتم ترفصون حتى

الحصول على الابتدائية ..

ثم بنيرة ساخطة :

.. الله يلحك !

وزفر في نفاذ صبر :

.. ماذا أفعل لك ؟

.. أريد موافقتك ..

تحتج صوت الخوالقة بالغضب :

.. وهل هذا وقته ؟!

قال مصطفى وهو يمضي خارج الحلقة :

.. أريد موافقتك أولاً ..!!

أسواق من النور

قال رجل لأبو الحسن

الشاذلي :

.. مالي أرى للناس بمطعوك

.. ولم أرك لك كبير عمل ؟!

قال أبو الحسن :

.. بسنة واحدة افترضها الله

على رسولي ، تمسكت بها ..

قال الرجل :

.. وماهي ؟!

قال الشاذلي :

.. الإعراس عنكم ، وعن

ديناكم !

من حزب الشاذلي :

.. لسلك القصر مصاسوك ،

والصبي بك ، حتى لا تشهد إلا بآله .

يذا لمن ولايين عليه . يذا
الجلال والإكرام . يذا لفلول
والاعلم . لا إله إلا أنت . طهر
اللاجئس ، وجار المستجيرين ،
ومامن الحائزين ..
لن كنت كنتى فى أم
الكتاب شقياً ، فامح عسى اسم
الشفاء ، ولتبتى عندك سجداً ، موقفاً
للخير . فذاك نقول فى كتابك الذى
أرسلت : " يمح الله ما يشاء ،
ويثبت ، وعنده أم الكتاب " .

فاجأ على الراكشى الحلقة ..

كان قد مضى زمن ، يعبر الحلقة دون أن يلمحها . يدعوهم الصيادون
والغريشة ، يمنهم بما لايتنبه أحد ، ويواصل السير ..
دخل هذه المرة من الباب الواسع . جاوز الطليالى ، ومستطيلات
التحج ، والباغة والمشتريين ، والرحام ، والمياه الأسمدة . كانت التعليقات
متشابهة ، صاخبة ، حول جروح بأخرة عبد البوغار .
دنا من الحاج قنديل والمعلم أحمد الزردونى فى جلستهما بركن
للحقة ..

كان الزردونى يعصل الشراء من الحلقة . يروقه منظر السمك وهو
يلعط فى الطليالى . الحياشيم تتفتح ، وتعلق ، والدليل يهتر ، فيهتر الجسم
كله ، ورداذ الماء يتطاير . يلتقط بأصبعيه سمكة من الطاولة . يشمها ، ثم
يبدأ فى التفصال . إذا تغيرت رائحة السمك ، فهو قد تعفن ..
أشار الحاج قنديل إلى كرسي بجانبه :

— تفصل يامولانا !

قفل الراكشى بلهجة أمرة :

— جاعنى سيذى السلطان فى المنام ..

وزغد الحاج قنديل بأصابعه لى كتفه :

— إيه يدعوك لتكسية مقامه بفمك جديذ ..

ثم بصوت زاعق :

— ويأمرك لى تعطيني مما أعطاك الله ..

وهرش عقه بأظافره . التقط بأصبعيه أجساماً صغيرة ، تأملها

لحظة ، ثم قذف بها . رمى الحاج قنديل بنظرة مؤننة :

— هات حاتم لأذهب من فم السمكة الميتة ..

ودخل لهجته وعيد :

— هاته .. وإلا ستفقد الطريق إلى بيتك ..

لأن الحاج قنديل بصمت ، لعرف الرجال أن كلمات الراكشى فيها

معرفة بطيبة ، أدرك الحاج معانيها . تنبه لما تحمل من وعيد ، فسكت ..

اعتاد الرجال تغير أحوال الحاج قنديل . يطيل ذقه ، ويحلق شاربته ،

ويكر بأصابعه حيات المسحة . يعنى بالأحداث السياسية ، يتابعها ، يلح فى

تحويل مؤشر الراديو حسب مواعيد نشرات الأخبار ، يخلص للقراءة :

جرائد ومجلات وكتب ، يأتي بها من مكتبة حمامة النش ، يلزم صحن أبو

العباس ، لا يعادله إلا وقت العمل فى الحلقة ، أو للذهاب إلى البيت ، أو

لزيارة أخته ..

ضرب الراكشى على الترابيزة بقيصته :

— لا وقت عندي .. أريد نقوداً ..

دس الحاج قنديل يده فى جيب السبالة . قبض الراكشى على ما أخذه ،

ومضى خارج الحلقة ..

ثمة أسواق أخرى يعرف طريقه إليها ، لا شراء فيها ولا بيع . يجتمع الناس حلقات ، يتذكرون كيف كانت الدنيا - هل يتذكر الحاج فندول ، أو أن النعم ينسبه ١٢ - وكيف كان العمل بهرائض الدين ، وكيف كان فقر أهله الدنيا ، وكيف كان الصوت ، وكيف صاروا بعد طول البلاء إلى الجعة . تختلف عن هذا الأرحام المتلاعب . تحب بها الملائكة . فيها ما لم تتطهر الميرون إلى مثله ، ولم تسمع الأدان ، ولا خطر على قلب بشر . لا يباع ولا يشتري ، إلا الصبور من الرجال والنساء ، إذا انتهى الرجل صورة ، دخل فيها ، ولا ينزع ثمرة إلا نبتت مكانها مثلاً ، قبل أن تصل إلى فمه . يأكل من ألوان الطعام ، يجد لأحراها ما يجد لأولها . يقوم بالخدمة سبعون ألف ملك شبه اللاولو . بأيديهم أواني الفضة وأباريق الذهب . فيها أشربة ليس فيها لون على لون الآخر . ويرتدي سبعين طاقاً من الحرير الأخضر ، ومن المسدس والاستبرق مختلفة الألوان . يقدم الحادم كأساً فيه ماء وحمز وليس وعسل ، لا يختلط بعضها ببعض . يأخذها ولي الله ، فيرى ما خلفها مسيرة ثلاثة أيام ، فيتركها على فيه مقدار سنة ، لا يمل الشراب ، ولا الشراب ينفذ ..

لم يعصب من المعلم أحمد الرودوني ، ولارد عليه . عاب عليه راحة جسده :

.. يا أحمى .. حمام الأعفوشى بالمجان !

يقول أن مائد به الله في قلبه ، هو علم الباطن ، وإن لم يحاول السؤال ولا الفهم ، فأنه لم يطلع عليه ملك ولا بشر . صفا قلبه لله ، وسكن إليه ، وفر من الناس . أهل الظاهر ، وعنى بالباطن . تحلص من أتعاب الدنيا ، وقاطع من وصلهم أيام غفلته ، وارتحل إلى الآخرة بقلبه ، وتعباً للوصول . الشوق في داخله أن يطفئه سوى الوصول واللقاء ، يربو إلى يوم يرشح عراً كالتمسك . لا يبول فيه ولا يتسوط ولا يمخط ولا يمسق ، ولا يمسح تعب . يرد الله وجهه كالقمر ليلة البدر . تعبد الحرفة من

ظاهر يده ، صنعها تألف الملحوظة والشمس . نعم ، ولا يبول ، ولا تنفى ثوبه ، ولا يلبى شبابه . يحل عليه التملك وبمه ألوان الحلال مطرزة بالذهب ، مكتوب عليها أسماء من أسماء الله الحسنى . يقول . أنظر يا ولي الله إلى هذه الحلال . إن أعجبك فهي لك ، وإن لم تعجبك انقبت إلى الشكل الذى تريد . يرتدى ملوك الدنيا الأساور والتيجان . يرتدى - حيث تصعب العناية الإلهية - طوق تيباح يتلأأ من نور ، ويصع في يده ثلاثة أساور : سوار من الذهب ، وسوار من الفضة ، وسوار من اللاولو ، ولرجليه خلخالان لاصدى فيهما . لا يرتدى حلة ذات وجهين . يقول الذى يلى جسده : أنا أكرم على ولي الله منك . أنا أس بنده وأنت لاتعسبه . ويقول الذى يلى وجهه : أنا أكرم على الله منك . أنا أرى وجهه وأنت محجوبة لأتري وجهه . قرأ عن مراكب الياقوت . كل مركب ياقوتة واحدة ، تجرى بلا شارع ولا موتور . نحرها من السلسيل في بياض اللسان الحالص ، مرتفع بلا أمواج ، راحته أدكى من العنبر ، على شاطئه نخل يختلف عن نخل الكوريش ، فهو من ذهب ، بذنه وسيفانه وفروعه وأوراقه . حتى ثماره فهي في لون الذهب ، وإن كانت ذات مذاق أحلى من الشهد ، ومن العسل . إذا أراد صيد الحيات - لها راحة أشد من التمسك ، وطعم أحلى من الشهد - وقف على المركب ، أو حتى على ساحل البحر ، فيأتى الحوت مطبوحاً ومشوياً . ويقول كل يا ولي الله . إذا أكلت منه ، فيسرجع إلى البحر مسيحاً ، مفتحراً ، بأن ولي الله أكل منه . يصيد العزال بدلاً من السمك . ليس صيداً مما اعتاده الناس ، ولي الله يسعى في أثر العزال ، مثلاًذاً بذلك السعى . لا خوف يصيب العزال ، ولا وجع في الإمساك به ، لا تخويف ولا جرح ولا كسر ولا قتل . إذا قبضتها ، فإن شاء رجعت له لعماً مطبوحاً أو مشوياً . لا دبح ولا نحر ولا كسر ولا سلخ ولا دم يسيل . يسكن كل ولي قصرأ ، سقفه عرش الرحمن ، له أربعة آلاف باب ، وسمعون ألف غرفة من الذهب ، مرصعة بالزبرجد . يزاور مع الآخرين على لحائب يبرص

(١٣٠)

كانهم الباقوت . وثمة قبة من الدر الأبيض ، أسست على سطح من الزمرد الأخضر ، ترى من مسيرة مائة عام . ركنت في أعلاها جوهرة بيصاء ، يلمع فيها نور ، ينعكس شعاعه على امتداد الأفق . ليس لها معاليق من فولها ، ولا عماد من تحتها ..

قال حسبان عبد الدائم وهو يتابع انصراف الراكشي بنظرة مشفقة :

— الراكشي ليس مجنوناً .. أمرف في التعلم ، فتشوش فمه !

قال خميس شعبان :

— حاله ياحاج .. تأخذ ثواباً ..

قال الحاج قنديل :

— الرجل أصبح منا .. وهو .. بإذن الله — طبيب نفسه ..

أطلق قاسم الغرياني ضحكة عصبية :

— أيوب المكندري !

قال الحاج قنديل :

— لاتسخر من الرجل فهو بركة !

قال قاسم الغرياني :

— فلماذا لا تحل بركته على بيته ؟ .. المرأة تنفق على أولادها من مساعدات أهلها ..

قال الحاج قنديل :

— شدة وتزول !

وأهمل الشبيبة في يده ، وصرح إلى بعيد :

— قد يكون على الراكشي في حياتنا ولذا جديداً !

كانت الكلاب وللقطط تسكن لمرأه ، لا تنبح لو نوء ، ولا تمارس الفعل . وأكد خميس شعبان أنه رآه يحوض المياه العميقة ، وراه قلعة قايتباي ، فلم تصل المياه إلى ركبتيه . واستمع إليه عبد النبي شعرة ، خادم أبو العباس يكلم من لا يراه داخل مقام السلطان ، وصوت — من داخل المقام

(١٣١)

— يبادل الكلام بعبارات واضحة . وعرف بأنه ينطق بما يجريه الله على لسانه ، لا يختار كلماته ، ولا يتدبرها ، ولا يتوقع تأثيرها في نفس محدثه . وكان — في بعض الأوقات — لا يعي ما حوله ، ولا يعرف من يعيشون حوله ، ولا يستطيع التحدير . يلجأ إلى يديه ، وهر رأسه ، ونوبات من الصراخ ..

فاجأ الناس في مولد سيدي نصر الدين بسيف من الحشيب ، رفعه ، وهزه ، وأطلق صيحات متولية ..

ثمة قوة عامضة ، مهيمنة ، تجتذبه إلى حيث لا يدري . تنفع قديميه ، فلا يستطيع التوقف . تمنعه حتى من إطالة الوقوف أمام الذكاكين والقهواي . لاتهدأ نفسه إلا عندما يدخل أبو العباس أو باقوت العرش أو البوصيري أو معاجد الحى الأخرى . يتوضأ ، ويصلي ، ويحلو إلى نفسه بأدعية وأكثار ، حتى يهم الخادم بإغلاق الجامع ، فيخرج ..

أشرقت في داحله أنوار الخدمة والمحبة والمعرفة . انشغل باختراق الحجب التي تمنعه من رؤية العمتور . أحلص في عبادة الله ، والتجرد لذكره ، والزهد في طلب الدنيا ، والإعراض عن مباحها . فنى عن نفسه ، وأقبل على حياته بخصوع من بعد إرادة إلهية . انصرف إلى أعمال القلوب : المحبة لله ورسوله ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، وغير ذلك من المقامات والأحوال . حب إلىي يفيض بالأحوال والأشواق . دنيا لايراحمها وهم ، ولايخالطها شك ، ولايصحبها اضطراب . تطير به الخيل في ساعة من ساعات الدنيا مسيرة ألف عام . يصل روضة ، هي الدرجة الرابعة من اللردوس ، من الكافور الأصفر ، نباتها الزعفران ، وتربها المسك الأنقى ، وحصاها من الدر والجواهر ، تجرى فيها أنهار المساء والغسل والخمر . على حافاتها أشجار ، أصولها من الزبرجد الأخضر ، وقضيلها من الذهب ، وأوراقها من اللؤلؤ ، وثمارها لايطعمها إلا الله . تحلق فيها رياح الرحمة ، وتتلخ فيها روائح المسك والعبر . يحرج إليها

— فيما بعد — متراً ، كما يخرج الملوك من قصورهم . بها حيمة من لؤلؤة
مجووفة عرضها ستون ميلاً . في كل زاوية منها أهل للمؤمنين ما يرون
الأحرار . يطوف عليهم المؤمن في كل زاوية . إذا حل ولي الله بالحيمة ،
انصدعت له عن باب ، فيعلم أن إحصاء المحلوقين من الملائكة والخدم لم
يأخذها ، فهي مفضورة ، قد قصرها عن إحصاء المحلوقين . يؤذن في يوم
الجمعة من أيام الدنيا ، ليروا الواحد الأحد . يبرز العرش . يتبدى في
روضة من رياض الجنة . توضع للصالحين مثله منابر من نور ، ومنابر
من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زمرد ، ومنابر من ذهب ،
ومنابر من فضة . يجلس أديهم ، وماليهم من دنس ، على كتيبال الممسك
والكافور . مثل رسول الله : هل نرى ربنا ؟ قال : نعم . هل تتمازون في
روية الشمس والقمر ليلة القدر ؟ قيل : لا . قال : كذلك لا تتمازون في
روية ربكم ، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاصره الله محاضرة ..

اعتادت أم محمد غيابها عن البيت يوماً بليلة ، أو يومين بليتين .
يجلس — بين أوقات الصلاة — في صحن مسجد المسبوري . يلزم نفسه بحكمة
المصلين ، ويكنس المسجد بنفسه ، وينظف دورات المياه . يمشى في
الشوارع والأسواق حاملاً الرأس ، حافى القدمين ، عارياً إلا من قطعة حيش
تغطي صدره وحول بطنه ..

تركت المرأة — ليلة — حجرة نومها مع الأولاد . دفعت باب حجرتها
للمواري . أعادت التثبت من حملاتي القويص للسائل الأحمر فوق كتفها .
كان قد تمدد على بطنه ، ورس يديه تحت المخذة ، وتعالى شحيره ..
داعيته بأصبعها في بطن قدمه ، فاستتر مذعوراً . كان قد انفرد عن
المرأة والأولاد . تحلى للعبادة ، وانقطع إلى الله تعالى . ضعفت أحوال
الحس ، وقويت أحوال الروح بمائل العبادات والذكر ، وغلب سلطانها ،
وتجددت النشوة الربانية . مصى إلى النهاية في الرياضة والمجاهدة ..
هوحي بوقفها الحالفة ..

دفعها بقدمه في صدرها :

— امش !..

جرت — بظهرها — إلى الباب المعلق . فتحت ، وانحطت — تنلمم
لنفسها — على كنية الصلاة ..

لم يعد يلتفت إلى مآثره عيابه . هو يكتفى بالنظر إلى ما بداخله ، ما
يشمله ، ويبلغ عليه ، يصديه . انطلق من ضيق المحسوسات إلى لا نهائية
الحضرة الإلهية . حرم على نفسه النوم إلى جوارها ، منذ عرف طريقه .
ضجر من صحبة الأغيار ، وأثر الزهد . انقطع للعبادة . جاوز سجن
عبادات صفات النفس إلى الصفات الروحية في عالم الأمر . محبة الله
لاتحل القلب ، ولا تستقر فيه ، إلا إذا خلا القلب من حس سواه . تكشف
الأشوار الإلهية ، فاحتجبت المحسوسات . خرج عن خطوط البص بالمجاهدة
والمكابرة . اشتمل بالله تعالى ، وتجرد من أسباب الدنيا ، ورغب في
الأخرة . محا أمبرته من قلبه ، لا يستقر فيه إلا الذات العلية . تجمل دار
المعافاة ، ليتدقق حالوة القرب ، ويشرب من خمر المعارف الربانية ،
الآرية ، ويعمر في بحر النور . تابسته انشجية من الصمد والهجر وعدم
الآرية ، ففتح أبواب الشدة ، والدل ، والجهد ، والمهر ، والفقر ، والخوف .
قطع الممارل والمقامات . كشفت سجوف الظلام عن عالم الملائكة والوعد
والجنة والأشجار وأنهار اللين والعمل والسقا والخور العين . أحب الأشياء
حين يخلو إلى نفسه : كيف يشرق نور قلب ، صور الأكواري منطبعة في
مراته ؟ كيف يرحل إلى الله وهو مكبل في شهوته ؟ كيف يطمع أن يدخل
حضرة الله دون أن يتطهر من جنابة غلاته ؟ كيف يرجو أن يفهم دقائق
الأسرار قبل أن يتوب من هفواته ؟..

خطر له أن يؤمها في صلاة الفجر . ينس من ردها على نذاته . نصيح
في وجهها الماء ، وقال لارتعاشاتها الحائفة :

— من استيقظ في الليل وأيقظ امرأته ، فصلبا ركعتين .. كتبنا من
الذاكرين لله كثيرا والذاكرات ..

رأه أمين عزب يطير وراء أولاد يماكسونه في شارع أبو وردة .
يقذفونه بقطع الحجارة الصميرة ، وقشر البطيخ ، وهو ينقى يديه ،
ويصرخ ..

زجر أمين عزب الأولاد . تصعب للمشاهد وهو يتجه إلى باب
الجمرك . جرى الأولاد بالخوف من مكالة أمين عزب في نفوس آبائهم ..
— ثم ماذا يا على ؟ ..

علا صوت الراكشي :

— من يريد الله .. لا يريد سواء !

رماه أمين عزب بنطرة شاذية :

— هل أفنك يومئذ بدوى عفاك ؟ ..

جزيرة السحر نبوح بسرها

الفتحمت نغمة رائحة الدخان والأنفاس ، ولاحقته الأصوات المنادية ،
والمعتائلة ، والداعية ..

كان يغالب الارتباك ، وهو يتلفت حوله . ربما فاجأه صديق لأبيه ، أو
أحد الجيران ..

لجأ إلى خياله . اختلق الروايات . ضمنها حكايات للرجال قس
الزردوني والبحر ومخيخ ، أنصت إليها . نقلها للأولاد بإصافه وحذف ،
وجعل نفسه فيها . بدا له كوم كبير دنيا غريبة ، ساحرة ، تاق لرؤيتها ..

واجه محمود همسه بغضب لم يعهده فيه :

— لكك تذهب إلى هناك ..

قال بصوت متوجس :

— من قال لك ؟ ..

واجه عبيه :

— أنت قلت في القهوة ..

هز محمود قبضته :

— أنا أكرر منك ..

داحل صوته ارتعاش ، كمن بهم باليكاء :

— لم أعد صغيراً ..

هتف محمود في لهجة باترة :

« لو ذهبت إلى هناك .. سأريك شعلك ! .. »

سكت ، وإن ملئت الفكرة في دأخله . تلبسته ، فلم تعد تغارقه . هو لا يفترق عن الأولاد إلا بالروايات المختلفة . الذهاب إلى كوم بكير يعود بحكايات حقيقية لا تنتهى ..

لحطت بخمسين قرشاً من إيراد شروان الصباح في الحلقة . استقل الترام إلى ميدان المشية . مضى في شارع السبع بسات . بوصلته حكايات الرجال ، والأخيلة المجنونة تتأوش دهنه ، وتدفعه : لما ذهبت إلى كوم بكير .. رأيت في كوم بكير .. لى صنيقة أتردد عليها ، كل مساء ، في كوم بكير .. لن ألعب معكم ، وكنى — بعد الحلقة — أقصىه في كوم بكير .. نصف مساء كوم بكير يحبسنى .. كوم بكير دنياى المفضلة .. يصعب لى أصحب أحدكم إلى كوم بكير ، فلا يتردد عليه إلا الرجال ..

لم يكن يحشى إلا أن تلمحه عين من السيلة : قاسم الغريانى أو المعلم التيمى ، وغيرهما ، معن يداومون التردد على كوم بكير . سكت أبوه عن الكثير من تصرفاته ، لكنه — بالتأكيد — سجد في فعلته الجديدة ، ما يدعو إلى المواجهة القاسية . قد يضربه ، أو يطرده من البيت ..

طالبه الحى بما لم يتصور أنه يراه . ما يختلف تماماً عن كل الحكايات والروايات التى أصاح إليها سمعه ، ودفعت إلى محاولة التعرف ، الأغنيات تتصاعد من كل مكان ، تحتل فلا تبين كلماتها ولا ألحانها ولا مصدرها . الأعين المتسائلة ، والمتوجسة ، والداعية ، ورائحة الطعام ، والحشيش ، والنهر ، والوجوه المصبوغة ، والندرة المتكلفة ، والعرق ، والنداءات ، والصكبات ، والآلات ، والغمزات ، والاعتاس اللاهية ..

مع أنه كان قد أعد نفسه لما رآه ، فقد أذهلته نساء اكتفين بوضع غلالات شفاقة على أجسادهن . يبدو الصدر والبطن والصرة وماتحت البطن . حتى الحصنات والوحات يبين لونها الداكن من وراء العلالة ..

ولوجه رجل مجنور الوجه ، يحيط برأسه شعر مشعث منكوش . فى حوالى الخامسة والأربعين . يرتدى جلباباً مقلماً من الكستور ، ويضع فوق رأسه طاقية من نفس قماش الجلباب ، ويجررك بيده عصا معقولة ، لامة ..

— ماذا تريد ؟ ..

غالب ارتباكك :

— أتمشى ..

فى لهجة مرغية :

— هل تريد شيئاً محدداً ؟

— لا .. أنا أتمشى ..

فاجأته المرأة بالقول ، وهى تشير إلى قامته الممتلئة :

— أنا التى تتحمل عافيتك .. تعال !

فى حوالى الخامسة والشرين . ذات وجه قائم السمرة ، وشعر أسود أكرت . ترتدى قميصاً من الساتان الأحمر ، يطل نهداها من فتحة الصدر للواسعة ، المشغولة بالترتر .. أذهلته الكلمات ، وأرضته ..

ترك ساعده ليد المرأة ، تقوده إلى داخل الحجرة ..

فى الركن سرير لحاسى مرتفع ، مفروش بملاءة متسخة ، وإن بدا لونها أقرب إلى الزرق . تحته كرسي حمام لينح الصمود عليه . وفى الجانب كومودينو صغير ، وحامل خشبى ، عليه فوطه متدللة الألوان ، وفى الركن المقابل تسريحة امرأة ، صف عليها زجاجات عطر ، وكيس قطن ، ومشط مشاكل الأسنان ، وقطعة من الجلد ، أشبه ببعض رقيقة سوداء . وعلقت — على الجدران — صورة من مجلة لتحية كاريوكا ببذلة الرقص ، وصور صغيرة لنجاعة دوى سحر أجنبية ، بينما تكلمت من السقف مروحة ساكنة ، وفرشت الأرض بسجادة مضطربة من أقمشة قديمة ..

(١٣٨)

.. هل أنت حائف ؟؟

التفت إلى المرأة وراءه . راعه للشحوب الذى كسا وجهه ..
وهو ينتع ريقه :

.. لا ..

نظت على السرير . عادت أصابعها - من تحت المخدة - بعلبة
سجائر . أخذت أنفاساً متوالية . أطلعت السجارة فى الطبق الحائى على
الكوموديو المجاور ..

.. مالمسك ؟؟

.. مصطفى ..

.. من الإسكندرية ؟؟

.. من بحرى ..

.. أول مرة ؟؟

هز رأسه :

.. نعم ..

أعلنت السؤال ، وهى تواجهه بنظرة مشفقة :

.. خائف ؟؟

اهتز بالانفعال :

.. لا .. لست خائفاً ..

أطلقت ضحكة عابئة :

.. من له جثتك لا يخاف ليليس !..

ثم وهى تنزل من السرير ، وتعضى وراء الستارة المسددة :

.. استرح حتى أعد نفسي ..

ظل فى وقفته وسط الحجرة ، يتأمل ماحوله . وثمة رائبو قريب

ينتهأى منه صوت مبرة المهدية :

فيك داس باليل بتشكى لك مولجهم

(١٣٩)

بالله يا ليل ما تبسكاش تواجهم

أجريت يا ليل على الغدين مدامهم

باتوا سهارى بطول الليل نواحين

من خوف يا ليل .. ليطول المدى معهم

علا صوت المرأة من وراء الستارة :

.. اخلع ملاسك !

تبينت عيناه خطأ طويلاً صيقاً ، يفصل بين الستارة والمكان الذى

هبطت إليه المرأة ..

مد رأسه بغوية ..

غمض ما تفعه المرأة ، وإن فاجأته بما لم يتوقعه . ما تصور أنه

حرفه اختلف عما رآه خلف الستارة المسددة ، وصدمه . كل ما رواه للأولاد

هبله خياله ، غدته الصور التى تشكلت من حكايات قهاوى الزردوسى

ومخيمخ والبحر ، ومن الصيادين والسماكين فى الحلقة ..

صعد القرف بالعتاش فى حلقة . وضع يده على فمه - بتلقائية - يمنع

للغلات القى ..

اهتزت الستارة الخشبية ، الملونة ، فى اندفاعه إلى الطريق ..

وكان نداء المرأة يلاحقه ..

مبنى من الطوب الأحمر . نوافذه خشبية من صلتين . بابيه الرئيسي
فى شارع سيدى كطمان ، الحلقى . استأذن من حمادة بك - بعد أن استأجر
منه الاسطبل ، فأغلق الباب الرئيسى - واكتفى بباب شارع السبالة . نوافذه
الطابق الأول تفتح على الاسطبل . أما الطابق الثانى ، فنوافذه تطل على
شارع سيدى كطمان ..

قال التميمى :

- علياً مجاملة المعلم عباس الحوالة فى حفل زفاف ابنة ..

- محمود ؟ ..

وهو يلوك لمصا فى فمه :

- لا.. مصطفى .. الولد الأصغر .. أجبر أباه على تزويجه من بنت

عبد الوهاب أبندى مرزوق ..

وطرد ذبابة من أنفه :

- الرفة ليست طويلة .. شقة العروسين فى الطابق الرابع الحالى فى

بيت الحوالة ..

البيت فى نهاية السبالة . تمضى الزفة إلى ميدان المساجد . تطوف

دوراتها للسبع أمام السلطان ، ثم تمضى فى طريق الكورنيش ، إلى

السلسلة ، وتعود ..

قال صابر مبتكراً :

- متى الزفاف ؟

قال التميمى :

- فى موسم السردين ..

قال صابر :

- لما طهر عصفور النيل على الشاطئ منذ أيام .. أكد الجد السحوى

اقتراب موسم السردين ..

قال التميمى بنبرة متعالمية :

قبل موسم السردين

قال المعلم ناجى التميمى :

- ماذا حدث ؟ ..

قال صابر الشبلجى وهو يشير إلى السيدة على باب الاسطبل :

- المست تريد أجزاء من حائط البعلة ..

- لماذا ؟ ..

غائب صابر تردده :

- قيل لها إن أجزاء الحافر إذا وصعت فى الطعام ، ينقطع حيض من

تأكله وحملها ..

لم يبد على التميمى مشاعر من أى نوع . لا دهشة ولا تأثر

ولا غضب . قال وهو يتجه إلى الداخل :

- كل شيء هنا بالطوس .. فهل تملكين ثمنها ؟

لطقت الاستجابة فى عيسى السيدة ذات التايير الرمادى ، والبطارة

الطيبة ..

مال التميمى إلى يمين الأسطبل . اطمأن إلى عقيق الخيل : التشعير

والآذرة والقول والتنين والبرسيم . علق على الجدران سست وقضبان حديدية

وعجلات ورولمان بلى ..

اتجه إلى سلم البيت ..

.. الرانديو يتحدث عن ارتفاع فيضان النيل هذه السنة ..
ثم وهو يحل كمي البنش :

.. فلنتوقع بأن الله محصولاً وفيراً من السرددين ..

عرف صابر - من أحاديث الصيادين على قهاري الحى - متى يبدأ موسم السرددين ، ومتى ينتهى . يعتد من سبتمبر إلى يناير . جمعة النيل . موسم الريادة ، موسم القطن للصيادين . فصل الشتاء ميت ، للصيد فيه أيام قليلة : الجمبرى والسبعوليا والثوت والصبيط والنديس والسبوف والكابوريا أسراب السرددين تغد بالمالين في أبو قير . يذغها ماء النيل ، والعظمى ، إلى البحر . تتألق في لون الفضة على سطح الماء . تحلق فوقها أسراب طير البحر . تهبط بمنقيرها ، وترفع . تستقلها أساطيل الخشب في عرص البحر من الأنفوشى وانكو ورشيد والبرلس وتمياط . تزحف القوارب والتمباك وعملات البيع والشراء والصفقات الموزلة . موسم الزواج ، ورواج الأبناء ، والأفراح ، وتجهيز البيوت . كل الأمنيات الصعبة تنتظر تحقيقها في موسم السرددين . معطم طبعه في جمعة النيل هدايا : الغبرومة الأكثر سمّة ، والمقطرة الأكثر نوحاً ..

سأل التميمي وهو يتجه ناحية السلم المقضى إلى داخل البيت :

.. البنت فوق ؟

قال صابر :

.. لم ألحقها في الشباك ..

كان باب البيت مفتوحاً ، لا يخلق في ليل أو نهار ، وإن حرص التميمي على إغلاق الحجرة التى يقيم فيها مع جمالات . يصعد صابر الدرجات الحشوية . يدخل الصالة . يضع ما يحمله من احتياجات البيت . ينظر إلى الصالة والحجرات المحيطة بها . بسرعة ، أو يتأمل . إذا أراد التميمي ، طرق باب الحجرة ، أو يعود إلى الأسطبل ..

حين تقدم التميمي - مد ثمانية عشر عاماً - لحطبة بنت المعلم كشكش الكبرى ، غائب الحرج لاصطحابه الحاج فنديل - وحده - يركى مطلبه . لعب قامته الطويلة لأبوين من فلسطين ، قدما إلى بحرى فترة الخلافة العثمانية . أقاما في السبالة لأنها تذكرهما ببيهما في مدينة يافا لم يمانر قلبت المظل على داخل الأسطبل بعد وفاة أبويه - مات الأب ، ثم لحقته الأم ، في العام نفسه - قصير . سكنى طوابقه الثلاثة على أسرته ، واكتفى بالبراد الأسطبل . أنفى عقداً كان أبوه وقعه لشراء أسطبل جديد - بدلاً من الإيجار - في رأس التين ، ووقع عقداً جديداً على حمادة بك .

مثل عن الأبناء : فقال انه يتحاشى الإنجاب . الأبناء مسئولية لا يقوى على ملاحقتها .. لكنه تمسك - بينه وبين نفسه - أن تتجن له زوجته طفلاً ، وسر إن أنجب ولداً ، يمشى في رحام شارع الميدان ، وعلى رأسه طرحة ..

طلت المرأة بلا خلفه ، حتى قتلها وصفة مسعومة للإنجاب . طالبت حياته بلا رواج ، حتى قدم - منذ ثلاثة أعوام - بالست جمالات في سيارة تاكسي ..

لم تكن من أمر الحى ، ولا تكلم التميمي عن ظروف زواجه منها ، وإن أكتت الهمسات في قهوة الرردوني أنها من نساء كوم بكير . أعجب بها ، فمقد عليها . عانى - لسوات - من تحقق الرغبة المتعجلة . يتبعها همود ، وتهزق للوم . أفلحت في إبطالة اللحظات . جاست به أحراثاً لم يسبق له ارتيادها ، فأحبها ، وعقد عليها . ثم أدرك أن المرأة تحاول أن تقتله ، بالذلة ، فأحلى لنفسه حجرة مستقلة ، وترك المرأة وحدها في حجرة النوم . إذا علا في داخله صوت الرغبة ، مصى إلى كوم بكير ، يطعن الجدوة المشتعلة ، ويعود ..

(١٤٤)

قيل إنه صحيف أمام الحاديات . لا يقوى على كتم رغبته ولا تلغيه ،
وتعرض لمناصب . وأودت به علة نالها في دحيرة أبو العباس ، إلى لروم
العراش عشرة أيام ..

كان يتردد على بار بشارع البوستان . يجلس على الرصيف . أمامه
زجاجة الحمر وطبق للمزة ، وأمام الحصان دلو لفرع فيه الجرسون خمس
زجاجات من البيرة ..

وكان من أطعمته المفضلة الريش والحاصر والبقعة والطرب
والمحاصي والسبار . وكان يأكل الحمام واليمام والسمان . إن لم يأكلها في
البيت ، تردد على مطعم الحيرات بشارع الميدان . وحرص على تليك
العصص بالثوم الطازج ، وأكل الطفل الأسود والكرفس والجزر الأصغر
والنفاخ وجوزة الطيب ..

قال صابر :

- العجلة مقلقة منذ نزهتك الأخيرة على الكورنيش ...

ثم وهو يهز رأسه :

- سألصحتها ..

يحلو له الجري في شارع الكورنيش بأحر ماعده . ضحكاته عصبية
للصرخات الحاتفة من اندفاع البز وسط السيارات والحناطير وعابري
الطريق . يعيل البز ، فتعلو الصرخات للتصور أنه سينقلب على الحصان ،
وعلى راكبه ، وعلى الناس في الطريق . حتى في المفارق لا يحاول التقليل
من سرعته ، تسترعى يده على اللجام في اعتزاه الميل إلى ميدان أبو
العباس . للسلطان احترامه الذي يرفض الاجترأ . يمشي أمامه متمهلاً ،
ويقراً الفاتحة . لا يصلي ولا يصوم ، لكنه يخاف أدية السلطان . يعرف
قدره . ويؤمن بكراماته ومكاشفاته ، ويؤمن بكرامات وشعاعات الأولياء
الذين يمر على أصرحتهم ، في طريقه إلى الاسطبل . بعيد قراءة الفاتحة ..

قال صابر :

(١٤٥)

- اليوم السبت .. هل نذهب إلى سبورتنج ؟

حججه بنظرة متسائلة :

- لماذا ؟

- سباق الخيل ..

وهو يبدأ في ارتقاء السلم :

- سباق البنز على الكورنيش أجمل !

دفعت بالصنفة :

.. هذه ملكة البحر .. وشوشها ..

قال صابر :

.. أريد أن لووشوك أنت ..

تظاهرت بعدم الفهم :

.. أثنوف بختك ..

غمز بعينه :

.. أعرفه ..

حبكت الطرحة حول رأسها :

.. فمادا تريد ؟

وهو يتأمل الحال الصغير ، رسمته بالكحل على خدها :

.. أرينك أنت ؟

ثبثت جسمها ، لتنفذ مداخلات يده في صدرها :

.. أنا لا أريد ..

امتاحت أعصابه :

.. سادف مانتطلين ..

لحقت شفقتها بطرف لماتها :

.. هل تقوى على مهري ؟!

ضربته على فخذه معانئة ، فتهايا لدخول الحجوم ..

قدم عرضة ، ولذمت عرضها ، سبقها إلى المخزن ، موى المرتبة .

لزعزت الشيشب - بتلقائية - وتعددت إلى جانبه . أهمل راحة عرقها ،

وأهملت راحة الأسطبل المعلقة بجسمه ، ومزق البرسيم ، وروث الحيل ،

والمياه الحظنة ..

استسلمت لقلبه ، انتقلت من شفقتها إلى صقها ، فصدرها . وغادر

النورس تحنيقه فوق الشاطئ ..

عجوبة

نبين زين ا..

استوقفه النداء . تصور المرأة ذات اللستان الأسود ، المكشكش ،
والطرحة ، والتفة فوق رأسها ، وحلقة الذهب العائسو معروسة في الأنف ،
والوشم الأحصر أعلى الصدغ ..

كان يتمدد في استرخاء القبلولة . اعتذر للرجل الذي لطل وقفته أمام
الاسطبل بأل الفكرانيج سليمة . المعلم التتوي يرفض أن ينزل الكرباج من
أيد على جسم الحصان ..

قال الرجل :

.. أنا أفعل الكرباج لزوم قيادة الحانطور ..

أشاح صابر بيده :

.. عد مرة ثانية .. قد يوافق صاحب الاسطبل ..

تنبهت لإشارته في وفقتها القصيرة أمام الاسطبل . همت بالتعود على
الباب ، ثم فطنت لما في باله ..

النافذة المظلة على الاسطبل معلقة ، وشارع السقالة يحلو من
العنزة ..

مصنت - مبسمة - إلى الداخل ..

.. إرم بياصك ..

نس يده في جيب البنطلون ، وأخرج تحريقة ..

بشتر مذخورا ، وفزت المرأة تنفض العليق عن فستانها الأسود ،
وتعالب الارتباك ..

لم يعد المعلم التميمي . صار شيخاً زاعقاً ، صاحباً ، مخيفاً . يهوى
بالكرباج في تلاحق ، على صابر المنكوب حول نفسه ، يتقى وصول
اللمعات إلى وجهه بقلبه في التبن ..
كان الرجل يصيح بأخر ماضيه :
- هذا مكان أكل عيش ..

نزلت الست جمالات بقميص النوم ، وحافية . خالت لى يموت صابر
في يد المعلم :

- تروح فيه ؟!

وهو يتنفس من الغضب .

- أنت لا تعرفين ماذا فعل ..

قالت في هدوء :

- أعرف ..

أردت لمطرة الدخشة المتسائلة

- رأيته وهو يتسحب بالمرأة إلى داخل الأسطبل ..

بصق القص من فمه :

- وتسكتين ؟!

دون أن تجاور هدوءها :

- هل أتم الناس ؟! .. إنطورت حتى تأتي .. لكنك سبقت ..

ثم وهي تربت صدره :

- لا تفعل هذا ثانية .. أطرده ولا تقتله !

لم يكن الاستعاء عن صابر مما يدور له ببال . منذ أوصى حمادة بك
على صابر ، وهو يعتبره جزءاً من الأسطبل . تركه لهم شقيق عدد السيد
والمتظاهرين في ميدان المساجد ..

يطمه . ثم تركه . بحاسبه في عودته إلى البيت كل مساء ، لو - إذا تأخر -
ظهر اليوم التالي ، لاسأله ..

هل فتحت القفلة المضممة عنيبها

أعلن الرجل غضبه لأن العجربة أسلمت نفسها له داخل الأسطبل ..
هل يعرف أنه - صابر - يصعب امرأته إلى بيت الأسطي فتحي الخياط ١٩ ..
طلبت أن يعد لها حانطوراً ، ويأخذها في مشوار إلى شارع قنو
الملاح ..

أمام بيت يعرفه ، قالت : قف . فوقف ..

قالت في لهجة معتزة ، وهي تصعد الحانطور :

- تأخرت عليك ؟

ثم أومأت برأسها ناحية البيت :

- في هذا البيت أقارب يرفض المعلم زيارتي لهم ..

جذب لجام الحصان . لم يحاول الرد عليها ، أو حتى النظر نحوها .

البيت للأسطي فتحي . التقى به وهو يحمل شعرات حصان ، عالج بها
سكان الطابق العلوى زوائد سبط . عرفه ، وسلم عنه ، ودعاه للدخول ..

ظل كان العلاقة معلقة لأشهر طويلة ، منذ وفاة صاحبه . ثم ظهر
هلى بابيه المفتوح ، يشرف على تجهيز الدكان ، وغفل مأكية للخياطة
وترابيزة التفصيل والكراسي . عرف أن الدكان تحول إلى تروري عربي ،
يحرك الحبيب والقفاطين والأحزمة للشاهي . معظم زبائنه من مشايخ الحسي ،
الأئمة والقراء وطلبة المعهد الديني ..

الأسطي فتحي يقف وراء الترابيزة . المازورة على كتفه ، والمقص
في يده . يحتر بأنه يجري بالمقص في القماش دون " باترور " . طلب منه
- فيما بعد - أن يأخذ باله من الدكان ، حتى يقصص حاجته في موصة سيدي
لعسر الدين . وتبادلا كلمات سريعة ، حول الجو ومعارك البوليس
والمتظاهرين في ميدان المساجد ..

لم يكن يبدو أن مساقه المهيضة تصابقه . يتساند على المكائر
ليرقصها ، وإن كان يطلع في مشيته ، رغم المصا التي تمسق خطواته ..
لما تعددت المشاوير ، صار — دون أخذ ورد — أميناً على مرها .
ينقل إليها مواعيد الأسطى فتحي . ينقل إليه قبولها ، أو اعتذارها . يطمس
التميمي إلى خروجها مع صابر ، فلا ينشغل إن تأخرت ..
حمل إلى الأسطى فتحي — في الدكان أو في الشقة — طعام العشاء .
عمود من ثلاثة طوابق . عرف — دون أن تحذره جمالات — أن معرفة
المعلم للتميمي بالأمر ، يعنى طرده من الأسطى . يأخذ الرجل العمود .
يقرعه في ألوان ، ويعيده . لا يحمل صابر رسائل إليه منها ، ولا يحمل رسائل
منها إليه . يكتفى بالسلام ، ورد ، ويحود ..

لم تحدثه عن العلاقة بينها وبين الأسطى فتحي . هل هو قريبها ،
أو مجرد عشيق ؟ .. ولم تأمنه على سر العلاقة باعتبارها كذلك ..

فترغم الست جمالات عن ابتسامة واسعة ، فبدت أسناتها غير المتسقة :

— هل جدت ؟! .. امرأة داخل الأسطى ؟!

وقلبت شفتها السفلى :

— ولوق طيق الحيل ؟!

ولكتفى وجهها جذية :

— إن أستطيع إقناع المعلم ثانية أن يعفو عنك ..

ثم وهي تصعد الدرجات إلى داخل البيت :

— عجوبة ؟!

ذبالة

قال عباس الحوالة :

— إذا لم تكن مهجة قد اكملت فرحتها ، فلا بد أن أعيد ليالي الفرح من

أولها ..

ليلة الحنة تمسق ليلة الفرح . تعلق الزينات ، ويعسى العوالم ، وتُرف

العصوية في شوارع المبالاة ..

ظلت مهجة على صبتها . تتناح الكلمات والتصرفات بعينين تلهتين ..

صحبته أمها — والشمس في الأفق الشرقي — إلى الشيخ عبد الحفيظ ،

إمام سيدي على نمرار . تلا فوق رأسها آيات من القرآن ، وردد أدعية ،

وتعلمي لها الفلاح . ثم كست أم محمود بيت العروسين في شارع سيدي

كظمان . من الباب الخارجي إلى داخل الشقة . حتى يلكونة العصور المظلمة

على خرابة ، جمعت ماكان فيها من أوراق صعيدة ، وحرافته . وقرأت آية

الكروسي ، وحوالت ، واستعانت من الشيطان ، ودعت للعروسين ، وهي

ترش الشقة بالملح ..

أسلمت مهجة جسمها ليد رمزم للداية ، تنزع الشعر عن الوجه ،

وتحت الإبطين ، والساقين ، والعمالة . ثم تجرى بالجلسرين والليسون

والكريم . لم يكن في ذال مهجة شيء . كل الأمر لا يهونها . كأنها ليست

هنا ، أو أن الجسد ليس جسدها ..

(١٥٢)

شدت الحوالة على صبيانه فى شوائهم للحنة من سوق النقالين . أن
تكون بلدية . لوئها فاتح ، وخواصها معروفة ، بعكس الحنة الإفريقي أو
البغدادي . أزهارها باهتة اللون ، ولا تستخرج من شجرة الحنة . خليط
نباتات يصوب الشعر بالجفاف والتقصف ..

أصر الحاج محمد صبرة أن يتولى بنفسه تحنئة يدى وفتى المريس ،
وحلاقة شعره ، وإعداده للزفاف ..

— أعود لما نسبته من أجل عينى للحوالة ..

زادت أم محمود من ثر أوراق الحنة الجافة على العتبات ، ودخل
البيت . تلحقها بأدعية تطلب البركة والصور . وتصوع البخور . اختلطت
روائح المسكدة وعين المغرب والحنيث والكسيرة وعرق الحلاوة والشبّة
وكياسة المطار ..

صايقها أن الحاج قنديل لم يُلْزَمَ لأولاده بحضور ليلة الحنة . لما
وجه عباس الحوالة دعوته ، اعتذر الحاج قنديل بأن المرض أقعد المرأة ،
فهى لاتعادر البيت إلّا للطبيب ..

قال مصطفى :

— المريس أهدانا حنة ممتازة ..

وضعت الصينية داخل قانوس كبير من الأوراق الملونة . غرست فيها
أكواب زجاجية مملوءة بالزمل ، بكل منها شمعة ..

مضت الترفة فى شوارع الحى . تتوقف أول كل شارع أو حارة .
تحصل على التحية من الواقفين على الأبواب ، وفى النوادر ، ودخل
الدكاكين . يوضع القانوس فوق كرسي مرتفع . يرقص الأولاد والنبات
حولها ، ويسون :

ياخلوة ضمى اللّمة ورينى شمورك ورينى

لتكونى فرعة تغشيتنى شمرك حلو عجيتنى

ياخلوة ضمى اللّمة ورينى رجلك ورينى

(١٥٣)

لتكونى عرجة تغشيتنى رجلك حلو عجيتنى

ياخلوة ضمى اللّمة ورينى عينك ورينى

لتكونى حولة تغشيتنى عينك حلو عجيتنى

قال عباس الحوالة :

— هذه حنة فلاحين .. غوا حنة الصيادين ..

قالت أم محمود :

— لا يوجد حنة فلاحى وصيادى .. أغنيات الحنة للجميع !

وتعلت أصوات الأولاد والبنات :

الحنة يا الحنة .. يا قطر السدى ..

يا شباك حبيبى يا عينى .. جلاب الهوا ..

مصى الموكب من ميدان أبو العباس إلى حارة أبو يوسف . قبل أن

يميل إلى السيلة ، أوقفته صيحة مفاجئة :

— انتظر !

توقف الموكب عن العناء ..

اتجهت الأعين المشدودة ، المتسائلة : الحائفة ، إلى المنظر الذى

حمله الرجل : كرسي صغير ، عليه صينية مستديرة ، فوقها شعوم

مضادة ، وحنة مجونة ، ورصت فى جوانبها ورود ..

قال وهو يضع المنظر على الترابيزة :

— هذه الحنة هدية المعلم حنفى قابول ..

قال مصطفى الحوالة :

— معنا الحنة ..

قال الرجل :

— انبى قبل الهدية ..

قال مصطفى :

— الحنة معنا تكفى وتزيد ..

قال الرجل بلهجة ذات مغزى :

— هل أعود إلى المعلم بهديته ؟ ..

همس محمود الحوالة :

— ألم ينته عهد الفتوات ؟ ..

قال مصطفى الحوالة :

— أستطيع أن أحطف رجلى إلى نقطة الأنعرشى ..

أدرك عباس الحوالة مايعنيه الرجل ، قال لتفوت الليلة على خير :

— هدية المعلم حتى قابول مقبولة ، جميل أن يضع العروسان نوعين

من الحبة !

الخوالة بطلب الطلاق

خلا شارع السبالة من العارة . الأضواء الباهتة ، المنبشة من أحصنة
فلواذ طريق تكوينات متداخلة على الجدران وأرض الطريق . لا صوت سوى
وقع قدميه فى الأرض الموحلة . لمخ مطعم للتبلاء مولياً . خلا من الرباش ،
وللكراسى مقلوبة فوق الطاولات ، وسلامة مشغول بتقطيع الخصار . وثمة
كطآن علا مولاهما ، وهما ينشآن بقايا سمك ، وعريات يد ، صفت فى جانب
الشارع ، نفت بمشمع وحبال تصيب التعرف إلى ما بها ..
كانت لهوة الرردونى قد أغلقت ثلاث ضلف ، بينما فتحت الرابعة ،
المواجهة للنصبة ..

جلس فى الركن أربعة ، اثنان يلعبان الكوتشينة ، واثنان مشغولان
بالحديث . تبين حميس شحان بشعره المنكوش ورقبته المنقصة فى ياللة
الجلابية . وثمة تكوينات ، فى السقف والجدران ، تشكلها اهتزازات الضوء
المرتتش للمبة المتدلنية من السقف ..
الترب ، فتعرفا إلى الثلاثة الآخرين ..
لقى تحية السماء ، وقال :
— أريدك بأحمادة بك فى كلمة ..
سأل عنه فى الأماكن التى يتردد عليها : جامع أبو العباس وقهوة
فاروق ووكالة درويش بشارع الميدان ..
قال الحاج محمد صبرة :
— اسأل عنه فى الرردونى ..

(١٥٦)

ثم في صوت متعجب :

— أعلن اعتزاضه تحول الانتحابات ولم يدخلها .. وها هو ذا يعد
لانتخابات قبل أن يحل البرلمان القائم !
بدا عباس الحوافة مهموماً بما لم يعمده من قبل ، العصبية واصحة
في ارتعاشة أصابعه ، وبريشة عيبيه ..

تمالت — وراء الباب المعلق — نقات الطبول والدعوف وأصوات
الطاسات والصاجات والأعاني والصيحات والنداءات والرهرايد ..
نزع فؤاد أبو شنب الطربوش . قذف به في فراغ الحجرة ، ثم بدأ في
فك زرار الجلالية . تجرد من ملابسه . دعا مهجة للتخلص من ملابسه .
طلت قاعدة على طرف السرير . لامس صدره طهرها ، ولثم كتفيها بقبلة
طويلة

أعدت نفسها لحطوات رغبها أمها . أغلقت باب حجرة نومها من
الدخل . جلست على كرسي التسيريحة ، وأنارت إلى مهجة ، فجلست على
طرف السرير ..

— الليلة نبدأ مسئوليتك في تكوين أسرة جديدة ..

ولامست صدرها بأصابعها :

— من ناحيتي ، أنا لم أقصر معك في شيء .. تستطيعين القيام بأعباء

بيتك بمفردك ..

ثم كأنها تظمن :

— أليس كذلك ؟ ..

هرت مهجة رأسها مؤمنة ..

فألت لم محمود :

— مسئولية البيت ليست طمحا وكسفاً فقط .. فلترحل حقوقه ..

واختصت شرود البيت :

— المرأة هي شرع الله مجعولة لزوجها ..

/ (١٥٧)

ودخل صوتها ارتباك :

— عليك أن تعطى لزوجك من نفسك كل مايطلبه ..

وحذقت فيما لا يرى :

— هذه هي سنة الحياة ، وهي الطريقة التي أنجنتك بها أنت
وإخوتك ..

وربتت فخذ مهجة يرافق :

— ألق لك ستحسين التصرف ..

ثم وهي تعالّب — للمرة الأولى — عيمة دمع في عينيها :

— دعواتي — ياغالية — أن يحفظك الله في نفسك وزوجك وأبنائك بإنه
تعالى ..

ناحت مشاعر فؤاد أبو شنب حين أجابت في ندائه عليها : يا هشام . ثم
التمس لها العذر في خطبتها الطويلة لأن المعلم كشك ..

وصنع ذراعه حول وسطها ، فابتصت . جندها — بعضاً — نحوه .
شهقت — للامعاجاة — وتملتت إلى أسفل .

اشبع بحوها ..

مد يديه ، يحاول أن يدع ثديها . قامته يديها ، وبالصرحات
المكثومة ..

هستت لأمها :

— أنا لا أحبه ..

قالت أم محمود بلهجة بانزة :

— هو بحثك .. وهذا يكفي ..

— لكنني لا أحبه .. أنا لا أعرفه ! ..

— ومنذ متى تحرف الفتاة زوجها قبل الزواج ؟ ..

ثم وهي تربت كتف مهجة :

— بعد الزواج تأتي المعاشرة .. والحب ..

لثقب دراعه حول حصرها ، واجتنبها بحوه بقوة . مالت برأسها ، وأعلى صدرها إلى الحلق . لحق رأسها برلحة يده اليسرى . فحنت أعنابه اللاهئة في مهما المفتوح ..

هرى على شفتيها . قبل شعرها ، ووجهها ، ورقبتها . بحثت أصابعه عن أصابعها ، تدلحلت فيها . زلذ من صغطه على صدرها . ابتلع شفتيها في فمه . طلقت شفتاها مصمومتين ، وهي تحاول التملص ، ثم استطاعت دفعه بأحر قوتها ..

تلازمت الصائح والهمسات من أفواه السماء والبنات ، منذ بدأت التزيين في ليلة الحنة . أعدها الكلام - بين الجد والدعابة - لمواجهة ليلتها الأولى . تبدل المشهد بما لم تكن تتوقعه . غابت التصورات في الوجه المتكلس العلامح ، والعينين المحتشيتين ، والشارب المرتعش فوق شفتين ممثلتين ..

همست في صوت متحضرح :

— إذا القريت .. سأأكل نفسي !

في هتوه محجف :

— هذا شأنك !

حاول - ثانية - أن يجذبها إليه ، لكنها انتزعت ساعدها من يده . أطارت - في اندفاعها - طبق الفاكهة على الترابيزة المجاورة .. اندفعت نحو الباب ..

مد قدمه ، فتعثرت ، لحقها وهي تسقط . رفعها من كتفيها ، وأدارها ناحيته بقسوة ..

تراجعت حتى تساندت على الباب ، ونكورت على نفسها ..

اقتراب بجسده العازي ، ولهائه :

— مكسوفة من زوجك ؟!

احتواها بين ذراعيه . مال بوجهه عليها ، يريد تقبيلها . صربت بلهضيها صريبات متلاحقة . علا رأسه ، فتملصت ثانية ، ونفخته بقدمها . لعثر ، وسقط . تساند على أصابع يده ، وهو يرميها بعصب مشتعل :

— من تطبيني ؟!

قفر بضفته . خرشت بأظفارها وجهه وعنقه . عصته ، فلم ترفع أسنانها حتى تأوه ..

انطلقت الصرخة من حلقها ، قبل أن يكتم مهما برلحة عريضة ، متقلصة .

لوى شعرها في قميصه . دفع برأسها في الصائط . فنجأ ما بمالم تكن أعدت نفسها له ، وألمها . تحملت وهي تكي . كسرت على أسنانها ، وتأوهت ، وصرحت ، وحاولت التملص .. لكن أصابع يديه كانت قد تشابكت حول صدرها من تحت إبطيها ..

تذرفت شغفاه الطعم الملحي لدموعها . قال في صيق :

— هل هو فوح أو ماتم ؟

ثم وهو يرتدى ثيابه :

— أنت حلالى .. من حقى أن أفعل بك ما أشاء !

تركت البيت فور خروجه ..

حمدت الله أن أباهما نزل الحلقة : فروت لأמה ..

هتف عباس الخوالقة - بعد عودته - لكلمات المرأة الهامسة :

— لابد من تطليق البيت !

ثم قال لبطرة عتاب صامئة ، حذجته بها المرأة :

— أخطأت لما قبلت تزويجها له .. والخطأ مردود !

قل حمادة بك :

— أنت لم تمسلى قبل أن تولق على زواج ابنك من فواد أبو شنب ..

رفع الخوالقة في ضيق :

— ذلك موضوع انتهى !

قال حمادة بك :

— امنحني فرصة لحل المشكلة بالود ..

غالب التردد . ففُت عن الكلمات التي تشير إلى فلة فرجل . هر

رأسه في جسم :

— لا فرصة !

هل أقطع دراعى من أجل امرأة ١٢ .. أصوات الصيادين تهمنى ،
وهو أبو شنب هو المسئول عن القرن قبل وفاة أبى ..

— فوت هذه المرة يا عباس . الطلاق لبعض الحلال ..

رماه الحوالة بنظرة لم يهدها في عينيه ..

قال لينهى الموقف :

— أعدك بدفعه إلى تطبيق الست ..

قال الحوالة :

— هذا كل ما أريده ..

ثم وهو يتهيأ للقيام :

— لا أريد إلا لبتى !

الشوطة

قال الحاج قنديل ، وهو يجول نظرته في أرجاء الحلقة :

— التهم إنا لا نسالك رد القضاء ، ولكن نسالك اللطف فيه !

حلت من الحركة . لا أحد ، إلا أربعة رجال انشغلوا بصف الطبيالى

القليلة ، المتناثرة ، وهواء الصباح الحريى ، أثقلته رطوبة خانقة . اختفت

التقطط . كانت تصطدم — أيام العمل — فى الأرجل والطيرالى والمشنات

والطاولات والكراسى . وثمة كلب أقمى فى المنحل ، تدلى لسانه ، ولهاثة

مرتفع ..

قال فى نبرة متعصية :

— من أين جاعتنا هذه الشوطة ٢ ..

قال خميس شعبان :

— يقال لى السبب أغذية ملوثة فى معسكرات الإنجليز بالتل الكبير ..

وهو يهز رأسه :

— المسافة بعيدة ..

قال خميس شعبان :

— لهذا قينوا حركة المواصلات ..

استلمى — لصعب الموق — عن ثلاثة من موظفيه ، كانوا يسجلون

حصيلة بيع كل يوم فى الحلقة . لاحظ حملات مفتشى الصحة ، بصاندرين

الغداء المكشوف .. الخبز والمضار والفاكهة والمشروبات غير المعبأة —

يقذفه العمال فى عربات البلدية . أنصت — مذهولاً — إلى ما روته الصحف

عن دفن الموتى في الجير ، والجزازات الجماعية في المناطق التي دخلتها الشوطة ، وإشعال النيران في الأماكن الملوثة . حتى البيوت حرقت بعد أن دفن أصحابها في الجير ..

ألف الناس رؤية عمال الصحة ، يأتون بعبائهم ، أو على الأقدام ، يحملون أكياس صمغ ، ويمسكون بأطراف الحراطين المتدلية منها ، يرشون الشوارع ، ويدخل البيوت والدكاكين والقهوى ، لانتشعهم تأففت الناس ولا اعتراضاتهم ، يغفرون كل شيء بلون رمادي ذي رائحة معيرة .. شكوا المعلم أحمد الزردوني من أن البلوغ تدخل المنياء ، تقتل أياما دون أن تحصل إلا على حاجتها من الوقود . أما الماء والطعام ، فالخوف من الشوطة يمنع شراءهما . حتى البحارة والركاب يظلون في البواخر . لا يزلون منها ..

داوم عباس الحوافة على شرب الليمونادة ، ونصح بها أم محمود والأولاد ..

لحقه محمود بعامود الطعام . حذرته أم محمود من تناول أكل السوق ، أو الأكل مع الرجال ، وحذرته من العدوى في الحقة والقهوة والطريق ..

تناقلت جلمات القهوى مائثرته الصحف عن القى والإسهال وعصائر المعيشيات ، وابتلاع الجير الحي جثث الموتى ، والعلامات على أبواب البيوت التي دخلتها الشوطة . وروى حميم شعبان أن الحكومة استولت على مجبرة عم سعد بشارع اسماعيل صبرى ، تصمبا للخطر ..

شالبت خطوات محبى قبطان الارتباك ، وهو يقترب من قهوة الزردوني :

— الموت وصل بحرى 1

أردف للنظرات المتسائلة : الحادثة :

— ظهرت حالات كوليرا في رأس النتن ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

— لكن مكتب الصحة لم يبلغ بحالة واحدة ..

قال محبى لبطان :

— هذا ماعرفته الآن من صابر الشينجى ..

قال الجد السماوى :

— جاءت البهضة في القرن الماضى ، فلم تقتل أحداً ..

سأل حمودة طلول :

— ماالبهضة ؟ ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

— الكوليرا .. الشوطة .. البهضة .. كلها مسميات لمرض واحد ..

لم تعد مسيرة كوم بكير تأتي على لسان ، أريد الخوف تصرفات الرجال . من البحر إلى الحقة ، وإلى البيوت . قلت أعداد المترددين على قهوة الزردوني . لرم الرجال — معظم الأوقات — بيوثهم . وعلا صوت المعلم أحمد الزردوني بالصيغ من الحوف والبطلة . وقال في برة حرية : حتى العمل في الجمرى والمنياء ، قل تماما .. وقلت حركة المغادرين والوالدين ..

قال حمادة بك لغواد أبو شنب :

— غط المعين يافواد ..

ثم وهو يمسح القرن بنظرة قلقة :

— غط الغيز أيضا ..

لم يعد رجال التموين يكتفون بوزن الخبز ، وتحليل المعجين . يصادرون الأربعة لأنها مكشوفة ، يقدون بها في عربات البلدية ، لإعدامها ..

قال أبو شنب لطاطا الغران :

— غط المعجين ..

تساعل طابعا مازحا :

- ليسلم من العين ١٩..

قال أبو شنب :

- بل ليسلم من أدى مفتشى الصحة ..

ثم في نبرة ساحطة :

- كل أكل ظاهر يدممه أولاد الحلال !

تتفص الجميع الخطر . اتقوه في المصافحة والطعام والماء ، وفي قتل

الذئب . يشكون في أى فن أو إسبال . ولما شكوا قاسم الغرياني من صداع ،

حدجبه عبد الوهاب مرزوق بنطوة ثوجس ، وغادر قهوة الزردوني .

وضع حمادة بك - في مدخل البيت - صينية ذيتول مذاق في الماء ،

يحصل فيها الجميع أيديهم عند عودتهم من الخارج . ومنع ولديه من الذهاب

إلى المدرسة ، وكرم بيته إلا لمشاوير قصيرة . لم يعد يتردد على أبو

الحباس ، وجلسة الحاج محمد صبرة ، والقهواى . ولتمتع عن مصافحة

الأيدى في الطريق . قرر أن ينتظر حتى تزول اللغة . حتى الأصوات

المصاحبة في داخله ، ألق في كتفها ..

أصغمت هبة ، بنت هريدى بلتع الفاكهة أول شارع الأباصيري ،

عربها ، وضمت شفتيها ، فقال لها عادل عبد الوهاب مرزوق :

- أنا أحبك ..

ورشى صوته بحوف :

- أخشى من عدوى الكوليرا !

تحركت أنفاس الوباء الغامض ، الغريب ، في الشوارع والميادين

والحواري والبيوت والدكاكين ، وفي جلسات القهاوى وعلى الشاطئ .

وخلا شارع الميدان من الباعة . ومالت عربة المبيدات الجو بغللات

بيضاء ، متوالية ..

تحدث إمام أبو العباس في درس المغرب ، عن فوائد اللبوس في

الوقاية من المرض . وقال الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع على تراز في

خطبة الجمعة ، إن ما يحدث سببه نسيان الله والدين والشرع ، والإقبال على

الدنيا بالحق والباطل . وقال :

- لقد أصبحنا محاصرين بالموت ، ولاتجاة سوى بالإخلاص في

تفوجه إلى الله ، إن لم تأتينا فصل من التلطيف الرحيم ، فإن تحلل الجسد في

الجبر الملتهب لنهاية تنتظر أجسامنا .

وحذر من أن الشوطة ربما تأخذ الناس كلها ، وتقوم القيامة 1 ..

تمالت التحذيرات من أكل الجنودولى وألم للخلول والجنديرى ، وعاشى

هم محمد الطوشى كساد بضاعته ، فلزم قهوة كشك ، لايفانرها ..

لم يعد عبد الوهاب مرزوق يطبق رؤية الدياب . دبابة واحدة قد تنقل

الوباء إلى أسرته كلها ، ووزع أقراص الدواء على جلساء قهوة

الزردوني ..

تلاحقت أمواج التنبيهات والشرق والحقوف وللتدافع . تصاعد

البخور ، يحشى البدايات والناس والأشياء ..

قال قاسم العربي :

- حتى الرجل الطيب الحاج محمد صبرة ، أخذته لومة ، فراح يعمل

بمقصه في الهراء أمام الدكان ..

وداخل صوته إشفاق :

- المسكين ..! يريد أن يقص الميكروبات قبل أن تدخل دكانه !

تزام الناس - طلبا للمصل الواقى - على مستشفى الملكة نازلى ،

ومكتب الصحة بشارع فرنسا ، ومستشفى رأس التين . تزايد الضغط ،

فانفرطت الصفوف . علت الصيحات والصرخات أمام الباب المغلق ، لا

يفتح إلا لاستقبال خمسة أشخاص . يطل معلقا حتى يحصلوا على الطعم ،

يفتح الباب لخمسة آخرين .

قال صابر الشبلجي :

- أنا لم أأخذ الطعام ، ولازلت حياً ، مع أني لا أغسل حتى يدي ..

بصق جمودة هلول ناحيته :

- الله يقرئك !

قال صابر في دهشة :

- ولماذا الطعام ؟.. المرض إذا دخل الجسم لن يستطيع الأطباء فعل

أى شيء !

منع حمام الأنغوشي تردد الصيادين عليه . قصر دخوله على الموطنين وتلاميذ المدارس للاستحمام ، ولتطهير ملابسهم لقاءً للوباء . يصرفون لكل مستحم صابونة ، لأعيدها . اكتفى الرجال بالتزول إلى البحر .

ضربت أم عادل صدرها بيدها :

- ابني لا يذهب إلى حمام الحكومة ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

- كل الأولاد يذهبون ..

وهي تنقص للزراغ :

- إلا ابني !

تحيرت مسمته بضيق :

- على رأسه ريشة !؟

- إنه ليس وسعاً لينظفوه ..

قال الحاج محمد صبرة :

- هذه أماعيل الإنجليز .. وإلا لماذا ظهرت في القرين أولاً ؟!

قال المعلم أحمد الزردوني :

- قيل إن متعدي نقل الزباله باعوها للناس ..

قال الحاج محمد صبرة :

- الإنجليز يعرفون ذلك .. وقد دعوا المرض في الزباله ..

ثم بلهجة ناصحة :

- أنا أغسل كل شيء باليرمنجانات ..

قال المعلم أحمد الزردوني :

- والماء ؟.. قيل إن التلوث أصابه ..

قال الحاج محمد صبرة :

- أنا أغلى الماء أولاً .. ثم أتركه يبرد ..

قال الجد السحاي :

- بركة الأولياء مستفاداً من هذه الشوطة ، مثلما أنقذنا من حرب

هتلر ..

تسللت رائحة البخور ، قوية ، نفاذة ، من تحت الأبواب ، وأخصه للنواكذ ، وشقوق الجدران ، تملأ الجو والفرارات المعلقة ، تتسلل داخل الأجسام المتصة ، الخائفة . ترابنت ، وتسمعت ، حلقاات الذكر . علت الأصوات بالوجد والخوف والأدعية . صاقت ساحات الجوامع بالمصلين . فرشت الحصر في الميادين والشوارع الجانبية ..

صعد الشيخ قرشي قارئ جامع سيدي على تماراز إلى أعلى المئذنة ، ولئن في غير وقت . ثم دعا الله برفع الوباء . فلهذه - في اليوم نفسه ، وفي الأيام التالية - قارنو جوامع الحى . حتى الزوايا ، صعد إلى أسطحها من لذن ، ودعا إلى رفع المقت والتفصب عن عباد الله الصالحين ..

فرد جابر برغوت ورقة أمامه . كتب عليها أدعية وإشارات وأسماء الله الحسنى وأسماء بعض الملائكة وآيات من القرآن الكريم . ورسم أشكالا للإنس والجنان والحيوان ومربعات سحرية ..

راى جابر برغوت سلطان الإسكندرية يقف أعلى المئذنة ، يطل - بنظرة مشفقة - على بحرى الساكن ، المضطرم ، من تحته . راح يهز رلحتيه إلى أسفل ، ويرفعهما ، وهو يتعمد بدعوات غابت في القضاء . لمعدت . ثم مسح على جبينه ، ودخل إلى المئذنة ، فلم يظهر بعدها ..

أيد رواية جابر برغوت رجال ونساء ، تصاليف مرورهم في الميدان ، أو كانوا جالسين في الحديقة المقابلة للجامع ، أو في القهوة على ناصية شارع التتويج ..

(١٦٨)

قيل إن الشوطة ابتلعت المئات في المدن والقرى البعيدة . منعت
بركات السلطان دخول الشوطة من مديرة البحيرة . ظلت الإسكندرية
آمنة ، حتى زالت الشوطة من البلاد كلها
...

الخدمة في ساحة الظهر

لحقه صوت صباير الشبلنجي وهو يتجه إلى قلب السيلة :

- البقية في حياتك !

- من ؟

قال الشبلنجي في نبرة متصعبة :

- مصطفى عباس الخوالقة ..

هتف قاسم العرياني :

- محمول ؟ !

في تصعبه :

- مات عدد أحواله في دمنهور ..

وأغصن عينيه :

- الشوطة ..

نطق الألم في وجه العرياني :

- ماذا كان يفعل هناك ؟

قال الشبلنجي :

- ضابطته آلة الشغل في الحلقة .. فسافر إلى أحواله ..

وتنهذ :

- ليموت عندهم ..

ثم وهو يغالب التأثر :

- عمره ؟ ! ..

قال أبو الحسن الشاذلي :

صعبي إنسان ، وكان قبيلاً علي ،

فباسطه فانيسط ، وقلت :

- ياولدي .. ماحلجك ، ولم

صحبتي ؟

قال :

- ياسيدي .. قيل لي إنك تعلم

للكيمياء ، فصحبتك لأتلم منك ..

قلت :

- صدقت ، وصدق من حدثك

.. ولكن أخالك لا تقبل ..

قال :

- بل أقبل ،

...

* لو كشف عن نور المؤمن

العاصي لطبق ما بين السماء

والأرض ، ولما الأوار التي أذن لها

في الدخول ، فهي خاصة بالحواس

أهل التفرغ من الأشجار .. فأما من

كان قلبه محشواً بصور آثارها ، فلا

يطمع في نيل أسرارها * ..

حلاقة . تلوح بها في وجه المرأة . تعانجها - ثائبة - عندما تجرى بالشفيرة على خدها ، فينتثر الدم . قد تلجأ إلى التبعة : تعانج المرأة بشد شعرها ، تلح المرأة على الأرض ، فتترك فوقها ، تغمشها وتعضها وتضربها بأخر ماعندها . أحفي الناس عنها خصوصياتهم ، فلا تحصل على ما قد تستحقه منهم ..

أعطأت لما وكفت أمام بيت حسن درويش ، صاحب وكالة الاستيراد والتصدير بشارع الميدان . خرج لها نبالوه . أحطن بها ، ولوين ذراعها ، قبل أن تغفل ماتتهم به . لم يتركها إلا بعد أن أغمست على الشمس الحرة أنها ستعجز الردح ! ..

جلست - أشهر الدراسة - أمام مدرسة البوصيري الأولية ، يتبع للأولاد الصلبة والندق والنوم . ثم لغت جسمها برداء أسود ، والتفتت بشال أسود ، وجلست في ميدان المساجد . لاتستقر في مكان بالذات ، لصق حذار للمرسى ، أو أمام باب ياقوت العرش ، أو على سلام البوصيري المقضية إلى شارع التتويج ..

لا يذكر الناس كيف بدأ سعيها وراء الشيخ يوسف بدوى . اعتادوا - وإن غابت البداية - سيرها وراءه من البيت في شارع ابن وقيع ، إلى ياقوت العرش ، ورجوعه إلى البيت عقب صلاة العشاء . تلزم الرصيف بالقرب من باب الجامع . تستند ذقنها على يدها ، لاترفض الإحسان ، وإن حرصت الأتصال ..

ألف مربو الشيخ ترددها عليه . تسأله في أمور دينها ودنياها . تنظف ولغة بجوار الصريح حتى يراها . يستأذن من جلساته ويتجه إليها . تسأله ويحجب . لاتطيل سؤالا ، ولا يطيل جوابه . يعود إلى جلساته ، فبئس على إهماتها ونكاه أسئلتها ، وبئس أن يكون هذا هو حال نساء المسلمين . صلاحها أكسبها حريتها ، بعد أن كانت تباع قوتها وجرتها لمن يدفع الثمن .

ميزته - في عبثة الظلام - وهو يميل من ميدان الأتمة إلى شارع ابن وقيع . تبعته - كما ألقت في الأشهر الأخيرة - لاحقه - في مضاويره القليلة - بين البيت ورلوية الأعرج وأبو العباس . تتوقف إذا توقف لشراء ما يحتاجه من التباعة في ميدان الأتمة . فطن إلى خطواتها المتمسحة في الأرض . اتجه ناحيتها بنظرة مشقة :

- سيكون خيراً يا نفاقة ..

تهدج صوتها باللهة :

- هل وافق سيدى ..

أعاد القول :

- سيكون خيراً ..

عملت - لأعولم - ردلحة - تتقاضى للمعلوم ، وتقف أمام البيوت ، أو تحت المواقف والبلكونات . ترفع صوتها على آحره - مع إشارات وحركات بأصابعها ويديها ومقابها وكل جسمها - بعبارات متلاحقة من التستم والسب والمعايرة . حفظت الكثير من التعبيرات القاسية ، والعجة ، والبدنية ، لايشعلها من توجه إليه سبابها . تواجه بما لايقوى على رده . تطلق السباب أو التشتائم . تسمع العبارات ، تتغصها ، تمطها . تردح بمفردها . لا يعاوبها أحد . ربما استعانت بطيالة تراقق ردها بإلقاء منتظم . وقيل إن حمادة بك لجأ إليها للصوات في مأتم أمه . كانت تدرك أنها ربما تتجاوز الردح إلى للدخول في خفاقة . تعتمد على قوتها في رد المفاجأة . تحرمس فلا تتجاوز إحدات مسحات وكدمات وجروح سطحية وتورم . لم تكن تريد عن الردح إلا إذا انفتح باب البيت ، وولجعت من يريد إسكانها . تنهيه بخدش عفتها إلى كان رجلاً . فإن خافت قوته ، قبصت على حصيته بيدها ، تعصرها ، فتدفعه إلى التهوى على ركبته . حين لاتكون في قوة المرأة التي تردح لها ، تمد أصبعها في فيها . تسحب من تحت لبساتها شعرة

(١٧٢)

صنفت عن فكرة الزواج ، وانقطعت عن أسباب الحياة الدنيا . راقت حياة الشيخ ، فأزمت أن تنزل بالقرب منه ، لم تسأل نفسها : ماذا بعد ؟ ..
تملكها بقوة غيبية ، عجزت عن مخالفتها . أظهرت الخدمة والملازمة ، فلم تتحول عن باب بيته . لازمته ملازمة المريد للصادق لشيخه العارف ، يسير في ضوء تربيته ، وينهج طريقه لا يحد عنه ..
عرف عنها صدها لمن طلبوا الزواج منها . ترفض دون أن تسأل عن الاسم ولا المظهر ولا المكانة الاجتماعية ، كأنها مشغولة بمن لا يعرفه أحد . حين ألح عليها بصرى حميدة ، العاكهاني بأول شارع المواريني للزواج منه ، وافقت . بدا لها الزواج من يوسف بدوي أملاً مستحيلاً . لما دخل عليها بصرى ، جاءها الحوض . انتظر أسبوعاً وهم بها ، فجاءها الحوض . تكرر الأمر حتى أدركت أنها مكتوبة للشيخ يوسف بدوي ، فطلبت الطلاق من زوجها ، وعانت إلى ملازمة للشيخ . ثم فاجأت الجميع بزواجها من الشيخ . انتظرت على درجات أبو العباس المفضية إلى ميدان المساجد ..

لحقته بالهمس :

.. سيدي ..

تبيه لثالث نداء :

.. هل تصبدينني ؟

فطر صوته بالمسكنة :

.. نحتاج لمن يخدمك ..

حذجها بنظرة متوجسة :

.. هل أرسلك أحد ؟ ..

ربت صدرها بإراحتها :

.. بل أتيت من نفسي ..

وهمست :

.. خادمتك تقاحة ..

(١٧٣)

وهو يحك ذنبه بأظفاره :

.. بيتي صغير .. ولا مكان فيه للنساء !

رافت على شفيتها ابتسامة متكللة :

.. أريد دخول بيتك بالحلال ..

أطال النظر في ملامحها ، تحت النور الذي تريقه اللعنة الهائلة في مدخل الباب . بدت في حوالى الثلاثين . حكمت الملازمة حول جسمها ، وإن نالقت حمرة صبعة شعرها بشرتها السمراء . عيناها سوداوان ، تطلان من رموش طويلة ، يملوها حاجبان أجادت رسمهما ، وجسمها أقرب إلى الامتلاء ، يتسق مع طولها البادي ..

قال :

.. ربما لا أفرغ لحياتي كزوج كما ينبغي ..

هممت باللهفة :

.. وأنا أريد أن أتبعك في تفرغك لعبادة الله ..!

لم يرد على قول المرأة ، ولا أخذ منها أو أعطى . اكتفى بالقول :

.. فعل الله للحر ! ..

وهبط الدرجات إلى الميدان الواسع ..

أحد عنينا العهد ، لاتفارقه أينما حل وذهب . تتصرف إلى عبادة الله وخدمة الطريقة . تصبح واحدة من أهل الطريق ، يجرى عليها ما يجري على مريدته ، فلا تسأل ولا تترصن ، وتحيا معه كأنها مينة . أدن لها في صلاة استشارة ، لا خيار لها بعدها . تنذر نفسها لله ، يتصرف فيها على النحو الذي تقضي به مشيئته .

قبلت الحياة في بيت الشيخ دون زواج . تخدمه ، وتخدم مريدته ، لا تحصل إلا على طعامها . تاكل بعد أن يفرغ الشيخ من الأكل . تسأله ويجيب ، يشرح ما قد يعض عنها من حقائق . يرقى بتصورها درجات التصوف ، ولا ترى فيه ما تشتهي امرأة من رجل . غاب التنوير المحدد

(١٧٤)

لهجر المرأة حياتها . لتصاقها بالشيوخ كالطلل بزواج أو بدونه . حتى تبرة صوتها المرتفعة - ألقها أبناء بحرى - خفتت ، فصارت كالهمس . تتعد ما تطلبه عيناها ، أو إشارة يده . فبيت فى الوصال ، فصارت مقبولة منه . خمن أنها لم تكن عابثة ولا ماجة ، ثم مالت - من بعد - إلى حياة الزهد . هى - فى الأصل - طيبة ، لم تمارس الرذخ إلا كمهبة تنكسب منها ، كسبيل تحياه . ألم تكن رابعة العدوية بالعمة هوى ؟ ..

لما أن ألوان التوبة ، أنابت ، وأصلحت ، وعاشت متبثلة . عرفت الطريق إلى أعمال العبادات ، وملازمة الأذكار ، والسلوك بأسرار الحروف . وكانت تتحرف فى صلاتها بالكثيرة ، فتستغرقها . صار لها أرواد وسياحات وكثف ، وغيرها من الخصوصيات ..

ما يمع أن تصدق المرأة فى توبتها ، وتظهر روحها من العذابات ؟ ..

فأنت فى لهجة مستجيئة :

- هل يتوب الله على ؟ ..

قال يوسف بدوى :

- أنت لم ترتكبى كبيرة .. إنما هى وسيلة عيش اضطرت إليها ..

وهى تغطى وجهها براحتها :

- أُنيت بأما كثيرين ..

صحك ، وقال :

- إنها أذية إيمان .. تضعيع إذا تلقفها الهواء ! ..

أسقط من أذنيه الهمهمات : إلى المرأة مضت فى طريق الشهوات إلى غير نهاية ، واقتنات بأذية الناس ، وتطرفت فى حبها للدين . غاب فى ألقائها ما يشى بانصاف حكاياتها المشهورة بما تشع به ، فهى قد استطلت تحت رواق الندم ، وأفلحت فى قتل الأعيار : الوجود والفس والشیطان . أيق أن العدوانية التى امتلكتها المرأة لم تكن وليدة ذاتها . ولدتها ، ودفعها ، ظروف لاحتلة لها فيها .

(١٧٥)

صايقه - فى لحظات كاثومضة - تبدل بطرقته للمرأة ، وتفسير تصرفاته نحوها . يحروه ارتباك لاقترايبها ولأسلتها . يخمن انعكاس تطورات الرجال من حوله . هو لم يسع إلى الجمال . الجمال أتى إليه . وقف عند بلبه . لم يقدم نفسه بالإغراء ولا الفحش . عرض الخضوع والعمسكة للخدمة فى ساحة الطهر . ربما الجمال الحسى - كما ذهب أوائل الطريق - باب الدخول إلى الجمال المطلق . التجليات مقيدة فى الصور المحسوسة . **تطلق** إلى عالم الملكوت بغيره ، ووجدته ، ومده . ترتقى من درجة الحسن للمحسوس إلى مرتبة الجمال المطلق ..

لقد فقه عن لشامة ودود ، مشقة :

- لا يريد الله إلا الخير ! ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

.. الحسينى ليس قائدًا عالياً .. كان اليهود يصعون له ألف حساب ..

.. لماذا لم يأخذ حذره ؟ ..

.. دافع عن مدينة اسمها القسطل بمئات من العرب فى مواجهة الآلاف

من اليهود ..

لمح الجد السخاوى صابر الشبلنجى قائماً من شوارع السيلة .. اتجه

إليه بنظرة غاضبة :

.. هل أصبح البحر حماماً للخيل ؟

قال صابر للنظرات المتسائلة :

.. عقر التراب جسم الحصان ، فعمسته فى البحر ..

قال محبى قبطان :

.. المياه ظاهرة .. حرام أن توسحها بحصانك ..

قال صابر :

.. لكى الناس يستحمون ..

قال محبى :

.. هل تساوى الخيل بالناس ؟ ..

قال صابر :

.. حصانى أنطف من أى بنى آدم !

قال الجد السخاوى :

.. أنت قليل الأدب !

وحزى بيده على وجهه ، فبدأ كفاه المعروفان :

.. ميمون فرس الرسول صلى الله عليه وسلم هى وحدها التى لاتلوث

البحر إن نزلته .. فهى من المسك الأبيض والأزفر ، وجناحها من الدرر

والمرجان ..

حائط صوت العريانى نيرة موبدة :

صلاة الجنازة

دعا إمام أبو العباس ، فى خطبة الجمعة ، لحوض الحرب . تلا آية القرآن : " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " . وتلا : " ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله " ..

بعد أن أتم المصلون قراءة التحيات ، وتهدأوا للانصراف ، لحقهم صوت الإمام :

.. خمس دقائق ..

أضاف للتساؤل فى الأعلى :

.. سنصلى صلاة الجنازة على الشهيد عبد القادر الحسينى ..

تبادل المصلون النظرات . ألقهم كان يعرف الحسينى . معظمهم لم يكن يعرف من هو . كانت الأحاديث تنتشر عن قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين ، وما تلاه من معارك بين الفلسطينيين واليهود . وانضمام عبد الحالى ، ابن صياد العرافة نصر الساعاتى ، إلى قوات الإحوال المسلمين التى ذهبت للوقوف إلى جانب الفلسطينيين ..

قال عبد الوهاب مرزوق - فى قهوة الرردوسى - لتساؤل محبى قبطان :

.. إنه قائد فلسطينى قتلته اليهود ..

قال محبى قبطان :

.. وهل هو أول قائد فلسطينى يقتل ؟ ..

(١٧٨)

.. لماذا فعلت ذلك ؟ .. نحن نحيا على رزق الماء !
قال الجد السخاوى :
.. وماذا كنت تفعل لو ظل قرار منع النزول إلى الأنفوسى سارياً بعد
انتهاء الحرب ؟
قال فى استهانة :
.. لو من عمل الشيطان ..
قال الجد السخاوى :
.. المكابرة هى ماتعرفه ..
وعلا صوته فى غضب :
.. انما طاهر .. والطهارة لا تقتل إلا النفوس الطاهرة ! ..
وقطب حاجبيه ، فتمكر مشئت جبهته :
.. من يعصى الله فى البحر ، فهو يعصاه على أجرة الملائكة !
ثم وهو يشيح بوجهه بعيداً :
.. جزاء المعصية فى البحر أضعاف جزائها فى البر ! ..
علا صوت اسماعيل سعيان كالمفاجأة :
.. البحر طاهر ؟ .. كيف ؟
.. إنه غول مغترس !
وتدخلت فى صوته بحة غريبة :
.. بحركم لاقلب له ! .. ابتلع البهاء فقتلنى ! ..
قال المعلم أحمد الرردولى :
.. المؤمن مصاب !
كان البهاء قد أحكم تقييده فى الأيام الأخيرة . بدأت الكمائن هامة .
تأتى من المطبخ ، لو من الحمام . ربما استمع إليها فى داخل الشقة ، وهو
يضع المفتاح فى الباب . جاوزت الهمس فيما بعد . علت بما لايقوى على
سماعه . كأنها الرعيق الصاحب . التفهيمات العالية ، المتولوية ، تخترق

(١٧٩)

أفنه ، فتربكه . قال له الولد سمير بن حميس شعبان إن البهاء كان يجاهد
حتى لايعرق ، ويصيح بصوت سمعه الجميع : الحقنى يابا ! ..
ظل الصوت يطارده . لو أنه كان واقفاً ، ماذا كان يفعل ؟ .. هو لا
يحسن العموم ، لكنه كان سيردل إلى الماء ، وكان لابد أن يقعد البهاء . وظل
لصوت يطارده ..
عوده الفارة راد بحافة ، وبررت عظام وجهه ، وانسدل شعره
المهوش على جبهته وقفاه ، وانطفاً التماخ عيبه ، وغابت نظراته عما
حول ، وأهمل شربه فتدلى على فمه ، وثمة رعدة خفيفة تسرى فى وجهه
من العين إلى الدفن ، تمتد إلى الحلق فيبدو كمن يهجم بالالتفات . وكان يرتدى
جلبباً حائل اللون ، له فتحة فى الصدر ، تبرز منه فائلة متأكلة الأطراف ،
ويذم قنميه فى قيثاب خشى ، يصدر - إذا سار - صوتاً ذا إيقاع ..
ابتغص حميس شعبان لمفاجأة لسان اللهب ، أطلقه الحاوى الواقف .
أمام القهوة ، من فمه ..
خفت محبى قبطان :
.. كدت تقتل الرجل ببارك الملعونة ..
واتجه إلى حميس شعبان بطيرة مشقة :
.. وماذا ستفعل فى نار الأخرة ؟
قال حميس شعبان :
.. نار الأخرة أعداها الله لأمثالك ! ..
قال عبد الوهاب مرزوق :
.. قلبى يحدثنى أن الأحوال المسلمين ذهبوا إلى فلسطين للاستيلاء
على القاهرة ..
علا حاجبا عباس الخوالقة بالدهشة :
.. فزورة ! ..

— الحرب فرصة لتحويل المتطوعين إلى جيش مزود بالأسلحة ،
يدخلون به القاهرة ..

هر الحوالة رأسه ، وأشاح بيده :

— ياه .. أنت تذهب إلى بعيد ..!

إغفاءة

علا صوت المعلم أحمد الزردوني بالفضب . نسي الجرمنون ياقوت
علة الشاي ، لم يملقها ، فالتفت رطوبة البحر ..

انكشئت الطلال ، وانترشت الطريق والأبنية شمس عوية . وثمة كلب
أنعى تحت رصيف القهوة ، يتصيد الدباب بلسانه ..

كان الرجال قد عادوا من صلاة الظهر بمسجد المسيرى المقابل .
لأنوا من تباعد الشمس بداخل القهوة . حتى الجد السحاورى ، دفعت الحرارة

اللاهية إلى الداخل . وتعالى من الفوبوغراف صوت أم كلثوم :

من أى عهد فى القرى تتدفق
وبأى كف فى المدن تحقق
قال الزردوني :

— ألم يقل النقرائس أن الجيش لن يدخل فلسطين ؟ ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

— الأوامر من فوق .. من الملك نفسه !

مال محبى قطبان على عبد الوهاب مرزوق . تساءل فى قلق :

— هل نحتاج إلى تخزين الطعام ؟ ..

الاسكندرية تشع بكلمات : الحرب والقتال والعارات والأصواء

الكثيفة والمحابى والهجرة إلى الريف ..

هل تعود أيام الحوف ؟ ..

(١٨٢)

اعتدل عبد الوهاب مرروق في كرسيه بتأثير المفاجأة :

— لماذا ؟ ..

قال محيي قبطان :

— الحرب ..

أشاح بيده مهوراً :

— لن تستمر طويلاً .. أعداد العرب الهائلة مستجير اليهود على

الاستسلام ..

قال قاسم الغرياني :

— الولد ابن صياد الطراحة نصر الساعةلى .. نطوع في الحرب مد

سنة أشهر ، وانقطعت أحباره ..

قال عبد الوهاب مرروق .

— لكن الحكومة رفصت إبحال منطوعين ..

قال عم سلامة بلهجة واقفة :

— تسئلوا غير مبياه ..

قال عبد الوهاب مرروق .

— والأخوه المسمون ؟ ..

قال عم سلامة

— أتوا دورهم .. الحرب الآن مهمة الجيوش ..

قال حمودة هلول .

— ما يحيرنى : كيف تعترف روسيا بدولة اليهود ، وتحاربها ؟ ..

قال عبد الوهاب مرروق :

— روسيا اعترفت بدولة اليهود .. أما التي تحاربهم فهي سوريا ..

بحلفت عيماه :

— وما الفارق ؟ ..

قال عبد الوهاب في ابتسامة إشفاق :

(١٨٣)

— سوريا دولة عربية ! ..

قال محيي قبطان :

— ومادا عن اليهود المصريين ؟ ..

قال عبد الوهاب مرروق :

— سيظلون بيننا .. إذا سافروا إلى فلسطين ، فيصنعون قوة صدا ..

مرح فيما رآه ، وهو يهبط سلم البيت في الصباح . كان باب شقة

الأميرة اليهودية في الطابق الأول موارباً . دفعه الفصول . فوجئ بالشقة

خالية من الأثاث تماماً . ضمن أنهم ربما تركوا الشقة والمدينة ، ثم ضمن أنهم

ربما سافروا إلى فلسطين ..

قال عم سلامة :

— قد يكون تحمييك في محله .. عرفت من المعلم شوقي تاجر الموبيليا

بشارع فرنسا أنهم باعوا له أثاث الشقة قبل أسبوع ..

قال محيي قبطان :

— هل لهذه الأسرة شأن بما يحدث في فلسطين ؟ ..

قال عبد الوهاب مرروق :

— لا يكتب على الجدران . فلسطين لليهود ، إلا أمثال هذه الأسرة ..

إنها ..

قاطعه صوت قاسم الغرياني مهتلاً .

— أحر الأبناء ..

انطمأن إلى اتجاه أعين الجالسين ناحيته . قال وهو يضغط على

الكلمات .

— الشيخ يوسف بدوى تزوج من المرأة ثقلية ..

ثم في نبرة واقفة :

— اعتذر لمريديه أمس بأنه لن يستطيع استقبالهم في شقته ..

قال للمعلم الزردوني :

(١٨٤)

- هل تحلى عن الصوفية؟..

قال الغرياني :

- لا .. لكنه قد يستقبل مريدته في زاوية الأعرج ..

قال قاسم العرياني :

- هل هما سيد بدوى وفاطمة بنت برى جديان؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

- لاوجه للمقارنة !.. السيد البدوى قطب كبير .. وفاطمة بنت برى

من أهل الطريق المهيمن !..

هتف العرياني بالمفاجأة :

- لماذا شرفت القهوة؟..

قال جميعى حميدة وهو يسحب كرسياً :

- هل كنت القهوة بأسمائكم؟..

قال للغرياني :

- لكك تفضل البيت ..

إذا عاد من البلاس يلزم البيت . لا يخرجه إلا لضرورة ، أو لرحلة جديدة . صياد البلاس يعيب بالألأم ، وربما بالأسابيع ، والمرأة تنتظر . من حقها - إذا عاد - أن يخلو لها . نحن نشاق إلى المرأة ، فلماذا يغيب عنا أنها تشاق إليها؟..

مال على أذن الغرياني بصوت هامس ، متأثر :

- الولية لعددا ماتح ..

أظهر القلق :

- مريصة؟.. ألف لا بأس ..

أردف متسائلاً .

- عروستها على طبيب؟..

لدخل صوت جميعى حميدة حزن :

(١٨٥)

- وصفت لها الدابة زمزم علاجاً .. والله الشافى ..

- أهلاً يابو حنفي ..

أدرك محمود عباس الغالقة ، من تهليل الصوت ، ومن النظرات

المتطلعة ، الباسمة ، الساخطة ، أن الغرياني فضع سره ..

داخ بامرأة التقطها من رصيف الكورنيش في الميناء الشرقية .

أصدقاؤه إما في البحر ، أو ليسوا بمفردهم . لما أحاطت صدق المرأة بساعده

في سبيل الأفروسي ، تعالت التعطيفات العاصية . ترك نفسه لها ، وثبت

نظراته على المناشة ، يتظاهر بالفرجة على الفيلم ..

ماكاد يميل من شارع صفر باشاً إلى شارع جودة ، حتى واجهته

صيحة قاسم العرياني العاقمة :

- ماذا فعلت بنفسك؟..

نظر إلى اتجاه الغرياني في ينظرونه :

- لاشئ !..

قال العرياني :

- كبرت على العادة الملعونة ..

ارتبك ، فزوى ماحدث . رواه الغرياني في قهوة الزردوني . عفت به

التعقيبات والتقصات . حتى البطرة المستاءة التي طالعها بها أبوه ، هي عودته

إلى البيت ، أدرك منها أن السر قد وصل إلى أبيه ..

وصبح خميس شحان راحته على جانب أمه ، ومال على أذنه :

- ألم تأخذ درساً من علة فكهة بالعة الجندوفلى؟..

كل يطيل التحقيق في المرأة أمامه . يفتح عينيه وبرويهما . يميل

بجانب رأسه . يرسم على شفاهه ابتسامة متعابنة ، ترقب رد الفعل . قد

تظل المرأة في وقفها وكلامها ، لاتأخذ بالها من نظراته وتلميحاته . وقد

يعلمها الارتباك ، فتبدى الضيق أو الغضب ، أو تلتح بالامتجاة . لم يكن

الأمر ينتهى - دائماً - في تلك الصورة . مرتعت فكهة شبيها ، وبهالت به

(١٨٦)

على رأسه . توالى التصربات متلاحقة ، فتأخر رد فعل دفعها بيديه ، وتكحل
البأس بينهما ..

قال الجند السخاوى :

— دياب أبو الفضل .. هل عاد إلى البيت لو نزل إلى المستشفى ؟ ..

قال محيي قبطان :

— قد يمضى فى المستشفى ليأماً طويلة ..

قال حمودة هلول :

— لىءا ميدنا يوصف جرين بالسكاكين على الأكف .. المسكين دياب

أبو الفضل مزق أصابعه بالساطور ..

صرخ خميس شعبان :

— اعفنا من طرفك .. دياب أبو الفضل قد لا يعيش ..

دياب أبو الفضل ؟ .. العينان البيتان ، نطل منهما طيبة واضحة ،
وإشارب الدجيل ، يعيل لونه إلى الصفرة ، واليدان المجفقتان ، والحطوات
المتمهلة ، والحياء .. بعد يوم الحلقة — فى القهاوى ، وحلقات الأكر ،
ومشاهدة مباريات الكرة فى الساحة الترابية ، والتمشى — وحيداً فى ميادين
بحرى وشوارع وحواويه وأرقته ..

سرح فى بلاده :

— ألم يلحقوه فى المستشفى ؟ ..

تلون صوت خميس شعبان بحزن :

— نرف دماً كثيراً قبل أن يصل ..

تكرمت شروات السمك . علت الصيحات تستعته على إنهاء التعطيف
. ارتفع الساطور ونزل على الأورمة . ارتفع ونزل . ارتفع ونزل . انبثق
الدم والصراخ ..

مال عبد الوهاب مرزوق على المعلم الزردونى :

— هل استمعت إلى أغنية عبد الوهاب الجديدة ؟ ..

(١٨٧)

أحقق الزردونى فى التذكر :

— كل يوم له أغنية ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

— أغنيته عن فلسطين ..

نقر على الترابيزة بأصبعه :

— لا بأس بها .. وإن كان لديها مائماً ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

— هو مطرب ولرب الشبح عبد الحفيظ ..

قال الزردونى :

— اعتدنا ميوعته منذ أغنيته الرابضة : مين زيك عدى ياخصرة ..

التقط عباس الحوالة نثار الكلمات . قال :

— أنا لا أجهم حتى الآن ماصلة الحرب فى فلسطين بأرزاقنا ؟ ..

لم يخف ضيقه ، عندما أخذ مأمور قسم الجمرك ميارتى نقل يملكهما

، تحملان السمك من الحلقة إلى السوق . تسلم إيصالاً باستخدام الجيش لهما

فى نقل الجنود ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

— لىءا الله .. لم يبقوا من عربات الحاج قنديل إلا نصف نقل ..

تطلع محيي قبطان إلى قاسم العريانى وهو يعيل من شارع الكواكبي :

— ما أخبار دياب أبو الفضل ؟ ..

سكن الحزن فى صمته وخطواته المتناقلة ، فحمن الرجال ماحدث ..

ارتفع — فجأة — صوت شخير ..

كان خليل ريتون قد جعل كرسيه قبالة شارع العوامرى ، وأعطى

ظهره للجالسين ، وراح فى إغامة عميقة ..

قال الجد السحاي :

— هذا كلام لا أفهمه .. أنبوبة سم فلتران تكفي لحل المشكلة ..

قال قاسم الغرياني مهوياً :

— القطة في المركب .. إذا فعلت ما لا يتوقعه ، أغلقنا عليها حتى

لعود ..

سببها — لساعات — قبل أن تظهر ، تحاول التثنت من بيات الأعيان والأقدام ، ثم تجرى إلى الركن الذي اختارته . وضع لها حمودة هلول قطعاً من الحبر في طبق لئس ، ونادى عليها بسمس . أطلقت من ركنها في حذر . لبطنتها ، وضع الطبق على مسافة منها ، وانصرف . تكرر خروجها من الركن ، ثم ثم تعد تجرى من أمامها . فاجأت قاسم الغرياني — وفاجأتها — لما تمسحت به وهو يتمدد على سطح البلاس . ربت الغرياني شعرها . وقعت ذيلها ، هزته ، صامت ، استكانت في مكانها . انشغلنا برعايتها ، ولحببناها . أبدى الغرياني قرفة حين رآها تلاعب فأرا بقصها ..

قال حمودة هلول :

— لهذا أتيت بها ..

ثم قال مستعرباً :

— إنها لن تشاركك طعامك !

قال قاسم الغرياني لحمودة هلول :

— مالم القطة ؟ ..

أردف للذهشة المتبائلة في عيني هلول :

— أليس لها اسم ؟

قال محبباً ببطان :

— فلسمها بركة .. لتبارك البلاس ..

بركة ..

— ١ —

صعد حمودة هلول البلاس بالقطة ذات صباح ..

كنا نتهيأ للاكتلاع . ملاحظة الجد السحاي في رحلة العودة ، أن الغرار رادت في البلاس . أنفخت الحبال والضبك وهكل البلاس نفسه . تعلمنا ألا نطلق اسمها فهو شوم . نكتبها بالملعونة والمصيبة واللى ماتت معاش ..

بدت القطة في حضن حمودة هادئة ، مستكينة ..

أطلقها ..

جرت — بحيرة الغربة — عن المكان . ثم لانت بأسفل الدفة ..

لم ير الجد السحاي — كما توقعنا — لم يمل صوته بالمضرب ، وهو يرى القطة تندفع من بد هلول إلى حيث اختفت ..

قال هلول :

— نعلق النلاجة على السمك ..

علا صوت الجد السحاي :

— كيف أضع البنزين بجانب النار ؟ ..

قال هلول :

— أنا أشعل سيجارتي في محطة البنزين مادام التلك معلقاً ..

ألفا روبيتها وهي تصيد الفئران . تلاعب الفأر ، تجتنبه ببطونتها ، فلا يقاوم ، تصعه في فمها ، تقذعه ، تناوشه بقدمها ، تعوده إلى فمها . يتوهم أنها ستأكله . لكنها تسقطه ، وتلحقه بذيبيها . ترفع بذيبيها ، فيتوهم النجاة ويجري . تقول بقررة واحدة ، تدرجه أمامها وهو يصوصو ، ثم تمسكه بأسناتها ، تجرى به إلى دروة . لا نراها وهي تأكله ..

في ثالث يوم ، احتكت الفئران . لم تعد نراها على سطح البلاس ، ولا في الكابينة ، أو البريدج ، ولا في المحرور . لم تعد قطة حمودة هلول ، لكنها صارت قطة للبلاس ، قطتنا كلنا ، تلبى من يعلو فمها بالنداء بمسموس . لا تنفث حولها - كما كان من قبل - خائفة ، وتظل باثمة في الموضع الذي تحتاره ، لا يشعلها صوت الأقدام العارة جاثتها ..

حالف الجد المبحاوى توقعات الرجال . جعل القطة اهتمامه : مواء بركة نذير شوم .. القطة تموء " نو " ، واللوة هي اللوة ، واللوة شر .. بركة مريضة ، فهذا يعني أن الحطر يتهدد السفينة كلها .. بركة تمر من يمينه ، فهذا دليل حطر قادم .. بركة تمر من يساره ، فهذا نذير شوم .. بركة توصل القرقرة ، فهو بشير بصيد ثمين .. بركة تلحن شفتيها في الحائط ، فهي تنبئ بالطقس المعتدل . وإذا كان الحائط قبالة الشرق ، فإن للطقس سيكون ردينا . وإذا كان قبالة الغرب ، فإن الشمس الساطعة ستظل مشرقة حتى الشكل الذي تتحده القطة في نومها ، يشي بالمجهول . والمتوقع . إذا كانت دورة جسمها مطابقة لاتجاه عقارب الساعة ، فهذا نذير شوم . إذا اتخذت الاتجاه المعاكس ، فهذا بشير خير . القرقرة التي تصدر عنها وهو باثمة ، بسمة وتشهد وأدعية ..

لما جمعنا أول سرحة ، تقافزت القطة حول الشبكة . التفتت بعمو سمكة يورى كبيرة ، وجرت . احتفت وراء البريدج ..

قال الجد المبحاوى :

.. هل نصطاد السمك لتأكله القطة ؟

قال حمودة هلول :

.. بلقي لها سمكة أو اثنتين .. ثم يصع السرحة في الطباقي وبودعها المحرور ..

حرصنا - فور ثم السرحة - على وضعها في الطباقي . يصع قطع اللحاح على السمك ، يرص الطباقي في المحرور ، يتأكد من إغلاق الباب ..

صرخ حمودة هلول في قاسم الغرياني ، لما رآه يسلف خرطوم الماء على القطة :

.. حرام عليك !

قال الغرياني :

.. أنا أنظفها ..

وهو يحز أسنانه :

.. الماء يقتلها ياغبى ..

قال الغرياني :

.. وكيف تستحم ؟

قال هلول :

.. ألا تعرف إن القطة تنظف جسمها بلسانها ؟!

في رحلة تالية ، صمد محيى قبطان البلاس وعلى صدره قط

صغير :

.. حرام أن تظلل بركة بلا زوج !

(١٩٢)

امتأ البلاتس بالكثير من القنطط . جرت ، وبطت ، وثقافت ،
وخربشت الجدران ، واسترحت في الشمس ، وحاولت اللعب بكل ما
يتحرك . اعتصموا مواءها ، وقرقرتها ، وتمسكها بسيقانها ، ونومها على
أحطيتنا أيام البرد ..

- ٩ -

أسرعنا .. ذات صباح .. على نداء قاسم الغرياني ..
كان يمسك بذيل بركة الساكنة ، يقلبها أمام عينيه ؛
- لا يبنو أنها أصيبت بمرض ..
سأل جمودة هلول متوجساً :

- ماذا بها ؟

قال الغرياني :

- كما ترى .. ماتت ! رأيتها ساكنة أسفل الصاري ..

قال الجد السخاوي :

- السرحة للعيت ..

سأل جمودة هلول :

- لماذا ؟

قال الجد السخاوي :

- كما نعود لصعود قطة على البلاتس .. فهل نطل في البحر مع قطة

مينة ؟

كتف الغرياني بالقطة الميتة في الماء :

- لم تعد بركة معنا ..

قال الجد السخاوي وهو يتجه ناحية الكابينة :

- فلنعد إلى الاسكندرية ..

(١٩٣)

أهمل الأسئلة ، وشحط ونظر . خالط صوته حشوة غريبة ، كأنه
يعاني . زأغت عيائه كمن ينتظر مجهولاً يعيب مصدره . لم يعد الجد
السخاوي الذي يعرفه . لم يعد الطيبة والمودة والمؤانسة . تعبرت ملامحه ،
وتحركت يده في غير موضع . الذلة والصباري والقلوع والأشرعة
والبوصلية وقوارب الإنقاذ التي كانت معدة لحملنا - إذا غرق البلاتس - إلى
الشاطئ ..

حل في نفوسنا الخوف بالعدوى . توقعنا شراً لا نقوى على معالجته ؛
نجماً بذيل يصعق اللاتس ، يحرقه عن آخره . عاصفة مفاجئة تعرفه بمن
فيه ..

هتف قاسم الغرياني :

- هل يحددنا إلى البر موت قطة ؟!

علا صوت الجد السخاوي :

- اعدل الذعة يا هلول ..

قال الغرياني :

- بحدنا عن الاسكندرية بزمان !

وهو يلوح بسبائته :

- ولو !

حدثه بنظرة مستعربة :

- هل نعود بلا صيد ؟!

قال السخاوي :

- يكفي أن نعود بأرواحنا

- وما يمسنا من مواصلة الرحلة ؟

أطل في عيني السخاوي خوف واضح :

- إذا ملكت قطة في مركب ، فهذا نذير شوم ..

هز الغرياني كتفيه :

— جرافات لامعلى لها ..

قال السخاوى :

— معتقدات نشأنا على احترامها ..

فى صوت يرعشه العصب :

— هل نطعم أولادنا من معتقداتك ؟

نقر السخاوى على حاجز البلاط بأصابع متوترة :

— أفضل من ألا تعود إليهم ..

صرخ العريالى :

— أبت مجنون !

وشت بريشة عيبه بانفعاله . ضغط بالميتكى من أسنانه على شفته

السفلى ، وحول وجهه الى الساحة الأخرى . غاب — فى اللحظة التالية —

عن السماع ، وعن كل ماحوله ..

ارتفع جانب البلاط ، ينطلق إلى نهاية الأفق ، يتعجل للحظ الزماني

الشاحب . تتصاعد تفصيلاته : الشاطئ ، والرمال ، وورش المراكب ،

والبيوت المظنة على الكورنيش ، ومندة أبو العباس فى مدى الرؤية .

اشتعل الخوف فى ملامحه إلى مفوسا . يتوقع خطراً لا تدرى مصدره .

حتى قاسم العريالى أسكت ملاحظاته . بدأ الحظر احتمالاً وحيداً ، قائماً .

أهملنا الاعتراض ، وإلقاء الأسئلة . تركنا للجد السخاوى للتصرف ، بصمتنا

وتفويض أوامره .

لمحظات للأمل

قبل أن يميل إلى شارع الكورنيش ، اهتز البنز فى جانبه الأيمن ، ثم

واصل السير ..

حامره قلق ، فتوقف إلى جوار الرصيف . نظر ، وجدق ، وهتف

بدهشة . ابتزع إبطار المجلة اليمين ، ثم نسي إعاقته ..

لحقه — فى طريق عودته إلى الأسطبل — صوت حمودة هلول :

— تأخرت بأصابع .. السباق بعد صلاة العصر ..

كان الأذان قد تنهى من يقاوت العرش قبل عشر دقائق ، فلابد أن

المصلون غادروا المساجد إلى ساحة رأس التين ..

هل يبدأ السباق بذونه ؟ ..

عجل عن فكرة العودة . يبحث فى الساحة بمن يأتي له بالاطار ..

تردد على الوردبان . اشترى من مغالقات الأشجار قطعاً زائدة من

الجازورينا والثوت والسرسوع . قصص المكسجى فى الأسطبل يوميس ،

يخرطها على أسطوانات . رسم كرسى السائق والصندوق والرفارف

والكرسى القلاب ..

كان يشترى لوازمه من سوق البرادعية والسرورية فى نهاية شارع

الميدان . احتفى السوق بندرة الحاجة إلى لوازم الدواب ..

شكا من الصينية ، فهي لا تسمح للبنز بالثوران كما يريد . أوصى على جلد بقرى للتجديد من ملوى ، دباعته حاصصة للبئر . اشترى سرجا مبطناً بالقطيفة الخضراء ، مندشاً بالدلايات والحزير والقصب ، وانشرايب الملوة . زينه بالدائرة المنقوبة ، وخمسة وخمسة والورود . وثبت فانوسين من النحاس المطلي ..

هك الصير الجدوى عن ظهر الحصان . اطمأن الى الشملك واللجام ، وإلى غياب التسلحات والنفرحات والجروح وحشرة القراص ..

— إذا لم تثق في الفوز .. لاذهب !

وهو اصبعه في ثوال :

— الامطيل لابد أن يكون لأول ..

اغتصب ببنسامة متدلة :

— نحن الأول بإذن الله ..

قال التميمي وهو يمسح بدهن عبق الحصان :

— مبق شم السديم يشارك فيه كثيرون ..

قال صابر :

— أعرف ..

ثم وهو يتحسس عبق الحصان بأصابعه :

— باقى أشياء صغيرة ..

بدأ السباق من أمام حديقة سراى رأس التين . فتحة الحدوة الخضراء الواسعة . يتطلق — بين الصيحات والزعاريد — فى طريق الكورنيش ، إلى انحناءة المنسلة ، ويعود . تتكرر الدورة سبع مرات ، ثم ينتهى السباق حيث بدأ ..

تسائر الكاسوس على امتداد شارع الكورنيش ، وعلى الرصيف . يلاحقهم المفتشون بأوامر متلاحقة وتحذيرات . سأل — قيل إن موكب الملك قادم من المنتزه للصلة فى أبو العباس ..

علا صوت عابر :

— وما الجديد ؟ .. إنه دائم التنقل بين المنتزه ورأس التين ..

قال عسكري السواحل :

— هذه زيارة رسمية ..

هز كتفيه فى عدم فهم ، وواصل السير ..

سباق اليوم فرصته فى الفوز . تباينت بواعث الانشغال عن

المشاركة . حتى عباس الحوالة اعتر لمرافقة حمادة بك فى جولته بشوارع

الحى وبكاكينه وقهاويه . كور قبضته . الفوز فرصة لن يفلتها ..

لو أن التميمي يوافق على أن يؤجر البئر ؟ ..

ربما شد شعرات من ذيل الحصان . يلجأ إليها مرضى السسط . وربما

باعها لأولاد . يستحتمونها فى ألعابهم . آخر مبلغ حصل عليه ، لما سافر

التميمي والمرأة إلى رأس التير ، نقصاء أيام العيد . أعد البئر ، ووقف فى

ميدان أبو العباس . الجولة بتعريفه من الميدان إلى سراى رأس التين ،

والعودة . راح وجاء مرات كثيرة ، حتى هلك الحصان . خوفاً من أن يظن

التميمي — إذا فتش المحزن ، وعثر على المبلغ — أنه يسرقه ، مضى

إلى كهوة كشك . أودع ما معه أمانة عند حسين التميمورى ، وعاد إلى

الاستطيل ..

لم يسافر التميمي خارج الإسكندرية بعدها . ظلت أيام للعبد حلماً

جميلاً ، لا سبيل إلى امتعاده ..

تحسس — بتفانية — مواضع ضربات الكبراج على جسمه . طالت

أعلى الجبهة ، واتصلها بالرس ، والحد الأيمن إلى الذكن ، والرقبة ،

والساغدين . تردد — أربعة أيام — على مستشفى رأس التين . يعود من

المستشفى ، فلا يترك غرفته . يتمدد على ظهره . يمسح مابين ساقيه .

يهض — فى ثقال — ليمد طعامه ، لو ليدخل دورة المياه . زافته الست

جماليات مرتين . وقتت - في عودتها من الخارج - على الباب . سألت عن صحته . أجاب دون أن يترك مكانه ، أو يلتفت ..

فاجاه التميمي صباح اليوم الخامس :

- إلى متى أنفل أعني بالجيل بدلا منك ؟

لم يكن شغبي من جراحه ، ولا مسكتك ألام جسمه . لكنه تعامل على نفسه ، وقام ..

عمله في الأسطول فرصته الوحيدة للمشاركة في السباق . لم يستطع ركوب البنز بعيداً عن الأسطول . يادوب يتولى تجهيزه . التميمي لا يستقر على حال . يلقي عليه السلام ، فلا يدرى إن كان يرد أم يشتمه . إذا وصل إلى خط النهاية قبل الجميع ، نال الجائزة . ضمن الحياة في غيبة أوامر التميمي وتحذيراته وشعطة وطره وأنيته ، وتبدل أحواله الذي لا ينتهي . يصل إلى خط النهاية قبل الجميع . يعزل الحكام فوراً . يحصل على النقود والهدايا . يحظى قيادة الينز ، ويكتفى بالجلوس لتلقى صيحات الإعجاب والتصفيق . ينتهي الموكب الصاحب إلى قهوة مخيم . يحيا في الحفاوة إلى نهاية الليل . ربما لا يعود بعد ذلك إلى الأسطول . ربما تشتري حائطورا ، يسير لحسابه من رأس التين إلى المنزه ، أو يختار لوقفة الحائطور داخل ساحة محطة السكة الحديد ، بالقرب من شباب المغضي إلى محرم بك .. لو أن المعلم يعدل عن رأيه :

أفضل أن أستمع في الراديو ، إلى وصف مباراة الكرة بين مصر والصجر ..

أبدى صابر دهشته :

- الكرة ؟!.. سباق البنز لأفضل من الكرة مليون مرة !

قال التميمي :

- أنا بعاقبة .. فرصة للاسترخاء ..

وأشار إلى حصان دس وجهه في مفلاة الطعام :

- المهلب يحتاج إلى قصاص يهذب شعره ..

سمى حصانه المهلب ، اسم حصان أبو ريد الهلالي ، وإن لم يكن لهود مثل حصان الهلالي . كانت غرته بيضاء ، بداحلها اللون البنسي ، والجد كنه بني اللون ، سعدا دوائر غير مكتملة من اللون الأبيض . سارح لمرور ، له رأس صغير ، وعياف واستمان ، يحيط بهما سواد كالكحل . واسع المنحازين . عقه أشبه بعق الحجة . عروقه وعضلاته - إذا صدرت عنه حركة - تثير من الجلد الترفع الشفاف . ربما لشر التميمي إليه وقال :

- النوة قائمة !..

- أية نوة ؟!

- لا أدرى !.. لكن النوة قائمة .. معنى وقوف المهلب هكذا ، أن

النوة قائمة !..

كان يسقيه اللبن مخلوطاً بالسمن البلدي ، ويسقيه البيرة في شارع البرمسة ، ويطعمه الأذرة والخبث . ويخصص له في مولد أبو العباس سرجاً مطعماً بالنصعة وخيوط الذهب ..

رفض عرص أن يستعمل نوعاً من الحقن . أصبح المهلب كالعريت ،

بحري كالزهران . ثم ماذا ؟!.. يحصلون على أمثال ، ويموت المهلب ؟!

قال الشيخ عوص مفتاح ، إمام ياقوت العرش ، وهو يتأمل المهلب :

- الخير معقود بلواصي الخيل إلى يوم القيامة !

يحرج بالبر كل صباح . يسمح الحصان الذي اختاره للسباق .

يمضي إلى ميدان المساجد ، فساحة أبو العباس . يميل بسلاماً إلى طريق

الكورنيش ، حتى السلملة . يشجعه هذو الحركة ، وخالو الطريق من المارة ،

على السير في التماس إلى نهايته . ثم يعود إلى طريق الكورنيش . السور

الحجري على يمينه . يدور حول حديقة المراهي ، فيصبح سور البحر على

يساره . ثم يعيل من شارع أبو السعادات إلى داخل السيلة ..

حقق المركز الأول في سباق البسر ، لسنوات ، ثم عليه المعلم عباس الحوالة ثانی أعوام الحرب العالمية الثانية ، فقرر اعتزال المشاركة في السباق . اكتفى بالمعاصرة ، والمشاهدة ، وإبداء الملاحظات ، والنصائح .. حين فاجأه صابر الشبلنجي باعتزامه المشاركة في سباق هذا العام ، تردد في الموافقة :

— هذه سمعة الاسطبل !

قال صابر :

— أنا تلميذك يا معلم ..

وأظهر القلق لما نط التميمي على حصان دون مرج :

— قد لا تستطيع التحكم في الحصان إلا باستخدام سائق فقط .. ربما أتى الحصان بحركة مفاجئة ..

قال التميمي في نبرة وثقة :

— الحیال هو الذي يفوز ويخسر ، وليس الحصان !

وحالط صوته سخرية :

— أتيق بك أن تكون برادعيا ..

واستطرد كالمعتبه :

— حتى البرادعيين راحت عليهم .. أفضل أن تكون سروجياً قد الدنيا ..

لكر التميمي جانب الحصان بقبضته ، رشد اللجام ، رفع الحصان عقبه ، وانتشرت أذناه ، واحتلج مسجراه ، وتقلقل في وقفته ، ثم جرى بخطوات مهيولة خارج الاسطبل ..

اعتاد مؤاحداث المعلم وتوبيخاته ، وملاحظاته التي لا تنتهي ، واعتاد الحياة في الاسطبل ، والتعامل مع الصداد وصانع المهامير واللجومي والسروجي . تعلم معالجة أسطح العربات وعجلاتها وعرائشها ، ومداواة جراح الاحتكاك وأورام القوائم وتسليحات الطهور ، وبذل حراريح البعال

تركيب الحدوات . وتعلم تحريك الخيل وكيفية وتقليمها وتزبيدها . وصار **على** دراية بأصناف الخيل وطباعها ومزاياها : طول العلق ، طول **الطيرة** ، طول الأذنين ورقتهما ، قصر المسافة بين الحافر والساق ، قصر **الظهر** ، بروز العنوين ، علو الكفل ، اكتناز اللحم ، اتساع الصدر ، صفامة **الفك** ، صعر الرأس ، وجود صوف بين الرجلين الأماميتين ، نموة صوف **الجسم** . يمكنه — من الطيرة الأولى — أن يعرف نوع أي حصان ، وسنه ، وحدد الحدوات التي أهلكتها ، وموطنه الأصلي ..

طلب مساعداً لعم شفيق عبد السيد في تشغيل الاسطبل . عندما قرر عم **شفيق** أن يقضى أحر أيامه في قريته بالصعيد ، طالبه التميمي أن يقضى **يومه** في الاسطبل ، لا يتركه — في الليل — إلى قهوة كشك . ترك له عم **شفيق** رائيه ، وبعض الأواني ، ووفر له أحر البيات في القهوة ..

اطمأن إلى الإطار في موضعه ..

هم بالمسير ناحية رأس التين ..

لحقه صوت عم سلامة ..

حدق في دهشة :

غادر التميمي الاسطبل منذ ساعتين .. فكيف مات ؟!

عن لثوه . وحين روى للشيخ صلاح البوشي ، قارئاً سيدي نصر الدين ،
أنه رأى في المنام ، أنه يخرج من بيته جماًيته ، ولا يخاطب أحداً ، أدركه
الشيخ البوشي - وإن لم يصارحه - إنه سموت ..
 داخله هدوء لا يدري بواعثه . لم تعد تشغله توقعات المستقبل ، ولا
 أن كان سينزل في الأسطبل ، لم تسره المرأة ؟ ، لطمان إلى طلب جمالات
بلن بطل في عمله ..
 قالت :

- فليظل العمل في الأسطبل كما هو .. أنت أدري به مني ! ..
 رفع رأسه ، واتجه بعينييه إلى داخل البيت ، يحاول أن يتلصص :
هنا تفعل المرأة الآن ؟ ..
 أعقق التعميم باب البيت العطل على شارع سيدي كطمان ، وفتح ناباً
 ووافد خلف البيت ، تطل على داخل الأسطبل ..
 ولجهة البيت سلم حجري ، بدرأزين - يقصى إلى صالة مستطيلة
 - تقوس أربع حجرات ، والمطبخ ، والحمام ، ودورة المياه على الأسطبل .
وتطل الحجرتان الأخريتان على شارع سيدي كطمان . معلقان دائماً ، فهو
 لا يدري ما بهما . أما الحجرتان اللتان تطلان على داخل الأسطبل ،
 فأحدهما للوم ، بها سرير نحاسي بأعمدة ، وباموسية تمتع الحضرات
 الطائفة ، في المقابل دولا ب كبير بمزأتين في صلفيته . والثانية للعباد ،
 يقصى فيها الممر لاوى وجمالات يومها . بها كنية استامبولي - وعلى
 الأرض كليم أسبوطي . تقوس السفن نافذة مفتوحة ، استجلاباً للهواء
 القى . رصت على حافتها أصص العتر والزهرجان والقرنفل ، تلاصقها
 صينية الفقل . على الجدران ساعة بهندول ، وصور لسجود التمثيل والعشاء ،
 ورسوم مستوحاة من السير الشعبية : عترة - يقصى بالنوى النيص إلى ديار
 عيلة ، والهلالى يصارع الرناتى ، وسيف من ذى يزن بشهر سيفه . فى
 المنتصف ترابيزة يحيط بها ثمانية معاد ، جميعها مشعولة بالأرابيسك .

الغاية فى الأسطبل

صوه اللبنة نمرة خمسة ، يتركض من هبات الريح ، يصنع على
 الجدار طلائاً وتكوينات . يصنع لها صابرة الشبلنجى - بإطلالة التأمل -
 ملامح لبشر وحيوان وأشجار ..

كان مستلقياً على ظهره ، معرجاً مابين ساليه . عيناه مفتوحتان
 ترنوا إلى سقف الأسطبل . يرفص - حشى فى عز الشتاء - أن يرتدو
 ثوباً بالكمام . ربما اكتفى بالصديري ، وإن ارتدى تحته فائلة من الصوف
 يصعب عليه الحركة وهو مفيد للراعين ..

هل مات التعميم ؟ ..

لاحظ أن الحصان كان يكثر من هز رأسه ، وهو مربوط . تذكر أن
 ماحدث كان علامة على قرب موت الرجل ..

أمرت الست جمالات ، فقص صابرة ذيل المهلب ، ووضع الشعر على
 السرج ، وتقدمت الفرس الجارية بهذه الصورة . شيعه القلة ممن تصادف
 وجودهم فى كهوة مخيم - ساعة الظهيرة - إلى مقابر العامود

عاب الشيخ عوص مفتاح على التعميم ، أنه أطلق العنان لشهوته .
 وانصرف إلى الاغتراف من معين اللذة ، نوى أن يردعه خوف من عقاب
 قيل إن وفاته كانت لإفراطه فى الجماع . أصرت المرأة أن تأخذ حفيها - فى
 نزال متوالية - حتى تسلمته الأمراض ، ومات . وقيل إنه دخل جامع ياقوب
 العرش وهو مسطول ، فأعصب ونهى الله عليه . صلى عليه صلاة الجنازة ،

— كنت أدارى على التميمي تصرفات المرأة ، فعلى من أدارى بعد الآن ؟
وتنهذ :

— هذه امرأة خلقت للمضاجعة ١.

لم يتصور أنها — مثل بقية النساء — تطبخ وتكنس وتمسح وترعى الأطفال . تصورها في حياله وهي نائمة ، وهي تتعري ، وهي تستعد للعناق ، وهي تحلى ساقها ، وهي تقصى الأوقات في الاستحمام والتزين . هل أحلست للجنس وحده ، دون تبعات تتصل به ٢.

كانت في حوالى الخامسة والثلاثين . ذات جسم رجراج ، قسماته مزكدة ، فالبروز واضح في الصدر والبطن والردفين ، والشفتان ممتلئتان والعيان سوداوان مكحولتان ، والبشرة سمراء صافية ، والشعر أسود ناعم ، طويل ، تركت حصلات منه تتسدل على جنتها ، ولها حمسة أشبه بالحال على وجنتها.

يثيره بروتها من الحائظور ، وصعودها سلم البيت . الحنجال الذهبي يحيط بساقها الممتلئتين ، والكعب اللوردي يلتصق بأشيشب ذى الكعب العالي ، وينفراج بألية رتيبة ، ميمة ..

كانت تنام إلى الضحى . تفتح النافذة المظلة على الأسطبل ، تجعب شعرها المبلول ، تتأمل الأسطبل بعينين تعالبان التماس . يزداد جمالها في ملائحتها المتناومة . لا يخفى بخلو وجهها من المصاحيق . تبدو أجمل في الملامح المتكاسلة ، وفوضى شعر الرأس على وجهها وعقها وصدرها ، وحنانها قميص النوم تترلقان على الذراعين . يشده ويمص في عيبيها ، يشعل أعماقه بما لا يقوى على احتلاله . يفر من اللقاء الطرقات ، أو يجاهر بتثييت بطراته . تجذوه دابسة مستهينة ، تدوى الصمب في داخله ، فيصرف إلى شيء يشعله ..

لاحظ أنها لم تعد تغير قميص اليوم الشفاف . ولاحظ بطراتها الثابتة التي تراقق كلامها له ، جرى أصابعها على صدرها وبطنها ، التثني من لدع الحشرات . رفع ساقها لتعرض موضع الدعة ، النحة في صوتها ، الألف الطويلة . الممطوطة ، من حرارة الجو ، والعاقة من البرد ، التثني والتأرد ، مضغ اللبابة ، تحريك الحاجبين ..

تحيلها بثياب شفافة وهي تتعري ، وهي في حضنه ، وهي تصرخ ، وهي تتأوه ، وهي تدلى شفتها السفلى كما ألف رؤيتها عندما تعاد بيت الأسطى «تحي ، وهي تطلعه على الأسرار والأعجاز والأحاجي ، وتجوس به الغابة الوحشية ، وهي تنزل من الحائظور ، تنبئ الاتصاءات والتكورات في رديها ، في ميلها إلى أسفل ، وهي تناوله يدها في صعودها الحائظور . المعلمن القاعم الطرى . لحظة تصخب فيها الرجوع ، وتومض البروق ، وتثور البراكين . يحس بسعة النار عندما تلامس أصابعها يده .. استيقظت يدها ، حين مد يده ليحيها على الصعود إلى العربة . لم يفهم المعنى وقتها ، لكنه يفهم الآن ..

لما نادته : يا صبور ، أدرك أنها توارب الباب .. تصاعدت الحواطر المحمومة من داخله . أجهده التطلع إلى النافذة ، والتصورات .. ما يبينى — وما لا يبينى — قوله . الأفعال ، وردود الأفعال ، ومحاوله كتم الحجم المشتعلة داخل البركان ، وصراخ الحيوانات تبحث عن مفد ، ومد الأمواج يرتطم — بقسوة — في صفور الشاطئ .. قام ، وجلس ، وتمدد ، وفرص ، وضرب البدار بقبضته ، وتمثل ، وضغط ما بين ساقيه ، وتأوه . ثم انقض ، وسار في اتجاه السلم ..

— أعانته الله على مصابه !

ظل حمادة بك ساكناً ، وإن وشى اهتزاز ساقيه بتوتره ..
لم يكن يعتبر محمد صبرة صديقاً ، وإن حرص على الجلسة أمام
دكانه . يباشره . يسأل ، ويجيب عليه . ربما تقبل منه دعاية ، لكنه يصعب
جراح إطار الأصدقاء . هؤلاء معلمون كبار ، لهم مكانتهم التي لا تحطونها
العين . أما محمد صبرة ، فإن المستحيل يلحقه مهنته كحلاق ..
روت بهي لأماها عن وصول زوجها معها . نقلت الأم الحكايات إلى
الأب : الغياب عن البيت إلى ساعات الصباح ، ادعاء التعب ، إعلان
الرغبة في الصحو مبكراً لإنجاز عمل ، الفعل الحقائق ، فينام في حجرة
الأولاد ، اكتشافها ثياب نسائية في دولابه ..

قال سعيد النقيب :

— عندما تقدمت لخطبة ابنتي ، قرعتك في مصافري .. أليس كذلك ؟

قال حمادة بك :

— هذا صحيح ..

طقت عيناً النقيب بشرو :

— أنت الآن تستهين بي حين تدس في دولابك ثياباً نسائية ..

عثرث لهي على اللثياب — قصص نوم وسوتيات وجوارب —

مدسوسة في ملايسه . همت بمواقفه عنها ، ثم روت لأماها ..

قال حمادة بك :

— هذه ثياب قديمة .. أوزعها على الفقيرات من نساء الحي ..

علا صوت النقيب بالسحرية :

— منذ متى أصبحت وزيراً للشئون الاجتماعية ..

وأطلق من أفه ضحكة مبتورة :

— هل ماودحتك ابنتي بين ملايسك يصلح للقراءة ؟

احمرت أذناه :

صرخات الجزر الوحشية

جلسة العصر أمام دكان الحاج محمد صبرة . ثمة نسائم خريفية تهب
من ناحية البحر ، ويطير الثورس وعصفور الليل والعصفور الأسود
والعمرة تحلق في امتداد للشاطئ ، وتتأثر في السماء سحب بيضاء ،
صغيرة ..

كانت أشعة شمس الأصيل تضوي بالألق على صفحة المياه . وفي
نهاية الأفق مر اكب متباعدة ، فردت أشعتها . وعلى طريق الكوريش
تفرق عجالات البير ، وعربات النقل المحملة بهماطيس البترول والأخشاب
والحديد المسلح وطاولات السمك ، وبات قدم من شارع أبي السعدات ،
يحملن الصفائح فوق رؤوسهن ، في الطريق إلى حنية المياه ..

قال الحاج قنديل :

— زمن طويل لم يجمعنا هذا المكان ..

اتجه للمعلم أحمد الزردوني إلى حمادة بك ببطرة مشفقة :

— أب كاي لزيارتنا للحاج سعيد النقيب ميرة ، فهي هذا اللقاء ..

قال الحاج قنديل :

— كان لوفاء مصطفى ، ابن أخينا عباس الحوالة تأثيره المولم ..

شعلنا حتى عن مجرد التفكير في اللقاء ..

قال محمد صبرة بصوت متأثر :

(٢٠٨)

- أنا أعد نفسي للانتخابات ضد منافسات صعبة ..

تقلقل السقيب في كرسية :

- هذا كلام لا يدخل العقل !

قال الحاج لتنديل :

- لو أنه يتاجر في الملابس النسائية ، فليس في الأمر ما يشين ..

قال السقيب :

- أوافقك لو أن المشكلة مجرد لتجار في الملابس !

ولون صوته :

- البروش المفتقى داخل بدلتك .. هل تسوى كذلك إهداءه في

الانتخابات ؟!

صرخ حمادة بك :

- هذا اعتراف بأن ابتدك تفتش ملابسى !

واجهه بعيني الشرر :

- لو أنها تفتش ، لاكتشفت المصيبة من زمن ..

وثنى إلى الجالسين ملاح مكتبة :

- تصورت أن من واجبه أن ترتب دولاب زوجها ..

ورفر :

- لم تكن تدرى !

ورماه بنظرة عدا صريحة :

- لماذا تزوجت مدامت في غير حاجة إلى الزواج ؟!

كان يتوقع منه الحرج . فواجهه - أمام الرجال - بملاحظة ، أو كلمة

دابية . شعر لسانه في الارتباك ، لمسكت ..

روى له أخوه عن خلافاته مع أمه حول اختيار اسمه . أصر على

مفتار - اسم جده - وأصررت على حمادة . ولد بعد طول عقم ، ونشأ

وحيداً . دلته أمه . عاملته كأنهى . أبنته ملابس السات ، وعلقت في أدبه

(٢٠٩)

قرطاً ذهبياً ، وفي صدره خمسة وخمسة ، ومنعته من اللعب مع الأولاد .

يلجأ إلى أبيه إذا أراد اللعب في الشارع الحلقى . يثق من رفض أمه ..

متى تبدلت معاملة أمه له ؟ وكيف ؟ ..

فاجأته بصفحة حين عاد متأخراً من الشارع الخلقى . لم تكن قد مدت

عليه يداً ، ولا أخته من قبل . تمارج الأثم بمشاعر غامضة ، غريبة ، صعب

عليه فهمها ، وإن استقرت في داخله ، وظلت تؤاخره . تمارك مع الأولاد ،

فأصرفت في سؤله عن لئز التمتع في عيبه . صرته ، فأصر على الكتان ..

قالت الأم :

- مصيبتى أن لى ولداً مثل البنت !

طلت العنارة في داخله . يتذكرها إذا على الخواطر الجهمية . جاوز

الطفولة ، فأصرت أن يكون مثملاً ولد . وكانت تصر به بلا مناسبة . كأنها

أرادت أن تنميه سبي التكليل ، فيصيح رجلاً . تذكرت أباهما الشيخ حفى

سلام إمام جامع الشيوخ إبراهيم . كان ربيعاً لعبد الله التديم ، وشارك في

ثورة عرابى . لم يترك الإسكندرية ، حتى بعد أن دمر الأسطول الإنجليزي

معظم مبانيها . له اجتهادات المعلنة في الفقه والتفسير ، وقوائم مكتبة البلدية

تضم ثلاثة كتب من تأليفه . جعلت منها تطهيره من أى عيب أو ضعف ..

طلت الأمنية ، المر - بعد رحيل الأم - في إطارها لامتداده . يتمنى

تحقيقها ، وإن قيده الخوف من المعايير والتلميز ، وربما القصيدة . ثم

أخضعته قوة غريبة ، مسيطرة ، لا قبل له على دفعها ، أو الفرار منها .

علق عليه باب حجرته . يبرع ثوبه تماماً ، ويقف أمام المرأة . يتأمل جسمه .

يجرى برأحيته عليه في دولتر ، فتداعيه نشوة . يخلع حذاءه في طلام

الشارع الحلقى ، وينفذ بملبس برودة الأرض ، والحصا ، بقدمة الحافيتين .

يحترق رجاء شارع المجدد ، لأبائه بالنظرات التي تعرفه ، ولاعبارات

التحية والمجاملة . يصططم بالأجساد الوافقة ، والمتلاصقة ، والمتدافعة .

يتوقع رد الفعل ، ويتحداو . لاتشغله التعليقات الغاضبة ولا التلؤهات . ربما

علا صوت يشتمه ، فيؤجج البيران المشتعلة في الأعماق . أسلم نفسه لأسواق الرغبة ، تجتذبه ، وتطويه ، وتجرفه ، وتعوّض به في أعماق ساحرة ، لانتهابية . استحال كرة مشتعلة ، تجرى بالهبّاح والرعدة والشق والشنوة . أراد أن يستعنى بنهى . ففقت بالعصا في الأرض . وجرت . لرمّت حجرة الأولاد حتى الصباح . حاول أن يسبق رواية ماحدث لأمها أو لأبيها . اشترى من الصاعقة - في اليوم التالي - عقدا وإسورة وساعة مذهبة . أحبتها ، ولشاحت بوجهها . هوجى - عند عودته في المساء - بغيبها . حبر ذهب لإرضائها في بيت سعيد الغيب ، واجهه الرجل بالتمصّاح السر . قال بلهجة ملمزة :

— الرجل لا يتنازل عن رجلته لأي سبب !

صايقته الكلمات . أحس بالسحوة حلف رأسه . استجمع الكلمات ، لكن الرجل مال على ابنه بملامح أمرة :

— عودى إلى زوجك !..

لم يعد إلى مائل ، وأرضاه أنها لم تعد - من يومها - إلى المسيرة ، ولم تنتقل إلى حجرة الأولاد ، لا تركها إلا إذا نادى بطلب شيء . حتى أوقفت تناول الطعام تعتذر بالنوم ، أو بالمرض . وحين يجبرها - بتوسلاته - على المصاحبة ، يتصاعد العثبان إلى حلقها . تنشعل بكتمه ، حتى يخرج من الحجرة ، فتعود إليها نفسها ..

التصم التوقع ، لا تشغله الشنائم ، ولا الدفوعات ، ولا التطورات المعاصرة ..

دعاه المعلم التميمي - في لحظة مؤنسة - إلى بيت أنصاف ..

تدبر الأمر للحطّات : هل تستطيع أنصاف أن تلهيه ؟ وهل تعطيه مايريد ؟ . يذهب لو أن المرأة بذلت غير مايتذله له زوجته . تصور نفسه عاجراً عن مجرد البوح ، فرفض الفكرة ..

حقق في المرأة : هل هذه الملامح لفاتة ؟ والشارب الذي تعمد في يمدل على جانبي فمه ؟..

قالت نهى وهي تتأمل ربطة عنقه :

— ماذا تفعل بالكرات ؟.. هذه ثائي واحدة تمزقها ..

فوت الملاحظة . دفعت المرأة لما أسفرها إصراره على تلقي النازلين من ترام الرمل بصدره . تعرّفت إليه في وقفة تالية ، جذبته من ربطة عنقه . خففت بها ، وأطلقت صرخاتها . وضع همه في الفرار من اللمة ..

رمى سعيد النقيب بنطرة ساخطة :

— هل تؤلب الرجال صدى ؟

قال النقيب :

— أفعلك تؤلب الدنيا ضحك ..

أشاح بيده :

— أنا أفعل مايرضى صميرى ..

هتف النقيب :

— وهل عندك صمير ؟

فر في مكانه :

— هذه إهانة !

لم يكن يدرى طبيعة المشاعر التي تتصاعد في نفسه ، عندما يرى حراماً معلفاً على الشماعة ، أو ملهى فوق السرير . تدفع به الحواظر الجهنمية في جزر غامضة ، تعلو فيها صرخات اللذة والألم . تدعوه المشاعر نفسها لزوية عصب في يد من لا يعرفه ، أو لرفع امرأة شبيهة في شوارع السبالة ، ترفقه بتهديداتها وشتائمها ..

الرغبة صراخ في أعماقه ، بأن يخلو إلى من يحسن الإحصات ، يبروى له . تفجؤه لحطّات تلح عليه فكرة البوح . يروى ما يشغله ويحببه .

يفشى السر الذى لا يذكر متى بدأ فى حياته ، ولا كيف استطاع أن يظل سر داخله بأعوام العمر ..

تصور فى كوم بكير سذاجة نكتم السر - يطفى السيران المشتعلة ويمضى . يسقط احتمالات الفضيحة . يسلم نفسه لتصورات تجلو المستحيل ، تصنع الممتنى والمطلق ..

تشجع بالعصا الجلدية ، فلنا بقعة من أنثى المرأة . هزت رأسها به بعنى الفهم . ملأت البسمة وجهها عندما دس فى يدها ما لم تكن تتوقعه . لى بكد ينزع الحلاكة والقميص ، حتى لاحقته بصربة فى كتفه ، فصرح مثالما . غابت الجرر السحرية الباعثة للشوة . لم يعد إلا الأثم القاسى . دفع المرأة بينين اسلدهما بالعصا الجلدية ، فدميتا . لاحقته بشتائم وبصعاب وركلات بقدم صعبة . باحت مشاعره . تبلورت أمثباته فى أن ينتهى الموقف حالاً ، ولا يجد نفسه فى هذا المكان . حين أصبح ما حدث ذكرى ، بدأ الفارق متسعاً بين السيران الهادئة الجميلة فى بيت حارة سيدى داوود ، والجحيم الذى أذاه فى كوم بكير ..

لمح حمادة بك استجابة تعاطف فى أعين الجالسين . هناك :

— هذه مؤامرة لتعطيل مستقبلى ..

قال سعيد النقيب :

— أى مستقبل ؟.. أنت تترك مسئولية شعبك للأخرى ، وتكتم بالصبر فى الثوار وعلى القهاوى ..

قال عباس الخوالقة :

— هل يمكن أن نرجئ ذلك كله إلى ما بعد الانتخابات ..

أضاف للدهشة المتسائلة فى عيني النقيب :

— مهما نطل أيام الحكومة الحالية .. فالمتوقع إجراء انتخابات جديدة ..

ثم بنبرة ملاينة :

— كما تعرف .. حمادة بك يدور ترشيح نفسه !..

قال الحاج قنديل :

— نحن نعرفك .. فلا تدع لما حدث تأثيراً على صداقتنا !

أرشف محمد صبرة :

— غداً تصفو الغيوم .. فلا تشغل الآن إلا بعملك ، والاستعداد

للاختبارات التى اقتربت

وأضاف لنظرة حمادة بك المتسائلة :

— هذه الحرب المفاجئة فى فلسطين .. ستعجل بعودة الوفد !

قال المعلم أحمد الزردونى :

— قل لأن الوفد هو أجدر الأحزاب بتولى الحكم !

قال الحاج قنديل :

— هذا كلام وقى متعصب .. الوفد انتهى منذ ٤ فبراير ..

قال الزردونى :

— عندما وافق للحسن على تولي الحكم ، وإلحاق البلاد من كارثة !

قال محمد صبرة :

— البلاد تحتاج الآن إلى قارعة .. كذلك التى تحدث عنها سعد زغلول !

انصرفت الكلمات ، وتشابكت . توالى الأسئلة والأجوبة ، والآراء

الزاعقة والهامة . ظل داجل أسوار الجرر الوحشية : هل يقتصر ما حدث

على جلساته القريبين ، أو يدعى سعيد النقيب ، فيفقد الفرصة فى تحول

الانتخابات ، وفى مواجهة الناس ؟ هل هى النهاية ، تبين عن ملامحها

القاسية ، والشيقة ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :
 - عدد كبير من الصحابة والأولياء هاجروا إليها ، وماتوا فيها ..
 قال الجد السخاوى :
 - للشيخ سلامة حجازى يترك الحنة فى الليل ، فيؤذن للفجر من مندة
 البوصيرى ..
 قال محبى قنطان :
 - والصوت الذى نسمعه ؟
 قال السخاوى :
 - صوت الشيخ سلامة ..
 قال محبى قنطان :
 - إنه الشيخ عرابى .. مؤذن الجامع ..
 قال السخاوى :
 - الشيخ عرابى لا يصعد المنصة لأدى الفجر .. حاول ، فبرل حانفا
 للقاء الشيخ سلامة ..
 استورد :

- حتى الآن .. يترك الشيخ سلامة الحنة ليؤذن لصلاة الفجر ..
 نقل الحديث إلى سيد درويش : استمع إليه - للمرة الأولى - فى كوم
 بكير - وجد فى أحنائه ما يختلف عن الأحناء التى اعتاد مسمعها ، وتبأ له
 بمستقبل ..
 روى عن مصطفى كامل بانثا ، وهو يلقى خطبة الوداع بتياترو
 ريزنبا . وسهرته فى الهميرا والكونكورديا ، قبل أن يصبحا دارين للسينما
 . وعن رؤيته لعملية إنشاء رصيف الميناء الشرقية . زمان ، فى العام
 الأخير من القرن التاسع عشر ، أحدثت الاسكندرية من البحر مساحة كبيرة .
 فرصت - من يومها - صربية الاثنين فى العانة على مستأجرى البيوت ،
 معروضة لانتزال ..

العاصفة

نمت الجد السخاوى نظرتة إلى جامع أبو العباس - الرحام على
 الأبواب والسلام ، وعلى الرصيف ، وفى الميدان ..
 فتح حق النخاع . وضع منه فى ورقة رقيقة ، شفافة . جرى
 عليها بطرف لمائه . ثم برمها برفق حتى أصبحت سيجارة رقيقة ، غير
 متساوية ..
 قال :

- كنا فى عز الشتاء لما بدعوا إلى تجديد الجامع ..
 قال عبد الوهاب مرزوق :
 - فى ديسمبر ١٩٢٩ ..
 قال الجد السخاوى :
 - الأيام تجرى ا
 ثم سحب كرسياً من الطاولة المجاورة ، أسند إليه مرفقيه ، وأردف
 قائلا :

- هذه المدينة ملجأ الأولياء ..
 قال قاسم الغريانى :
 - الأولياء فى البلاد كلها ..

(٢١٦)

— لماذا ؟ .. لأحد يعطيك الجواب ..

ثم بنبرة ساخطة :

— لوقف الحيز .. ولانوقف الأذى ! ..

قال قاسم الخرياني :

— عمر الجد السخاوي من عمر حلقة السمك ..

هتف الجد للسخاوي في استنكار :

— هذا يعني أنني ولدت أيام محمد علي ..

ثم وهو يهز راحته :

— الحلقة مضي عليها الآن أكثر من مائة سنة ..!

قيل إنه عمر في حياته ، لأنه كان يحرص على مصغ طعامه جيداً ،

ولاشبع ، وربما استعنى عن طعام المشاء . وكان يقتل من مجاعة زوجته

، ويقتل من أتوايه هي صيف وشتاء ، ويعصل أن يميز على قدميه ، إلا

للمشاوير البعيدة .

قال حمودة مخلو :

— الجد السخاوي يحب البانجنان في البر .. لكنه يتشامم من وجوده

في البلاس !! ..

أطلق قاسم الخرياني ضحكة معانئة :

— هل تذكر لما عاد بالمرحة ، لأنه رآك تقضم مانتوتش بانجنان ؟ ..

أعاد عبد الوهاب مرزوق الكلمة :

— بانجنان ؟ ؟ ..

قال الجد السخاوي :

— حصل !. ولو لم أفلع لواجهنا مصيبة !

أطلق الخرياني ضحكته المعانئة :

— مصيبة بانجناني ..

هتف الجد السخاوي :

(٢١٧)

— أنت قليل الأدب !

كان الجد السخاوي يؤم بأن الصيادين لا يركبون البحر إلا وأجالهم

فيه ، لكنه يهود بالبلاس إذا صادف ما يدعو للطميرة ، أو التشاوم . يحتسى

أقلام الريح عليه ..

فلجأ قاسم الخرياني الأذان :

— نفسي أشوف الجد السخاوي في بيته ..

علا صوت السخاوي بالضيق :

— البحر هو بيتي !

قال الخرياني :

— لا .. بيتك مع الحاجة ! ..

قال السخاوي في صيفه :

— وهل شكوت لك بأولد ؟!

قال الخرياني :

— منظرك يوم غرق البلاس أكد حاجتك إلى الراحة ..

• • •

التوات لها مواعيدها التي يترقبها الجميع ، لكنها تأتي كالمفاجأة ، تدين

ملاحمها في الأصرار التي تحدثها ..

تميرت الريح . غشها لون أصفر . ومصر السرق ، وتساقطت

الأمطار كسيل . علت الأمواج ، وعلت ، حتى ساوت الجبل ، جبل حقيقي

من الماء ، يتحرك ، ويدو محيطاً في اندفاعه نحو المركب . تغطيت القنوع

والهضاب والجبال . كورت النوة قصة الشراسة ، وتوالت صريراتها . هبت

بصغير كاللواح . بدأ البلاس في التزح تحت ثقل الموجات المتتالية . علت

المقدمة ، وهوت . كأن الأمواج للعالية تطويها . تطوى البلاس كله ،

وتطوى الرجال . لكنها تملو . يصعد بها الموح ، فيتعثرون في أملاكهم ..

قال محيي قبطان :

(٢١٨)

— الاسكندرية كلها فى حالة طوارئ لشوة العطاس .. حتى الميناء
معموا التحول فيه إلى الممرات أو الانتظار فى منطقة الحطاف ..

همس الجد السخاوى بما يكفل تسكين الريح : إقناذ مزاج من دهس
ادمى ، تهدأ به الرياح ..
كيف بعد الدهن ؟! ..

اكتفى بما قاله ، فلم يتكلم عن الوسيلة . وأيقن الرجال أن الجد
السخاوى أصابه للحرف ..

هبطت موجة عالية ، رجعت البلاس ، ودمرت الكابينة . تسربت
المياه من ثقوب كثيرة ، تعالت أصوات تكسر وإرطامات وصرخات ..
بدا للجد السخاوى متحيراً ، ومتحاذلاً ، اعتاد الرجال شحطاته
وطراته وتحذيراته ونواحيه ، لكنه احتوى وجهه براحتيه ، ونظر إلى
انفراخ فى دهول ..

جاور الرجال لارتكابه ، وتصرفوا . أقنوا فى البحر بالحمولة
الرائدة ..

هناك حمودة هول :

— الندة انكسرت !

غابت اللدة — فى اللحظة التالية — فى جبال الأمواج المتتالية ..

دوى انفجار فى المحيط ، وامتدت التيرال فى الجره الحلقى من
البلاس . ألقى الرجال بأنفسهم فى البحر ، وسبحوا إلى الجزيرة القريبة ،
فى مواجهة الأنفوسى ..

دار البلاس فى نواصة ، بلا توقف ، حتى تحطم هيكله ، وابتلعه
القاع ..

لما هذأت الريح ، ومسكن البحر ، طفت ألواح خشبية ، تتعاقب،
الأمواج بالقرب من الشاطئ ..

• • •

(٢١٩)

قال الجد السخاوى :

— ماذا تريد يا ولد .. هل أترك البحر ؟!

قال الغريانى :

— لكل وقت أدل ..

تتهد فى نعاد صبر :

— وما أذان هذا الوقت ؟

جاهد الغريانى ليهدأ صوته :

— أدبت رسالتك .. وعطينا أن نمستعملها ..

زوى للسخاوى بين حاجبيه :

— أنتم ؟ من أنتم ؟! .. ماذا تعرفون عن البحر ؟!

ورمى الغريانى بنطرة سحط :

— ماذا تعرف أنت عن البحر ؟! .. لو أن البلاس واجه نوة فكل

ماسمعله هو الصراخ .. وقد يكون للسك تحت البلاس فلا تنننه ..

وعظه الانفعال :

— البحر ليس وطيلة نتركها فى المعاش .. البحر بيتسى وحياتى

الحقيقية ..

ثم وهو بهر قبضته :

— لكن .. من أكلم ؟!

وانتظر فى جلسته :

— ماذا تظن يا ولد ؟! .. أنا أعرف عن البحر ما لا يعرفه كل

الصيادين .. وقتكم بين نساتكم والصراحة فى الشوارع .. أما أنا ، فوقتى

كله للبحر والبلاس والصيد ..

وفرد ذراعيه بامتدادهما :

— حتى الآن ، أتمد على الشمس حتى تزول .. فهل تستطيعون احتمال

حرارتها ؟!

(٢٢٠)

ثم وهو يعالِب اختلاج عينيه :

— هل أجلس في البيت كالحرِيم ؟!

وداحل صوته حشرجة :

— أو أفتح لتفسي فِبراً ، وأتمدد داخله ؟!

قاطعه العرياني في غضب :

— يارجل .. لاتحتم بشيحوختك !

لم يعد الجد السخاوي يذكر السموات التي أمضاها في البحر ، يطمنس إلى كميات الثلج في التلجة ، يتم على العزل ، وعلى الطعام والنشأى والسكر والماء العذب ويرطمان العسل . يجد فيه تعويصاً عن كل الأطعمة . يأكل منه ثلاث ملاعق في الصباح ، ومثلها قبل النوم . إن لم يثق من الطعام إلا المعينات ، يستعاض به عنها . فوائده لاتحصي : ينقى الكبد والصدر ، يدر البول ، يلين الطبيعة ، يطرد البلغم ، يجلى الأوساخ في الحروق والأمعاء ، يحفظ صحة اللثة والفم . ومع حبه للشمس ، فإنه كان يستحم في ماء البحر ، طيلة أيام السنة ، حتى في عز الشتاء ..

كان يحمل في ذاكرته الكثير من الأحاديث والحكايات والقصص والحكم والأمثال والأقوال المأثورة . يرويها لتأكيد آرائه . وكان يحفظ أغنيات البحارة والصيادين ، وحكايات ألف ليلة . السندباد ووادي الحيات ووادي الأكمار والبرجد ووحوش البحر والأكرام وطائر الريح . يروي عن أسماك تتحد لنفسها لون المنطقة التي تحيا فيها ، تبدو جرداً منها ، وأسماك تصدر منها الأصواء ، كأنها قاتوس محرى . ويروي عن العيتان في أعالي البحار ، تشرب المياه ، وترفعها إلى أنوفها ، فيحدث الجزر . وتتففس ، وتفرج المياه من أنوفها ، فيحدث المد ..

لم يكن يعمل ساعة ، يعرف الوقت بالنظر إلى السماء . وكان يحرص على الحاتم ذي الفص الباقوت في أصبعه . يؤمن بأنه سيخيه من السوات والأعاصير ، ويقذّه من الغرق . ربما لهذا قاومت شيحوخته ،

(٢٢١)

فانستطاع العم — بعد غرق البلاس — إلى جزيرة الأنفوشي .. وكان يثق أن سيدنا الحصر يظهر للسفن التي أمر أهلها ، فيرشدها إلى الطريق الصواب . شرب الحصر من يدوع الحياة ، فهو حي حتى يوم الحساب ، وهو يظهر للمسلمين في حيرتهم ، ويلبس الثياب الحمراء ..

ترامى صوت عم سلامة من داخل القهوة :

— أنا أجا إلى الجد السخاوي فيما أواجه من مشكلات ..

تلون صوت العرياني بسخرية :

— هل يدلك على أفضل أنواع الطبخ ؟!

قال حمودة هلول :

— كل الصيادين عرفوا البحر من الجد السخاوي ..

أردف بلهجة حاسمة :

— الجد السخاوي سمكة .. إذا عذرت الماء واجهت الموت ..

قال العرياني :

— هل ينكر الجد السخاوي أن اشتراكه في هوجة عرابي كان السبب

في هزيمتها ؟!

قال السخاوي :

— لم يبق يا ابن الكلب إلا أن تزعم اشتراكى في الدفاع عن رشيد ؟!

قال العرياني :

— بل حدث .. ومشاركتك في الانتصار على الانجليز حسنك

الوحيدة ! ..

تدخل عبد الوهاب مرزوق مداعباً :

— فلترك للجد السخاوي إذن قيادة الجيش المصري في فلسطين ..

التفت العرياني إلى الطريق . مصمم شفتيه في حزن :

— ماذا جرى لك يا علي ؟

اعتاد الناس تصرفاته الغريبة . يمشى ويقف ويجلس ويقوم ويكلم نفسه ويعنى ويرقص ويكنى ويصرخ ويطلق الصيحات ويتهدج بالأدعية . ركب - ذات عصر - عصا من الجريد ، لها عيبان وأنف وفم ، وطاب بها الميدان ، حول الموصيرى وأبو العباس وياقوت العرش والأولياء الاثنى عشر ..

قال حمودة هلول :

~ لماذا لا يذهب على الراكشى إلى فلسطين ، فيقضى على اليهود ببركته ؟!

لنجه ياقوت بالخرطوم ناحية الأولاد ، ضبط على فتحته بأصبعه فاندفعت المياه ، وأغرقت أجسامهم وملابئهم ..
جروا ناحية الشوارع الجانبية .

العودة إلى بحرى

طلب الرجال على تحلقهم حول المعلم كشك ، يوضحون ، ويتحاليون .
يعدون بأن تكون إقامة صابر الشيلجى فى القهوة مؤقتة ، حتى وافق المعلم على عودته ..

~ لاحتله ثلاثة أيام لا رابع لها ..

وأشاح بيد غاصبية :

~ من يعتدى على أعراض الناس لا مكان له عندى ..

ونهد :

~ لو ألى المرحومة ابنتى فى بيتها ، ربما كان طلع إليها !

فاجأته المرأة - لما رآته على باب الحجرة - بصرخات متلاحقة ،
حائفة ، منفعة ، مستعينة . هرجت الأقدام الحافية من البيوت إلى الأسطبل .
وترك رواد مطعم اللبلاء ، القريب ، ما بأيديهم . صرحات المرأة لاتصمت
بدخول من قدموا لإهانتها ، وصابر يتلفت فى حيرة داهلة ، كمن فوجئ
بوجوده على باب الشقة ، وبالعزاة ، وبالأعين المتسائلة الملهوفة . غابه
الارتياك ، فلم يستطع حتى الكذب ..

خمن العادمون ماحدث ..

اتجهت لساتهم وقبضاتهم وركلتهم إلى صابر : وهو فى حيزه
الداهلة ، يتلقى الصربات ، لا يحاول دفعها . أمر عباس الحولقة - وهو

يُسمح من عيبه آثار النوم - على اقتياد صابر إلى نقطة الأنطوشي . تحاليل محمود عباس الخواقة حتى اكتفى أبوه بخرق الشبلنجي من الاسطبل ..
لم يتكلم ، ولا أقدم على تصرف من أي نوع . لم يدبر نفسه لكلام ، ولا لتصرف ، لغاب رد الفعل . فوجئ بوقفه أمام المرأة ، متعلما فوجئت به ..

كانت تشر العسل في البلوكية المظلة على شارع سيدى قطمان . ترتدى قميص يوم من الثوبلين الأسود ، الشفاف ، مشعولا بالثرثر الأبيض تبدو من تحته ثيابها الداخلية ، ولحم جسمها ، وبروت حلمتا الثديين .. لم يكن خطأ داحل الحجر ، ولأعد التصرف أو الكلمات ، عندما فاجأته المرأة بصراحاتها المتوالية ..

بنت الكلب ... ناقص رجل عن الأعرح ؟ .. وهل جراه تسترى عليها هو الفصيحة وقطع عيشي ؟
قال مصطفى حجازي :

- لماذا لا تساعد عم محمد الطوشي في صنع الهريمة ؟
قال حسين الدمهورى :

- وهل يظلمه الطوشي على طريقة صنعها ؟
قال عم محمد الطوشي يستأين المعلم كشك . يعلق عليه باب المطبخ ، فلا يشاهد أحد طريقة اعداده للهريمة ، وتسويتها ، وإن راه الرجال يصعب الصبوبة - بعد تجهيرها - على صبوبة - في حجمها - من الماء الساخن كان صابر قد أعد نفسه للعودة إلى رشيد ، لما وافق المعلم كشك على أن تكون القهوة مقراً انتخابياً لعمادة بك ..

أشار حمادة بك بعينه إلى صابر الجالس على كرسي بجوار النصفه - ماداميل ؟

قال المعلم كشك :

- كان سائماً في اسطبل المرحوم ناجي التميمي ..

حذجه بنظرة مستربية :

- والان ؟

رماه المعلم كشك بقرف واضح :

- كما ترى ..

- لماذا ؟

أسرع صابر بالإجابة :

- للتصيب !

قال حمادة بك وهو يتجه إلى الباب -

- أحتاج إليه في فرن التمرأية ..

تابع - في تردده على كهوة الزردوني - أحوار المرأة ..

أقول إنها باعت الاسطبل لتاجر علال قبضى في كرمور ، وإلها ساقوت إلى قريتها القريبة من كوم حمادة . وقيل إن الأسطى فتحى استأجر لها شقة في حط الرمل ، يمارسان فيها حياة الأرواح دون عقد مكتوب ..

قال صابر الشبلنجي :

- بنت المروكب ! . تبيع الاسطبل من أجل الأعرح ؟

قال مصطفى حجازي :

- القلب وما يحب !

قال مؤمن الدشناوى :

- غضبت لأنها فضلت الأعرح عليك ؟

قال مصطفى حجازي :

- ربما وجدت المرأة في عرجه ما يستهويها ..

ومصت عينها صابر بالصيق :

- هزر أم جد ؟

قال مصطفى حجازي :

إقامات صامنة

أذهنى غياب الحزن عن كلماتك وتصرفاتك ، كأن يسرية لم تمت .
كأنها امرأة أخرى ، غير التي قرأت لها الشوق في رسائلك من المدن
المعبدة ..

امتد الليل ، ولم يعد - في قهوة البحر - سواها ..
قلت في إشفاق :

- ألى تذهب إلى البيت ..

- تصابقى الوحدة .

عالت ترددي .

- بارك الله في يسرية !

- يسرية ماتت !

ماتت ؟!

تداخلت صور وكلمات ، تشابكت ، واجتلطت ، فتأكد السراب في
نهاية الأفق . أحسيت بدوار ، وتخاذل ، وأنى لا أسمع شيئاً ..
دنياً كنا معاً ، فى أى مكان . لانتعرب السؤال عن الآخر إذا كان
أحدنا بمفرده ، لاتفترق فى البحر ، أو على الأرض . نجلس فى قهوة
الزردونى ، أو قهوة محيط ، أو فى ورش المراكب . ربما دعوتنى - أحر
الليل - لمرافقتك إلى البيت . تدعو يسرية ، فتجلس معاً . لسهر ، وبستمع
إلى الرنديو ، ونزوى الحكايات ، ونلعب للكوتشينة ، وبصعد إلى السطح .

- بل كل الجد .. للنساء بطرنتن التي لانهما ..

قال مؤمن الدشماوى :

- هل كنت تتطلع إلى مكان الأسطى فتحى ؟

قال مصطفى حجازى :

- أحمد الله على ما أنقته لك للعلاقة من رجولة !

ركن عم محمد الطوشى عربته إلى جانب الرصيف فى لهوجة . بدا

انفعاله فى لهات أنعاسه :

- هل نحن على أبواب ثورة ؟..

اتجهت إليه الأعين متسائلة ..

- الطلبة يهتفون فى الشوارع : لأمك إلا الله ..

قال المعلم كشك :

- الناس تملئ لأكثر من مصيبة .. الهريمة فى فلسطين .. وطلاكه من

فريدة ..

ثم وهو يصرب كفا بكب :

- إذا كانت المظاهرات قد خرجت بعد تقديم الدول الكبرى قرار تقسيم

فلسطين إلى مجلس الأمن .. فمادما ينتظر بعد صياغتها ؟!

واغتصب انضمامه :

- خطأ القرائنى أنه لم يحاول حل قضية فلسطين مثلما حاول فى

قضية الجلاء ، فمادما لم يقل لليهود اخرجوا من فلسطين أيها القراصنة ؟!

قال الطوشى :

- المظاهرات تهتج : حذاء فريدة فوق رأس فاروق .. خرجت

الطهارة من بيت الدعارة ..

وداخل صوته تهديج :

- هل نحن على أبواب ثورة ؟..

(٢٢٨)

بطل على استدارة المياه ، مند السلملة إلى مابعد باب رقم ٦ . نتطلع الى أنوار الليلسات في الميناء الشرقية ، وعندة أبو العباس . وصوه البواء يضىوى ، ويختفى . ربما لشرب سمكاً من الحلقة . أنبله ، وأقنيه دى للمطبخ ، أو أشوى اللحم على الفحم فوق السطح . السطح الذى كنت أنتظر منه إشارة سرية ، فأجبه إلى البيت ..

حين أصبت فى ظهري ، وصافرت - بمفردك - للمرة الأولى ، لم أعد أتردد على البيت . وكنت أنتظر في الميناء ، وفى قهوة الرندوسى أجلس إليك بالساعات . تروى وتروى وتروى ، وأنا مفتوح العينين والعم . أسبح إلى موأني ومدن وجرر . أنتسم ، وأحرر ، وأصحك . وأستوضح مايدنو غامضاً ..

نقول لى :

- أنا أرى الناس بمشاعرك يا محتار .. البحر إيمان !

التفتيت بيصرية - ذات صباح - فى الحناء المواريتى إلى ميدل المساجد ..

- كيف حالك ؟

- الحمد لله ..

- لم نعد نراك ..

- أعاد الله ثروت بالسلامة !

- وصلنتى رسلتان منه .. لونه تقرأهما لى ..

زرتها فى مساء اليوم نفسه ..

تركتنى أمام الباب ، وعادت من داخل الشقة بالرسالتين ، فقرأتها ..

أقطنى تنبيهها من رحلتى فى المدن الغربية ، والساحرة ..

تكررت زيارتى - أقرأ الرسائل - وأمضى فى التصور والخيال

والحلم . ربما توقفت عن القراءة ، لأصيف إلى الكلمات بما يشكل مشهداً ، ومشاهد ..

(٢٢٩)

تنبيهنى ، فأعاود القراءة ..

ثم لأم الموج جزيرة للسحر للمرة الأولى ..

قالت :

- ثروت وحشى ..

قلت :

- رسالته الأخيرة تؤكد عودته بعد شهر واحد ..

- وهل الشهر قصير على امرأة بلا زوج ؟!

ومصمصت :

- سحر الصغيرة تعامله كعريب .. تمضى أشهر لاتراه ..

همست بالدهشة :

- إلى هذا الحد ؟ ..

استطردت فى نبرة ملوبة :

- يرفض أن يواخى البنت بولد ..

وتنهدت :

- متى يعود ويستقر ؟ ..

قلت :

- وهل هناك أجمل من الحياة فى البحر ؟!

- وماذابنى أنا على البر ؟!

استقبلت يدها المصافحة التى أعفيت قولها . سرى المعلمين الساعم

بحذر فى يدي . امتد إلى جسمي ، فلفسى تماماً . استيقيت يدها ، ولم

تنزعها . ركلت الباب بقدمي ، وتناقرت الأسماك فوق المياه ، وانطلقت

النوارس بعيداً عن الشاطئ ..

ثالث يوم ، فاجأتنى بوقفها أمام للقهوة :

- أين أنت ؟

(٢٣٠)

تحلت البساطة عن عيونها للتوقع والمجهول . لانهل البيت إلا إذا
تأكد لي حلو الطريق . بحوص في الأمواج . تطوبنا مياهها الشبقة . نتعمد
الاكتفاء باللحظة ، منفصلة عن البداية وملامح الأفق ..

توقعت أن يحامرك الشك . تلتقط ملاحظة عن ترددى على البيت في
غيبك . قدومها إلى القهوة . سألت نفسي : هل تواتى الشجاعة ، فأنظر
في عينيك ، وأتكلم ، أهد وأعطى . وماذا لو أنك دعوتى إلى البيت ؟ هل
أذهب أو أعتذر ؟ ..

قلت لي بعد غيبة :

— لم نعد نسألني عن رحلاتي ..

— أنت يادوب تصل إلى الإسكندرية ، فتسافر ثانية ..

قال :

— هذه المرة ستطول إقامتي ..

غابت الإرتباك :

— خيراً ..

— حيراً بأذن الله .. أجرة قد تبلغ للشهرين .

وسحقت بغايا السجارة بقدمك :

— سأروى لك الكثير مما يروقه ..

واعتذلت في مولجتي ، وبدأت تروي ..

أنظر — بطرف عيني — إلى يسرية الجالسة بالقرب منا . الأسئلة

والتعليقات والصحكة الصافية . لم يكن الشك مما يدور لي ببال . لو أن
العلاقة كانت مع غيري ..

كانت رسائله متحتي الحقيقية . أسأل — بصديق — عن وصولها . لا
أترع بها بداية لخطوات نائية . ماتحكيه الرسائل يكفيني في ذاته . أدهش
لما ترويه عن تواصل الأيام ، والمشاهد المتكررة ، والملل ، والحين . لم
أحب يسرية ، ولا سمعت إلى حبها . فأردته هو الرسائل التي تصور م

(٢٣١)

لشوق ثروتته ، الحكايات التي رويتها أنت لها ، عن الناس والموانى
والشواطئ والأسواق واليمن البعيدة . فعلت ما فعلت دون أن يحظر في بآلى
أن أنسلي بها ، أو ألدعها . كنت أصلاً فراعاً في نفسي ، خلفه غيبك .
شغفي بالحكايات يسبق شوقي لحضنها ..

فاجأنتي — ليلة — وهي تشير إلى بطنها :

— أنا حامل ..

استصعبت الكلمات ، فسكت ..

كان الهاجس يدغمني : ماذا لو أن يسرية حملت ؟ كيف تواجه

ثروت ؟ وماذا لو أنه عرف بكل ماجرى ؟ ..

قلت :

— ألا تحد ماتقوله ؟

تحشرج صوتي بالقلق :

— مثلكة ؟ ..

— أنا في الشهر الثالث ..

في لهعة :

— ربما ثروت ..

هزت رأسها :

— ثروت يحرص أن يزرع نفسه عندما يبلغ الذروة ..

علا ألقلق بصوتي :

— هل ستحتظين بالجنين ؟ ..

وشى صوتها بعصبية :

— أنت تكتفي بالأسئلة ..

— ماذا تظنين أن أفعل ؟

وهي تترقر :

— أسئلة .. هذا كل ماتملكه ! ..

فاجأنتي بالسؤال :

- أنت لم تسألني عن يسمية ..

غالبت الأرتالاه :

- كيف حالها ؟

- أنغام شكواها ارتفعت بطلب الخلفة ..

- وهل الميب فيك ؟

- نسيت أن لي أمة منها ؟! ..

ووشى صوتك بالفعال :

- إذا أجبت .. أفضل أن أطل بالقرب من الطفل ..

هل عرفت حقيقة ماحدث ؟ ..

لم شح لي بما توهمت أني لا أعرفه . لم تكن ولاد الحنين الذي حملته

يسرية في بطنها . للتصرف طريق مسدودة ، فقتلها الإجهاض ..

هل اتجهت بشكوكك إلى أحد ، أو اكتفيت بذاتها ، ولها تستحق

الموت بما فعلت ؟!

أصداء الطبول البعيدة

قال لأنسية من بين لهاث لنفسه :

- رأيته .. أنسم أني رأيته !

حدثته ببطرة متسائلة :

- من ؟ ..

- فواد أبو شنب .. رأيته يبيع الصنف ..

دارت انتسامة بيدها . بر بقسعه لها - في الصداحية - أن يقلع عن

تعاظمي المحدرات . لا حشيش ولا أفيون . حتى الفهاوى قلل تزدده عليها .

وتكرر اعتذاره عن الدعوة إلى قعدات المزاج ، فلم يعد ينتظرها ..

قالت وهي تهر كنفها :

- ومالنا ؟ ..

- لم يكن يشتري .. كان يبيع على باب بيته !

- يشتري أو يبيع .. مالنا نحن ؟ ..

- من قال ؟! .. هذه نقطة ضعف أستطيع أن أمسكه فيها من شبيه !

أدله وقوف التابعة بما يحملون . عربات يد وطاولات ، وصعنت

فوقها قطع الحشيش والأفيون والموازين . وسط الشارع ، أو داخل

التكاكير ، وعلى الأرصفة ، أو يستندون إلى الجدران ، أو يجلسون في

الفهوة الوحيدة . يقطعون مابأيديهم إلى قطع صغيرة . مايمس به البائع ،

ينقصه دون فصال . لا أخذ ولا رد . تختفى الحلقات الصغيرة ، وتنشأ

بقوت لعرش

حلفاء أخرى . ربما صعد أحد البيوت القديمة . نشى واجهته باختلاف عن بقية بيوت الشارع . بنقر - بأصابع مدبرة - على باب شقة في الطابق الأول . يطل وجه مستريب . يدفع القروش . يخرج للبايع قطعة كبيرة من الألبون . يقطع منها بالسكين قطعة صغيرة في حجم الترسمة . يلقها في ورقة ميلوفان ، وهو يهمس بكلمات مجاملة ..

يدين للرجل بتعلم الحيازة . عمل عجافاً وطولجياً وفراشا . قبل أن يختاره والد حمادة بك رئيساً للمعامل ..

لم يكن سيد يعرف الفارق بين أنواع الحبز . عيش القمح ، عيش الدرة ، العيش المرمرح ، العيش اللبناو ، العيش المفروض ، العيش المبسط .. قدم إلى الإسكندرية من كفر الدوار ، للاستمتاع بالفعال . زار المرسى ، وتجول في شوارع الحى . مال إلى مطعم النبلاء . جرى بينه وبين عم سلامة حديث ، نله على قهوة كشك ، وقدمه إلى حمادة بك ..

وقف - في البداية - أمام الساحور ، يعين للدقيق - ثم اختاره فؤاد أبو شنب للعجين . يسحب الطواويل الحشنية من المعجن ، يضعها لصق الجدار للمواجه للفرن . ثم عهد إليه بالوقوف أمام الفرن . يلتقط قطع العجين المكونة من لوح المعجن . يبطها ، يصممها فوق المطرحة ، يدفعها إلى القهوه . تعلم حتى العبارات المصاحبة لعملية الخبز : يد الله قبل أيدينا .. يارب اكفنا شر المعتل .. يارب اكفنا شر المستحبى والمداوى .. ربما دسح بالأغنية : ألى متاعش ترميها .. على بيت لبوها وديها ..

كان أبو شنب يعنى حمادة بك من مسئوليت الفرن . يدفع بأحد العمال ليواجه اتهامات مفتش التمرين ، أو يفد أحكام الحبس . يتصرف في كبسات التمرين التي تشترط الرغيف الكامل الاستدارة ، المضبوط الوزن . حين ألبت أنسية عرصه بالزواج ، فلأنها كانت تريد الاستقرار ، ولأنها أحبته كذلك . أحب طيبته وطبعه الهادئ . كان الرواح في خيالها كالأمية ، كالحلم ، كالصدي البعيد . تحن إلى الرجل جوارها ، يعلق عليهما

بنا ، فلا تخشى المفاجأة . يشتغل بها : أين تذهب ؟ ولماذا تأخرت ؟ . يصربها لحوفه عليها ، لا لإرضاء نفسه . لم تصع في بالها شخصاً بالذات . محمود الحواقة أو سيد الفرا أو قاسم المرياني ، وغيرهم ممن تردوا على البيت المهجور . يفصون الأوقات ، ويعودون إلى البيوت والنساء والأولاد . حتى سيد الفرا - إلى يوم الإصراب - لم يدخل معها في كلام . يستل وراءها في طلام البيت المهجور . يرفق ابتسامته المرححة نسه للحبز الرجوع في يدها . يهز رأسه مجيباً إذا رآها في الطريق . فاجأتها زيارته صباح يوم الإصراب . اعتادت أن تخلق عليها باب البيت . لا يتردد عليها أحد ، فيلفت النظرات المتطلعة من النوافذ المقابلة ..

فاجأها عرضه بالزواج . تصورت أنه يريد تأكيد إعزازه ، لكنه كرر العرض . عاد إلى ذهنها مبادا بعيد التحقيق ، أو أنها أمهاته . أحببت المحسى : أن تكون زوجة . رجل واحد يقسمها السرير ، والأكل الذى تعده ، وتعرف صوته حين يعود أحر النهار ، فتفتح له الباب ..

- صحیح ؟

- لی أجد أفضل منك .

- قد يرفض أمك .

- أطلق ضحكة بريرة :

- أنا مقطوع من شجرة ..

- هل أنت جاد بالفعل ؟ ..

- كنت أحتش أنك ترفضين ..

- ضربت صدرها بيدها :

- أنا أرفض !

- لمعت على قد المغم ..

- رفقته بنظرة مسترربة :

- لمعت جادا إن ؟

قال في بساطة :

— لم أكن جاداً مثلاً أنا الآن !

لم يكن في فتوة محمود الحوالة ولاجرأته ، ارتحلت بين ساعدي محمود ، وكنت صراح اللذة . عوص سيد — دون أن يدري — بصبره عليها ، يظل حتى يلمح في عينيها ذروة الاستجابة ..

قالت لسيد مذابة :

— إن أبات جعانة وزوجي خيال ..

— لم أعد كذلك ..

— هل أنت نادم على أيام القرن ؟

رسم على وجهه ابتسامة تأسف :

— من يندم على أيام أبو شبيب ؟

لم يطلب للتاجر كمال مصباح إيجاراً ، منذ سكن الشقة . وحين دفعت سيد للتلميح ، رفض الرجل . قال إن إيجار الشقة هديته إلى مقام سيدي يا قوت المرش ..

لغت حياتها ، تطبخ ، وتعدل ، وتكنس ، وتطبخ الشقة ، وتساعد بالعمل في بيت عبد الله الكاشف ، وتنتظر عودة سيد ، ربما أطلقت من القاعة ، تتابع — بمطربة غير متألدة — لعب الأولاد بالنحل والبلبل والذوم نورب صلفتي السادة . تتطلع من الشق الطويل بينهما ، أو تنظر من خصائص البادة المعلقة . تتأمل الباعة يعرضون ويبيعون لصق الجدران ، وفي القهوة الوحيدة ، وأمام أبواب البيوت والدكاكين . ربما علت الأصوات بالحدة ، أو بالنتشاح ، أو أسرعوا بالاحتفاء بصيحة باصورجي . تنحل ، وتعلق السادة ، لمطربة متوجسة . يأتي سيد فيجدها في انتطاره . تعقد مايطليه . لاتناقشه ، ولاطلب إلا مايجتاه البيت . لمحها وهي تنقل صرة

من أسفل السرير ، لتتلف مكانها ، هذه صرة بيت سليم البشري . هزت رأسها . ضرب جبهته بأصابعه :

— لك الآن دولاب وتحتطين بالصرة ؟

لم تعقب ، وواصلت كنس الحجر ..

قصت أيامها الأولى لتجنب الاحتكاك بجاراتها . ثم تعمدت أن يعرفها الجيران . هي ساكنة شقة الطابق الأول في البيت رقم ٩ . زوجها سيد الثمران صاحب كشك أدوات الصيد في ناصية شارع المواربي . تطل من الباقدة . تتأمل السحن في النوافذ المقابلة . تنادي على الباعة . فرحت برد التحية . ثم تبادل الكلام . رحبت بطلب جارة الشقة المقابلة قصير ثوم . أعطتها رأس ثوم بحالها . إكتفت بالنداء على جارة الطابق العلوي ، لما أسرعت في استخدام الماء . تسأل حلال الأرضية الحشوية . أحدث شعا بئل قشر سقها الحديث الطلاء ، وصنع طلالا وتكويبات . ثم بدأت نقاط الماء تتساقط في مواضع من الحجر . نزلت على مفدة السرير ، وخلف باب حجره القعاد ، وعلى طريقة المطبخ . لم تأخذ الجارة أو تعطى . مصصت ، وبرطمت ، وعابت الزمن الذي أسكن بيوت الناس حاديات البيوت ، زوجات كل الرجال !

أعادت على سيد مقافته المرأة . قالت إنها شاهدها — زمان — تحس في كاريوهات الكورنيش :

لولاك يا جولي .. ماكنت ياموني !

بعد أن أعلن سيد اعتزاه الزواح منها ، كف الرجال عن ملاحظتها . عابت التلميذات عن أدبها . تسير . لاتنتفت ، لاتلاحقها عبارة ، أو دعوة ، ولم تعد تتوقع أن يترصد لها أحد في طلمة الطريق .. أحلص في إرضائها . قرر أن يكون هذا عهدا به . يثق فيها . لكن الإطمئنان إلى إغلاق الباب مسئوليته وجهده . لم تعد العزاة مهتة ، ولم يعد يعداد الكشك إلى قهوة كشك . شقته في شارع البلطرية . حطوتان بين

الكشك والبيت . قل تردده على انهواوى وحمام الانعوشى ، واقتصرت تسميته لأسية - خارج البيت - بالجماعة ، وألف ترديد دعاء الجماع : اللهم جنبنا الشيطان .. وجنب الشيطان مارزقنا ..

لم يلحظ مابزادها عليه ، لكنه لم يستطع التحلى عن هواجسه ، أو أن الهواجس لم تعادله . الأسئلة تناوشه وهو يجالس الرجال : من أحدها فى حضنه ؟ ومن أعده للعال عن مصاحبتها ؟ ومن كان ينطلع إليها ؟ ماذا يقولون عنه فيما بينهم ؟ هل يتصورون أنه سيهمل مآثله فى الأيام القادمة ؟ هل يتصورون أنها ستظل على علاقتها ؟ .. يعطى انتهاء لما قد يكون تلميذاً ، أو تمييزاً ، ويعد نفسه لمقابلة شراسة ..

يحاصره الصيق فى نأمله لملامحها الممثلة ، وسمرتها الرائقة ، وحركتها للطعولية كأنها ليست التى أمضت المنير فى التفتل بين البيوت . يطلق أف مجروحة . يزيد شعوره بالصيق من الدافع إلى عقابها . مدربة ، وتعرف كيف ترضيه . يتذكر أنها بثلث الأمر نفسه لأخرين . يحشى أنه ربما التصق بجلدها ، فلا تستطيع التخلص منه .

همست لنفسها ، وهى تطيل النظر إلى جلسته الساكنة على السرير .

- كيف ألقنه بأنى لم أعد أعرف رجالاً عير ؟!

طلبت التوقفة أمام مقام سيدى ياقوت العرش . مدت يدها ، فلامستها يد الممدودة من داخل المقام . مصيبة مع سواد بشرتها . أهد عليها العهد ، وأقصمت بين يديه . إذا حبشت بقسمها ، هان سيدى ياقوت ينقم منها بشل يدها ، أو أنسابها ، أو يصيبها ضرر فى مواضع لا تعلمها من جسمها . تمت أن لادن يذكر من ماضيها لحنوا ، أو أنهم سوا حياتها القديمة . لا يحررون إلا أسيرة روجة سيد الفرائ ، تحيا فى بيتها رقم ٩ بشوارع البلقظرية . ما قبل ذلك لا شأن لها به . وسينته ، ويهيمها أن ينمسه الناس . تستأذن من سيد . يهيم وهو يغادر البيت : الفاتحة أمانة . تمضى إلى أبو العباس . تصعد سلم الباب الخلقى ، فى نهاية الموار بسى . تخلق حذاءها

عند باب القاعة المستطولة ، حالية إلا من المحراب ، والحصير ، والسجعات الثلاث تثلت من مسافات متباعدة ، يحيط بها الحديد المجلس بالرجاح على هيئة ورود تفتح على ضوء المصابيح الساقط إلى أسفل . نصلى وقتاً أو اثنين . ترجى بقية الوقت فى الإصصات إلى أحاديث العوة . تبدأ ، وتمتد ، وتتشاك ، وتخطط . تكفى بالإصصات . لم تذكر حتى اسمها ، ولا أين نقيم . هى واحدة من المترددات على مصلى النساء . تتحرك شفتاها بحول السؤال دون أن تتطه . تكتم الكلمات حتى لا يكر طرف الخيط ، فلا تحسن التقطه ، أو قطعها . تلقى بطرة غوية من نقوب المشربية على صحن الجامع . إلى اليمين : المنبر ، والمحراب ، والواجهة المطلبة على الدخيرة الحلفية . وإلى اليسار عدم السلطان المجاور للبيت الملى . دفعة عبد البسى شعرة المترققة : إسعى .. إسعى وصلى على البسى .. وفى الواجهة ، يفضى الباب الرئيس إلى المياد ، والحديقة ، والنباء الشرقية ، بينما تتألق الأعمدة للرحامية الثمانية ، اوسط الصحن . بانعكاسات الأصواء العرابة من التوافد والأبواب . تستعيد لحظات النصقة والمدد والمكاشفة . هل كان ماجرى حلماً ؟ وهل كان لقائها بالسلطان حلماً كذلك ؟ وصاداً تسمى حصونها على شقة البلقظرية ؟ هل كل التاجر كمال مصباح يعطيا الشعة ، لولا أن سيدى ياقوت العرش خاطبه متلماً خاطبها ؟! ..

حرصت - فى الأيام التالية - على شرب ما أعدته لها الدابة زمزم . تشرب - كل صباح - على ريق النوم - مزيجاً مسحوق من الحردل والعليقة والمغاث والدمسيسة وحلف البر . ثم أشغلت بوحمها . طليت لحماً وعنباً وزماناً وكابوريا . صرح فيها سيد لما طليت طين إيليس ، لكنه اقتطع لها من أرض الطريق قطعة طين . مضعتها وهى تعاتب القرف .. طلعت فى شقتها أربعن يوماً لا تمارها ، حتى لاتكنس . سيد يشتري نوارم البيت ، ويشتر الغسيل ، ويفتح للطارقين ، ويلا لبروز الجبين ،

(٢٤٠)

ر من الحمل . تعرض علي مداراة نفسها ، فلا يراها أحد . ألف سماح صوتها تغنى في الصباح ، مثلما تنهه باكبة قبل النوم . تجد فيما تفعله طرداً للنشر ، واجتلاباً للخير ..

أصرت ، فبدل سيد عتبة الشفة . كنس ماتحت البلاط جيداً ، بحثاً عن عمل . حرصت على أداء الصلاة في مواعيدها ، وخصصت صباح كل خميس لتلاوة القرآن ، تجلس القارئة على كنية الصلاة . تواصل التلاوة منذ الضحى إلى أذان الظهر ..

وصمت مصحفاً فوق السرير ، وبالقرب منه . ووضعت سكيناً حديدية ذات مقبض أسود تحت المعدة . الأرواح الشريرة تحشى الحديد ، ولا تقرب مكانه أبداً . عند تعليق الملابس ، تحرج — أو تقلب — أحد جيوبها ، أو أكمامها ، طرداً للنشر . تصوع الحجرة — في موعد صلاة الجمعة — بالبحور دى الرائحة الذكية ، فوطرد الأرواح الشريرة . تشتد على سيد لشرائه من سوق الترك . وكانت تذكر سيد — كل صباح — بأن يعود — أو تعود هي — بوردة من الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نارلي . تضع الوردة بساقها الشوكية في كوب زجاجي ، لتمنع تحول — أو اقتراب — سكان العوالم السفلية . تحشى الشوك لأن فيه هلاكها ..

أظهر ضيقه لما علقته على جدران الحجرة صوراَ لممتئين ومطربين : كمال التناوى وفريد الأطرش وأحمد سالم ومحسن مزيحل وحسين صدقي وأنور وجدي . تسال إليها في الجلسة الساكنة : هل تنص إلى ماصيها ؟ ..

همس لقاسم العرياني بتعيره ..

أطلق الغرياني ضحكته المقهقة :

— الولاية حامل ياسيد .. وتريد طفلاً جميلاً ..

وسألها :

— لماذا صور الرجال وحدهم ؟

(٢٤١)

قالت :

— أريده ولداً !

رأت — في المنام — أنها أنجبت بنتاً ، ففصاغت . رؤية الولد في المنام ، نذير بمشكلة سحيقة . ولما حلمت بأنها أكلت سمكاً ، قالت لها الداية زعزم : السمك في الأحلام خير . ولما جاءها المخاص في منامها ، قالت لها الداية زعزم :

— حاذرى .. الولادة في المنام نذير شوم !

همست بالحيرة :

— ومادا أفعل ؟

— انذرى للسلطان !

عنيك تميم برد الرضا والتسليم ،
وأتيت في حضرة النعيم المقيم ،
عند الملك الكريم "

" المحب على الحقيقة لاسلطان
له على قلبه لفسير محبوبه ،
ولامشينة له مع مشينته "

" واتلى نازل البحر حرس ..
دا البحر فيه عين .
عين الحقيقة عين ..
عين الشريعة عين ..
وعين للى لآراء العين " ..

لما ظهرت منذرة أبو العباس — أثناء سيره على الكورنيش ، وسط
البنات المتصاعدة — تنه إلى أنه اقترب من بحري . تألف هدير الموح ،
وهسهسة النحل ، ورائحة الورد ، في أنه وأدبته ، مهما ابتعد عن الحي ..
الموح — في أسفل — يصطخب ، يرتطم بالمكبات الأسمنتية الهائلة ،
في امتداد سور الكورنيش ، يتعالى ، ويمتد إلى الرصيف ، يصل الرداء إلى
الجر ، أوسط الطريق والرصيف المقابل ، وواجهات الدكاكين والقهاوى
الملتفة ..

رأى أسراب النورس تحلق فوق السلملة ، تدله على مكان السمك ..
اتجه إليها ..

الساع ضيق الزكوان

قال أبو الحسن الشاذلي :
فرغ قلبك أيها الفقير من الأضمار ،
وهو ماموس لله . بحيث لا يتعلق
قلبك بشئ من الكون عتوياً أو
سفلتاً ، دنوياً أو أخروياً ، حسياً
أو معنوياً ، كحب الخصوصية و
غريها من الحظوظ . فبذا رحل
قلبك من هذا العالم بالكلية ، ولم
يبق فيه إلا محبة مولاه ، فإنه يملأ
بالمعارف ، بحيث يكشف عنك
حجاب الوهم ، ويذهب عنك ظلمة
الحس ، فتشاهد الأنسواء كلها
كسواراً متكونية مشاهدة ذوقية
تدكيئية ، ويمثوه أيضاً بأسرار ،
وهي أسرار الجبروت ، فتغيب
بالتجمع عن الفرق ، بشهود
الجبروت عن شهود المتكوت ،
وتكتشف بأسرار القدر ، فتهيب

عسكري السواحل يزرع الرصيف الحجري في خطوات مرهقة
بنقيته على كتفه ، وبطرقته موزعة بين البحر ولسان السلسلة وطريق
الكوريش ..

تنبه إلى تحرك الغراني في المكعبات الأسمنتية ، أسفل السور . لمح
فأرا بعد سرعة من الطحالب الحصراء المميطة بأسفل المكعبات . يدخل
في الشقوق ، صمغها تفتت الأسمنت اللاصق لقطع الحجارة للصغيرة ، على
امتداد الشاطئ . يدرك التفارق بين الأصوات التي تحدثها ، وأصوات تحرك
القواقع والأصداف تحت الصخور ..

أثر حياة التفتت والزد والسباحة . خلى عياله ، وساح في الأرض
على وجهه . حبس نفسه عن الملاحظة ، واجتنب التبعات ، وواصل الليل
والنهال بالعبادة ، والاستعمال بحفظ الأوقات ، وملازمة الأوراد ، وأداء
الصلوات في أوقاتها . يطيل الدعاء من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ،
ومن العصر إلى العروب . هذه الأوقات هي الأنسب للاستجابة للدعاء .
أصاف إلى عزلة . الصمت ، والجوع ، والسهر . يعني رضاء الله في
كل خطوة ، وكل خطرة ، وكل نص . غاب عن بيته بالإيمان . لم يعد يذهب
إلى الحلاء ، بالقرب من مساكن السواحل ، ولا إلى قهوة الرزردوني ، أو
حمام الأنفوشي . لم يعد يحمل شروحات يبيعها - مثل رمان - في الزم
وطالع . ترك لقدميه مفوده ، تدهان به إلى ميدان أبو الحباس ، يصلي ويفرا
القائحة للسطل ، تطوفان على الجوامع والأولياء . بفرصة الجوع ، فيعمل
على من يتكره ، يأكل أو يأخذ بقودا ، بمضى - دون هدف - تلازمه
الأوراد والأذكار . من يتوجه إلى الله وهم الرزق في قلبه ، لا يفلح . السائر
في طريق الحقيقة يشطه علم الله عن جميع الأسباب . حتى عن رزق
عياله ، فهو ميت حي ، مودع وإلى انتطعت أنفاسه ، محفى رعم ملاحظة
الناس ، صائر إلى النور فلا تشقيه الظلمات العنكاثية حوله . أخرج أهل
الدنيا من قلبه ، وملاء بمحبة الله ، ينام حيث يخله النوم ، في قهوة

مجمع ، أو في صحن مسجد المنيزي . ربما تكوم على نفسه في الحقيقة
المتجورة لمستشفى المسكة بئرلى . دعا الله أن يدرج شهوة النساء من
نفسه ، فاستجاب الله لدعائه . انتصر على رغبات جسده ، وشهوته ، وقطع
رجاهه بدنيا العاوين . استيقظت عين قلبه ، فبانت عين جسمه . لم يعد يطأ
لم العيال ، ولا يدعوها إلى حجرته . ارتفع بنفسه عن رزق الشهوات . نفخ
عنه اللعنة ، فلا تطغ به شهوة جسده . تخلص من وساحة الجسد ، ليتصل
بما هو نقي ، ويدرك نور الحقيقة الصافي ، الذي لا يقترب منه العكر . ذوت
كل منعة . إلا منعة أتوجه إلى الله . حين ينعم القلب بمحبوبه ، لابد أن
يرفض وصال غيره . استمد وجوده من القرب ، وأنسه من المشاهدة ،
ودخل في عين اللذة بتكر الله . الأرائك مصونة على صفات الأنهار ،
والأنهار مصطرة بالنس والعسل ، والرجل من أهل الجنة يعانق الحوراء
سبعين سنة ، يجامعها بقوة سبعين رجلا ، لا يدنطه مثل ، ولا تله ، كلما
أبأها وجدها بكرا ، وكلما عاد إليها عادت إليه شهوته . المرأة من نساء أهل
الجنة لو أنها طلعت على الأرض ، لأصاحت ، ومالت ما بينهما ريحا ،
وحماز على رأسها حير من الدنيا وما فيها . يقال لها : أتحبين أن يريك
روحك في أهل الدنيا ؟ تقول : نعم . يكشف لها عن الأستر ، وتفتح
الأبواب بينها وبينه . تراه ، وتعرفه . تستطقي لذومه ، وتشتاق إليه شوق
المرأة في الدنيا إلى زوجها العائب . إذا اغضبته زوجته ، يشق عليها
الأمر . تقول موبة : دعيه من شرك ، إنما هو عندك دجول يوشك أن
يفارئك إليسا . يحيا الخلود ، فلا يشيح ، ولا يمرض ، ولا يصب ،
ولا يحزن ..

ذهلت أم الأولاد لما وصلت إليه حاله . ترددت على المشايخ الوصلين .
لجأت إلى الشيخ كراوية حادى سيدى مكي الدين . صنع لها رقية ، وطلب
منها أن تأتى بقطعة من عظام ميت ، وشعيرات من رأسه . تكفها في
الليلة نفسها - داخل مقبرة مهجورة . حرصت على أن تحلج ثوبه الأسود -

عقب العشاء - داخل البيت ، ولاتنظر إلى المرأة . للجان يتقصصون الأربية السوداء ، ويحتنون خلف المرأة . وصمت على باب البيت هذا صميراً . قديماً ، لإلهاء الطفرة الحاسدة ، المصعوبة بشبهة الإعجاب . قلبت الألوان والهنون والطناجر والمواعين المفتوحة على أفواهمها ، حتى لا يدخلها الشر . دبحت ديكاً أحمر اللون . ددته في مدخل البيت ، ووصعت حبة البركة في اسجان القهوة ، ليعود إليها مصاباً ، كما كان ..

حين شكا للراکشى من معص في بطنه ، خمنت السبب ، وسكنت . كانت قد مزجت خصلة من شعر رأسها بقطعة صجين . حبرتها لظيرة ، وقدمتها إليه ، فلا ينصرف بجسمه ، أو بفكره ، عنها ..

لما دار بعصاه في يده ، يريد أن يصرب بها ولدأ شتمه ، تعثر في نفسه ، وسقط على الأرض - التفت الأولاد فوقه ، يضربونه بأيديهم وأقدامهم ، وهو يشتم ويصرخ ويستعيث . توقف الأولاد ، وجروا لمصيبة من أول الشارع ..

ساعده أمين عزب على القيام . حذجه بنطرة غاضبة :

- وأحرقتها يا على ؟

أحفص رأسه ، وهمس :

- أريد طعاماً ..

هتب أمين عرب :

- أولادك ألصم يربدون ..

وزده في كتفه :

- يراكشى .. لى يدخل الجنة من يترك عياله ؟

ثم بلهجة متسانلة :

- ماذهب أهل أم أولادك لينفقوا عليهم بدلاً منك ..

ورمه بنطرة مستاة :

- تدعى الصوفية .. والصوفية لهم مههم ..

ثم فى ليلة حربية :

- عبادة الله يارجل لاتمتع من تحصيل الرزق ..

وربت صدره بيده :

- لى ألتعالى التى لأبطلها أنى لأقصى معظم وقتى فى خدمة العبادة !

- أنا صياد ..

شخط فيه :

- تصطاد الهواء ؟.. شف رزقك يارجل ..

فأجاب أم الحيال - والجميع - عندم أنى بالوصة المروكوسة فى

الصدرية . حملها ، وحصل على الطعام والسبابة من سيد الغرائ . هو

لايكره الصيد . لا يكره العودة إلى البيت بب ينظره الأولاد . إتهم يده

المريضة التى تؤلمه ، ولين تيقن أن انشغال المرأة عن ربه حرام ، فلا يسعى

أن يكون فى الذهن سوى الذات العلية ..

قال سيد الغرائ :

- أنت أول صياد أبيع له بالسلف ..

وعلا صوته متصيحكاً :

- فرحتى يعودك إلى البحر أهم من الفلوس ..

هر رأسه ، ولم يدخل مع سيد فى كلام . قطع المبدل إلى الناحية

المقبلة . جعل يماره إلى الكوريش . ومضى . لم يأنه بالنظرات الأذهشة ،

ولا البتة إليها . ظل فى سيره إلى السلسلة ..

أهمل بطرة عسكري السواحل المستنكرة ..

قال الجد السحاوى :

- منطقة المملعة يقول أنها السمك : تعال اصطدى !

ثم وهو ينتهى بمداعبة أصابع قدمه :

- السمك هناك - لكثرة - يقف باتدور أمام سارات الصيادين !

قال قاسم الغريانى فى تأكيد :

(٢٤٨)

- لا يعوق تكاثر السمك بين أبناء الأنفوشي إلا سمك السلمنة ١
المشكلة لم تعد في قلة الأسماك . الأجيال الجديدة من السمك فاهمة ،
تتغير مثل الناس تماماً . تعرف أن هذه بوصة ، وأنها تثلت للصيد . تعرف
أيضا كيف تختبئ بجانب الصخور ، لا بد من محاولة أخرى حتى يخدع
السمكة ، فتلتقط الطعام ..

قال العسكري :

- معك رخصة ؟ ..

قال الراكشي :

- طبعاً ..

وأخرج من جيبه ورقة مطوية ، متهرئة ..

قال العسكري :

- هل في رخصتك إذن بالصيد في الممنوع ؟ ..

وهو يشيح بيده :

- كما نصطاد في أي مكان دون استئذان أو سؤال ..

قال العسكري :

- الآن .. حددت المناطق .. لا بد من رخصة ووثائق لدخول المناطق

الممنوعة ..

ثم وهو يعدل البندقية على كتفه :

- أهدم الله .. حتى نهاية الحرب لم تكن تستطيع الصيد في الكورنيش

كله ..

- غارات الحرب .. لماذا المناطق الممنوعة إذن ؟ ..

تأمل العسكري ذقنه الكثنة :

- أوامر ياسيدنا ..

سار خطوات في اتجاه بحري . لمح - بزواوية عينه - لطمعتان

العسكري ، فعاد ..

(٢٤٩)

أدار البوصة دورة كاملة من فوق رأسه ، ثم كلف السنارة في الماء .
غاصت معلقة وراءها دوائر متتالية ، واصلت الاتساع حتى غابت تماماً .
ظل السلك في الماء لا يكاد يرى ..

كتم صرخة ، لما شئ جسمه ، فرأى من عيني العسكري . اصطدمت
البوصة بصدره . تزحلق ، وتدحرج على قطع الحجارة البيضاء . تلقفه
القراخ ، وهوى به في الماء ..

خمن أن العسكري ربما لم يره . أغلق فمه ، وسد أنفه بأصابعه ،
وظل ساكناً ..

تنبه العسكري لارتطام الجسم بالماء . توقف ، وحدق : الطرطشات
تعللت على قطع الحجارة ، وضاعت الدوائر المتسعة في الماء . فرد ما بين
ساقيه ، ولم تترك بقعته على البندقية ، وانتظر . حتى امهر المواصلين لا بد
أن يطلعوا ، وانتظر ..

قال العسكري :

- شاربك ..

أيقن أنه وقع في الفخ . لو أن شعر رأسه طفا فوق الماء ، فلن يفلت .
خذه ارتقاء التصحور ، فاجتذبه المياه إلى أسفل . سقط دون تحوط ، وظلت
كلمة العسكري بلا انتهاء . القمص عليه في منطقة محظورة يعني البيات في
الحبس ، البعد عن البيت . لم يحمل البوصة إلا بعد أن حددت للشروح
بالانهيار . صاق نفسه ، فتسلل الماء إلى أنفه وفمه . شفق ، وهم بالتفكير
من فوق الماء .. لكن صوت العسكري واصل التحذير ..

طال كتمه لنفسه . ظل فمه معلقاً ، وأصابعه يقبضان على أفعه . أحس
أنه يخفق ، والمياه ثقيلة ثقيلة ، أقوى من قدرته على الطفو ، فهي تسحب
إلى أسفل ، تشده إلى القاع ..

شمل جسمه تعب ، ولفتح فمه بلا إرادة ، وتهذلت يده ، وتسلسل الماء
إليه بحذر غريب ، وتماوجت المرئيات قاسية ، جميلة . اجتذبه قرار الماء .

لامست قدماء الطحالب اللزجة والأعشاب في القاع . قوة عامصة ،
مجهولة ، تأخذه إلى أسفل ، تحتضنه ، تحبب عليه . صداد من أهازج الجنة
أسماكاً لا تجرى في بحر كما في الدنيا ، من سكر ولور وعسل . يتساءل
فيكون ، يمد يده حيوانيه ، ويأكله فتسرى في البدن شوة . الأنهار حمر ،
والقطرة من السمك تسقط في البحر ، يصير حلواً ، عذبا ، له رائحة الورود ..
أبنت المرأة فزعها لما رآته ينثر الماء من يديه بعد الوضوء : لا تفعل
ذلك .. أنت تنثر حسن ظالمك طول اليوم ١ . وقال عبد الوهاب مرروق
في قهوة الزردوني : ربما تحجب سحابة صغيرة ، عابرة ، شمسا
كاملة ١ .. وقال الشيخ يوسف بدوي : ربما الابتلاء طريقك للوصول إلى
مراتب الاستحقاق ! وطالت الوقفة حتى باتت السماء . وتساءل امتلك
الحاج قنديل البحر .. فهل يملك البحر أيضا ؟ .. وقال الحاج قنديل : أصبح
للجربوع صوت يرفعه ١ . وبنت المرأة مسكينة ، مهمومة ، وبنت شيطاناً
يغص عليه حياته . وقال : لن أطل العمر كله تحت قدمي الحاج قنديل .
وقال : لا أحلم بالبحر .. لكن عشرين عاماً في البحر ، تعطيني الحق في أن
أكون حر نفسي . وقال الشيخ : إن الاستعانة لا تكون إلا بالله تعالى ،
والتطهير بداية الطريق إلى الله . بداية المحاولات والمعانات والأحوال
ومعرفة الله سبحانه . وقال الشيخ : إذا تركيت في مقامات الإيمان فستصل
بعون الله إلى مقام الإحسان ، فتعد الله كأنك تراه ..

دنيا واسعة ، تفيض بطنائف الحكمة ، وحفائق المحبة ، وأنوار العلم .
المساجد والحصر والأسطى والمدابر والأعمدة والقباب والأضرحة والأهلة
والمصاحف والمساحب والبحور والحصرة وحلقات الذكر ولقاع الطبول
وأصوات العنشين والصمت والإنزواء والانفراد والتواجد والتشطح والهرات
العيفة والتهجد وإقامة الصلاة وقراءة الأوراد وتلاوة القرآن وتشمأ في
الملوكوت وأهازيج المحر : تسابيح العنشين والمؤذنين ، ومشاهد الصمق
والوجد واليكاء والتحبب وإلقاء المعائم ومرع للثياب والرحام وأصوات

الزكرف من أولياء الله الصالحين ، وأصوات الملايين من طائفي السير
والشفاعة والستر ، ورياضات النساك والصوم والمنهر والمفتحة والمواجهة
والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة والمحنة والشوق والأنس والرجاء
والتوكل والقرب وموارد القلوب ، والتجليات تأتي وتذهب ، والروح تشف ،
تتحجب من قيود البدن : الوحي والروى والملائكة والكرامات والمعجزات
والصفات واللوح والقلم والحب والحمر والصبابة والحنق والدماء والشوق
إلى يوم اللقاء ..

حمى الوطيس ، وبلغت حركة الذكر شابتها من القوة والسيطرة على
الذاكرين ، وعلت صيحات الوجد ، وصرخات التعبير عن الأحوال ،
وصوت العسكري كالصدى : شفتك ، والأطياب تنزاعى من بعد ، والأشعة
المضيئة تحترق المزنيات ، وتضيء نفسه ..

تلقى فيص التجليات على قلبه . برلت أمطار المدد على أرض النفوس
الطيبة ، والقلوب المطهرة ، والأرواح المصينه ، والأسرار المقدسة
عسلت أوساخ لهم ، وتمت المصافاة ، وحلت المعاجاة ، وفتح باب القدرة .
صعد سماء بعد سماء . ربا إلى عجائب الله وآياته ، امتلأ بالأنوار
والمواهب ، تقلب في أحوال الحب ، نطلع إلى مساحب الرحمة ، وأرض
النفوس الطيبة ، وأودية القلوب المؤمنة ، وحلجان الأرواح المطهرة ،
والألفاظ تهب معانيها . الذوق والوجد والقيص والسط والهبة والأنس
والعبية والحضور والسكر والمحو والتفاء والبقاء والنورانية والروى
والصفاء والأغنيات الجميلة العائنة المصدر ، والتسليم هبت على المرامير
المعلقة في جريد التنزيل ، لتعالت نغمات ليست من دنيا البشر ..

اتسع صيق الأكوان ، وحصلت أنوار المواجهة ، وصارت البروج
سرا من أسرار الله ، وأقبل القلب على رؤية مولا . لا ظلمة ، ونور
العرش دلم في الليل والنهار ..
سكنت الحركة ، وتغطي الهدوء

فوجئ حمادة بك بطرقات قاسم العرياني على باب البيت في الصباح الباكر . طفت جثة على الراكشي - بعد أيام - في حليج أبو قير . كانت بطنه مبقورة ، والسمك أكل أحشاءها . تعرف عليه محمد كسبة من المصحف القصي الممتلئ من عقه ، صرخ :

- على !

كان احتفاء الراكشي شاعل الجميع ..
في اليوم الثالث لغايه ، سألت أم الأولاد في الحلقة . يجوب الشوارع ، ويتردد على الجوامع والروايا والقهاوى . ربما أراح جسمه في الحديقة المقابلة لمستشفى الملكة بارلى ، أو في حديقة سراى رأس النين ، أو في مسجد المميرى ، فلا ينام أكثر من لينتين خارج البيت ..
غاب محمد للراكشي عن المدرسة . توزع مع الرجال في الشوارع والمساجد والكوريش وورش أمراكب والقهاوى ومستشفى رأس النين وحديقة القصر ونقطة الأنفوشى وقسم الجمرك ..

قال حمودة هلول:

- آخر مرة رأيته فيها ، كان يحمل البوصة والعلق قرب السلملة ..

قال قاسم العرياني :

- أذهب يوسف بدوى عقله .. وتركه !

بدل حمادة بك مساعيه ، فقلت الجثة - بعد تشريحها - إلى بيت

أراكشي ..

دفع أمين عرب ثمن الكفن . تنامى - ساعة غسله - من مكان لريب ، اذن وقت من أوقات الصلاة . وجين وقع للقلبي عن سوانته ، رفع يده اليسرى ، ووضعها على السواة . قرأ المحفل . نقلهم ذات اليمين ودأت التشمال ، فانقلب الراكشي معه يميناً وشمالاً ..

جسر إلى الحبيب

قال أبو الحسن الشاذلى : " وتصحيح العبودية ، ملازمة الفقر . والضعف والذل إلى الله تعالى ، وأضدادها أوصاف الربوبية . فمالك ولها ؟ .. فلازم أوصافك ، وتعلق بأوصافه . وكل من يسيطر الفقر الحقيقي ياغنى من لتفكير سواك ؟ ومن يسيطر الضعف الحقيقي : يالقوى من للضعف سواك ؟ ومن يسيطر العجز الحقيقي : يالقادر من لتعاجز سواك ؟ ومن يسيطر السذل الحقيقي : ياعزيز من لتدليل سواك ؟ .. تجد الإجابة كأنها طوح بك " .

طلب الحبيب من الحبيب رضاه

ومنى الحبيب من الحبيب لفساه

أبداً يلاحظه بعيني قلبه

والقلب يعسرف ربه ويسراه

يرضى الحبيب من الحبيب بقربه

دون العباد ، فما يريسد سواه

(٢٥٤)

هرع الناس إلى الجنازة دون أن يضرهم أحد . هاتف خاطب
أسماعهم . مات على الراكشي ولى الله ، فذهبوا للصلاة عليه ، ودفعه .
أصابت الذكاكين أنوارها في ميدان الأئمة والموازيبي وشارع الميدان . تقدم
الجسارة طلبة من المعهد الديني ، يرتدون الجبة والكاكولا ، وينشدون -
بعممة موسيقية - بردة البوصيري ، كان غاشية طلبة المعهد يعرفونه
بالاسم . رار زكي تغلب ، شرب أدوار الشاي ، وشارك في الحفظ
والمناقشات . دخل في صداقات ، سهر إلى صلاة الفجر . أظلت الجميع
طيور ، نبتت معا اعتاد الناس رؤيتها . ليست عصافير ولا سمعان ولا تورس
ولا حمام ولا إيمام . إنما هي طيور صغيرة ، ملونة بما يصوى ، كأنه قطع
الشمس ..

تنبه المشيعون من أهل بحري لمكانة صاحب الجنازة . السؤال الذي
حركه مرأى الجمع المتدافع : من الميت ؟ يجيبون عليه : هذا ولى فاضل ! .
يذوب الناس في الجبارة . يصيغون إلى اتساعها وعمقها . ينمسون البركة
والممدد ..

أطال البعث التوقف أمام جامع العرسي . في الساحة القريبة من
المقام . أحقق الرجال في تحريك البعث ، أو أقدامهم . تقدم أحرون
للمساعدة . لكن البعث لم يعادر المكان . علت التهليلات والتكبيرات .
المريد يودع شيخه ، يستأذنه في المعادرة . السلطان يستدل له نصحه
وتوجيهه ، وما يجب قوله عندما يحاسبه الملكان ..
- بالإنسان سلطان !

كرر الرجال متعالي به صوت محمد صبرة . تبعوه بقراءة الفاتحة ،
وقل هو الله أحد ، وقل أعود برب الفلق ، والشهادتين ، وإنا لله وإنا إليه
راجعون . تحركت - بالكاد - أقدام الرجال ، وتصرع البعث . علت
التكبيرات والتهليلات ، سمعها عساكر الحرس الملكي في سراي رلى
التنين ..

(٢٥٥)

كانت قرامة الناس تقوم لما اقتنهم من عجب وهيبة وخوف ودهشة .
ماحدث خارقة ولاجوارق الأولياء . امتدت الأيدي إلى التبعث تحاول
ملامسته ..

ابتوى قاسم العرباني - إذا لبطأ البعث أمام أصرحة الأئمة الاثني
عشر - أن يدعو لإزالة جسد الراكشي إلى جانب أولياء الله .. لكن البعث
واصل طريقه ، وإن اهتر - امرأت - في أيدي الرجال ربما ألقى السلام
على الأولياء ، أو دعا لهم ..

الموت جسر ، يصل الحبيب بالحبيب ..
حرح الجد السحاي من الجنازة على ناصية الموازيني ورأس التنين .
جلم على الرصيف ، قبالة مكتبة النس . لوح بيده ، وقال في صوت
متعب :

- مع السلامة يا على ! ..

واصلت الجنازة سيره في شارع الميدان يريد حجمها بالسائلين عن
الميت . على الراكشي ، الصياد ، سائح السمك ، مزيد الشريح يوسف
بدوي ..

حين وصلت الجبارة إلى جامع الشيخ ابراهيم ، كان العشرات قد
صاروا مئات . وقف للصلاة عليه حارح الجامع أصعاب من وفقوا ناجله ..
ظل المشيعون على أقدامهم حتى ميدان عمر باشا ، ومنه إلى ميدان
البيل ، ثم مقابر العامود . ترأجموا في الشارع الصيق ، ومنه إلى شوارع
أخرى صيقة ، سبقوا البعث ، وحملوه ، وأحيطوا به ، وتبعوه ..
نما قاربت بذاية الجبارة آخر شارع الباب الأخضر ، كانت نهايتها في

شارع الميدان ..

ولى الله كلمة المر التي اجتذبت المئات . اندفاع والرحام والعرق
والقلهات والدعوات والتكبيرات والصرخات والخوف من الانتعش ..
علت الزغاريد ، وارتفعت الأصوات منعمة :

(٢٥٦)

يا داييم هو الداييم ولاداييم غير الله !..
اندفع جابر برغوت ناحية النعش . احترق الزحام للمصاحب . مسح
على النعش بأطراف أصابعه :
.. كراماتك محفوظة يا شيخ على !..

تجاورته الجنارة ، في اللحظة الثانية . دفعه الزحام خارج بحر
البشر . جلس على الرصيف - أمام سور المقابر - يتأمل تمزق ملابسه ..
دخلت الجنارة من باب مقابر العمامود المجاور لمستشفى دار
إسماعيل . تعالي صوت على الراكشي من داخل النعش ، يمسك على
أصحاب القبور : السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين . ردوا السلام عليه
بصوت سمعه مشيعوه ..

هل النعش ينتقل من باب حوش إلى باب آخر . يتوقف ، ثم يواصل
التسير . لا يقوى حاملوه على فعل شيء ، يجنبهم غصباً عن أنفسهم ،
يمتدقون توقفه لحظات ، تطول وتقصر ، أمام كل صريح ، ثم يسير بالناس
إلى غيره . وحس أرادوا التحول في حوش عائلة الراكشي ، نقل
عليهم النعش ، ولم يطاوعهم . نكاثروا عليه ، يشنونه داخل الحوش ، وهو
يعلمهم . وقوا على الأرض دون أن يعانر مكانه ..

حاول الرجال أن يصلوا الراكشي . لقوا بالنعش مرات حتى لا يعرف
إلى أين يتجهون ، ثم تمخض الجنارة .. لكن النعش رفض التحرك إلى
الأمام .. ثم اتجه - من تلقاء نفسه - ناحية حوش مهجور ، تنأثر فيه
شجيرات صبار وقطع حجارة ..

قال يوسف بنوي :

.. اللهم اغفر له وارحمه وعافه وأكرم نزله ، وأوسع
مدخله ، وأغسله بالماء والثلج ، ونقه من الخطايا ، كما نقيت الثوب الأبيض
من الدنس ، وأبدله داراً حيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله ، وزوجاً حيراً
من زوجته ، وأدخله الجنة ، وأعدّه من عذاب القبر ، وعذاب النار ..

(٢٥٧)

واتجه بالقول إلى على الراكشي :

.. اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا : شهادة أن لا إله إلا الله ،
وأن محمداً رسول الله ، وأنت رضىت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد
صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن إماماً ، وبالكنية قبلة ، وبالمؤمنين
إخواناً ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الساعة آتية
لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور .. فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل
واحد منهما ، ويقول : انطلق بنا .. ما وقعت عند هذا ، وقد لقن حجتك .
ويكون رسول الله حجيجه دولهما ..

دهم التربي ارتباك للصوت المساعد من داخل المقبرة -

.. غادروا المكان ، وأتركوني مع رسل الله ..

طمأنته لمة الناس ، وتهليلاتهم ، ونكبيراتهم ..

قال على الراكشي :

.. رب أنزلي منزلاً مباركاً ، وأنت خير المنزلين ..

وقال في صوت متأثر :

.. ليت الناس يعلمون بما غفر الله لي ، وجعلني من المكرمين ..

ورتل الصوت الراتق :

.. " إن الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تنزل عليهم الملائكة أن
لا تحزنوا ولا تحزبوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياكم في
الحياة الدنيا ، وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تدعون ، رواه من شعور رحيم " ..
وعلا صوت الراكشي بلاية :

.. " ثبتت لله الذين أسوأ بالقول الثابت في الحياة الدنيا ، وفي

الآخرة " ..

وتلا :

.. " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ، ولا

فساداً ، والعاقبة للمتقين " ..

تصاعد صوت هاتك من داخل القبر :

« أدخلوا العبيب إلى العبيب ..

وسمعت قراءة ، لا يوجد مثل جمالها في أصوات القراء والمؤذنين ..

حين بدأ الشيخ في تلقين الراكشي ما يجب قوله ، إذا سأله الملكان ،

سبق الراكشي في صوته الرائق للبرات :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . عشت

مزمناً ، ومث مزمناً . الله تعالى ربى ، ومحمد نبى ، والإسلام دينى ، ألم

تعلموا أنى أعلم مالا تعلمون ؟ ..

الوصول إلى مقام المشاهدة ، لا يكون إلا بعد المعارقة من هذا العالم .

الفناء في الكلية ، سواد الوجه في الدارين ، لا وجود لهاهاً وباطناً ، ديباً

وأخرة . للعقر الحقيقى . العودة إلى العدم الأسمى . لن يسأله الله عن ركاءة

ولاص حج ولا صدقة ولا صلة رحم ولا مواصاة . تجلت للحقيقة بالموت .

احترق البرزخ الهائل بين الأجسام الكثيفة ، وعالم الأرواح المطهرة . تألفت

وجهة جميع العابدين . بلغ درجة النفس المعطشة ، سدرة اللمتهى ،

البروجية الكبرى . نهاية مراتب الأسماوية التى لاتعلوها مرتبة . جاور

قناطر البار ، واستوجب الجنة .

صدر من

رباعية بحرى :

أبو العباس

باقوت العرش

تحت الطمع :

اليوصى

على قـرآن

فهرست

الوجوه	الصفحة
١ - رؤيا	٧
٢ - النقي النجوم	١٦
٣ - التخريج	٢٨
٤ - النورس يحلم بالمدن البعيدة	٣٨
٥ - ظلال حزينة	٤٧
٦ - مواصلة الممدد	٥٢
٧ - اتساع الدائرة	٦٢
٨ - التحديق بلا أجنحة	٧٠
٩ - في حضرة ياقوت العرش	٨١
١٠ - الزفاف	٩٥
١١ - التسمية	١٠٢
١٢ - المجاهدة	١٠٩
١٣ - زرقعة الستات	١١٧
١٤ - أسواق من النور	١٢٥
١٥ - جزيرة السحر تبوح بأسرارها	١٣٥
١٦ - قبل موسم السردين	١٤٠
١٧ - عجريّة	١٤٦
١٨ - ذبالسة	١٥١
١٩ - الخوالقة يطلب الملاق	١٥٥
٢٠ - الشسوط	١٦١
٢١ - الخدمة في ساحة الطهر	١٦٩
٢٢ - صلاة الجنّاة	١٧٦

٢٣ - إغفاءة	١٨١
٢٤ - بركة	١٨٨
٢٥ - لحظات للأمل	١٩٥
٢٦ - الغابة في الاسطبل	٢٠٢
٢٧ - صرخات الجزر الوحشية	٢٠٦
٢٨ - العاصفة	٢١٤
٢٩ - العودة إلى بحري	٢٢٣
٣٠ - ابقاعات صامتة	٢٢٧
٣١ - أصداء الطبول البعيدة	٢٣٣
٣٢ - اتساع ضيق المكان	٢٤٢
٣٣ - جسر إلى الحبيب	٢٥٢

(٢٦٣)

- ١٦ - هل (١٩٨٧) - الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٧ - حكايات وهوامش من حياة المينلى (١٩٩٦) الهيئة العامة لقصور
الثقافة
١٨ - سوق العيد (١٩٩٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩ - انقراجة الباب (١٩٩٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب

كتب أخرى :

- ٢٠ - مصر فى قصص كتابها المعاصرين (١٩٧٣) الكتاب الحائز على
جائزة الدولة - الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢١ - مصر .. من يريدنا بموء ؟ (١٩٨٦) دار الحرية
٢٢ - نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (١٩٩٣) الهيئة العامة لقصور الثقافة
٢٣ - السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (١٩٩٥) مكتبة مصر
٢٤ - آباء المستنبات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (١٩٩٥) مكتبة مصر
٢٥ - قراءة فى شخصيات مصرية (١٩٩٥) الهيئة العامة لقصور الثقافة

مؤلفات محمد جبريل

روايات :

- ١ - الأسوار (١٩٧٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب - نقد
٢ - إمام آخر الزمان (١٩٨٤) مكتبة مصر - نقد
٣ - من أوراق أبى الطيب المعتنقى (الطبعة الأولى ١٩٨٨) الهيئة المصرية
العامة للكتاب - (الطبعة الثانية ١٩٩٥) مكتبة مصر
٤ - قاضى النهار ينزل البحر (١٩٨٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب
٥ - الصهبة (١٩٩٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب
٦ - قلعة الجبل (١٩٩١) روايات الهلال
٧ - النظر إلى أسفل (١٩٩٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب
٨ - الخليج (١٩٩٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب
٩ - اعترافات سيد القرية (١٩٩٤) روايات الهلال
١٠ - زهرة الصباح (١٩٩٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب
١١ - الشاطئ الآخر (١٩٩٦) مكتبة مصر
١٢ - أبو العيسايس - رباعية بحرى (١٩٩٧) مكتبة مصر
١٣ - ياقوت العرش - رباعية بحرى (١٩٩٧) مكتبة مصر

قصص قصيرة :

- ١٤ - تلك اللحظة (١٩٧٠) نقد
١٥ - انعكاسات الأيام العصبية (١٩٨١) مكتبة مصر - نقد

رقم الإيداع : ١٤٩٦٢ / ٩٧

الترقيم الدولي : 4 - 11 1126 - 977

احتشد محمد جبريل ، بطاقته الروائية الخلافة ، لبيدع هذا العمل الكبير "رباعية بحري" ، الذى يصوغ كل واحد من أجزائه الأربعة رواية مستقلة قائمة برأسها . ثم تتكامل الروايات الأربع لتمنحنا مشهداً روائياً فريداً ..

نلتقى فى هذه الرواية التى بين أيدينا [ياقوت العرش] وهى الجزء الثانى من الرباعية ، بحياتها حول منتصف هذا القرن . المكان : الإسكندرية ، والأفلاق : مصرية . نعيش مألوف القضية الوطنية ، ومشكل العدالة الاجتماعية ، ونعثر فى حضرة الأقطاب ذوى الكرامات والمجاهدات الرفيعة ، ونحيا الحب الشفيف والعلاقات الحسية . وقد توسل الكاتب بكل أداة مسعفة ، موروثه ومستحدثه ، فعند الأواصر الجوهرية بين الدنيوى والروحي ، وبين الدنى والشعبى ، وبين التاريخى والأسطورى .. ولقد وفق فى كل هذا توفيقاً فذاً .

" د . عبد المنعم تليمة "

المنعم
مكتبة مصر
٣ شارع كاسر صدق - الجيزة